جيلبرت سينويه



إن شاءَ اللّه - 2

صرخة الحجارة

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

إن شاء اللّه - 2

صرخة الحجارة

رواية

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل**، رواية (٢٠٠٧)؛ **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨)؛ **أخناتون - الإله اللعين**، رواية (٢٠١١)؛ **الفرعون الأخير**، رواية (٢٠١٢)؛ **أنا، يسوع**، رواية (٢٠١٢)؛ **بريفان**، رواية (٢٠١٢)؛ **صمت الآلهة**، رواية (٢٠١٥)؛ **البكباشي والملك - الطفل**، رواية (٢٠١٥)؛ **الملكة المصلوبة**، رواية (٢٠١٦).

جيلبرت سينويه: **إن شاء الله- 2، صرخة الحجارة**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: محمد جليد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Gilbert Sinoué: Inch' Allah - 2, Le cri des pierres

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى طمطم ودينا

شخصيات الرواية

أسرة شهيد الفلسطينية

مراد شهيد: الأب

منى شهيد: الأم، كان لقبها لطفي عند الولادة

كريم شهيد: الابن البكر

سليمان شهيد: شقيق مراد

سامية عبد القادر: شقيقة مراد، كان لقبها شهيد عند الولادة

حسين الحسيني: ابن سامية وعبد القادر

ليلى شهيد: زوجة كريم، كان لقبها طربوش عند الولادة

فيروز شهيد: ابن كريم وليلى

مبروك: الابن البكر لكريم وليلى

عمر: ابنهما الأصغر

أسرة لطفي المصرية:

تيمور لطفي: الأب

نور لطفي: الأم

هشام لطفي: الابن البكر

فاضل لطفي: الابن الأصغر

أسرة «برونشتاين» الإسرائيلية:

«صامويل برونشتاين»: الأب

«إرينا برونشتاين»: الأم، كان لقبها مرقس عند الولادة

«أفرام برونشتاين»: الابن

أسرة الصافي العراقية:

سلمى الصافي: أرملة نضال الصافي

فواز: ابن أخ سلمى

مجيدة الصافي: زوجة فواز

الزوج الفرنسي:

«جان فرنسوا لوفون»

دنيا لوفون: عراقية، كان لقبها الصافي عند الولادة

توطئة

سينشئ جيل والدي، في نحو ثلاثة وعشرين شهرا، حدودا مختلقة تحدّ دولا مختلقة أيضا.

سيقتطع الجنرالُ «هنري غورو» لبنانَ الكبير الجديد من سورية يوم ٣٠ غشت/ أغسطس ١٩٢٠، وهو يوم نشأته. وستنشأ يوغوسلافيا ومملكة الصرب والكروات والسلوفينيين المزعومة يوم ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩٢١. وسيوقع الاتفاق الإنجليزي-الإيرلندي القاضي بتقسيم إيرلندا يوم ٦ دجنبر/ كانون الأول، أي بعد أقل من ستة أشهر.

وصادقت عصبة الأمم على الانتداب الإنجليزي على فلسطين، الذي أدمج بنود «إعلان بلفور»، يوم ٢٢ يوليوز/ تموز ١٩٢٢، أي بعد أحد عشر شهرا من تنصيب الإنجليز فيصل، ابن الشريف حسين، ملكا على العراق [...].

وسرعان ما دخل الصرب والكروات الحرب. وانفجرت فتن ضارية في إيرلندا عندما مزقت حربٌ أهلية العرى بين الوطنيين الإيرلنديين. وابتداء من الثلاثينات، بدأ الإنجليز يواجهون داخل

فلسطين تمرد العرب الغاضبين من إخضاع بلدهم للتقسيم وإعلانه «وطنا قوميا» لليهود [. . .].

هذه هي هدايا الحرب التي قدمها والدي للعالم.

«روبرت فيسك»

الحرب الكبرى من أجل الحضارة

(La Grande Guerre pour la Civilisation)

أنجز الترجمة الفرنسية «لوران بوري»

و«مارك سان أوبيري» و«ألان سبيس»

منشورات «لاديكوفيرت»، ٢٠٠٥

القسم الأول

(١)

لا يتنبأ بانقلابات التاريخ الكبرى إلا الآلهة.

مجهول

القاهرة، ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٦

هتف تيمور لطفي وهو يشرع صفحات جريدة *«فرانس أوبسيرفاتور»*:

- اسمع، يا هشام! اسمع، يا بني. المقالة بقلم أحدهم اسمه «كلود بوردي».

- كل شيء على ما يرام، أليس كذلك، السيد رئيس المجلس؟[١] فنظام الكولونيل عبد الناصر أقوى مما كان من قبل. وتحولت مشاعر المصريين والشعوب العربية الأخرى تجاه فرنسا، التي كانت غامضة بالأمس، إلى حقد. وفي الشرق الأوسط كله، لن يوجد أي معهد فرنسي، ولا مدرسة فرنسية، ولن يشتروا أي بضاعة فرنسية، ولن يوظفوا أي تقني فرنسي. وقد بات المتمردون الجزائريون ينتظرون، الآن، يد العون من جميع البلدان العربية. سيعاني الفرنسيون في مصرْ ردّة غبية وظالمة، لكنها حتمية.

---

(١) «غاي مولي» Guy Mollet.

وستتحطم حياتهم. وستتعرض ممتلكاتهم للتخريب والضرر الذي سيسببه الآخرون. كل شيء على ما يرام. لقد قررت الولايات المتحدة الأمريكية إركاع فرنسا، وهي تمتلك الوسائل لفعل ذلك. وتبدّد حلم الاستقلال الذي داعب مخيلة السيد «بينو»[١] في لحظة ما. أما الروس، فيحبذون التعامل مع «أيزنهاور» بدل أي آمر باريسي غير مسؤول. كل شيء على ما يرام.

رفع هشام يديه قليلا، ثم تركهما تقعان على متكإ الأريكة.

- إنه أمر محزن بالنسبة لفرنسا ولصورتها في البلدان العربية. أي حشرة لسعت السيد «مولي»، إذاً، حتى ينطلق في هذه المغامرة! هذا الأمر محتمل بالنسبة لإنجلترا. إذ نعرف دهاء هؤلاء الجنتلمانات. لكن فرنسا؟

خلع تيمور نظارته، ومرّر يده مرات عديدة على خدّه المصقول. باتت حركته هذه شبه متكررة، منذ بعض الوقت. هل يسعى بذلك إلى محو آثار الزمن؟

قرّر أن يجيب:

- لم يهضموا قرار تأميم قناة السويس الذي اتخذه جمال عبد الناصر، وانقادوا لهذا المخبول «أنتوني إدن»[٢].

- تأميم القناة، أجل! أجاب هشام. إنها الصفقة الكبرى! هناك تفصيل لا يكتسي أهمية، وهو أن العقد الذي يربط فرنسا بمصر يدنو من نهايته.[٣] إذاً؟ هل ينبغي أن تخوض حربا بروح القرن التاسع

---

(١) وزير الشؤون الخارجية بين ١٩٥٦ و١٩٥٨.

(٢) انظر الجزء الأول *أريج الياسمين*، منشورات «جيلو»، ٢٠١١.

(٣) كانت مصر قد تنازلت لشركة قناة السويس عن الطريق البحري لمدة تسع وتسعين سنة تمتد من سنة ١٨٦٩ إلى ١٩٦٨.

عشر الاستعمارية؟ هل ستتحالف سرًّا مع إسرائيل حتى تشن هذه الحرب؟

أخرج هشام من جيبه علبة سجائر «لاكي سترايك». قدّم واحدة لوالده، لكنه رفضها.

- أنت تدخن كثيرا، يا صغيري.

- صغيري؟ لقد بلغت الثلاثين، يا أبي.

- ورُقّيت إلى رتبة مُقدّم. أعرف ذلك.

- رقّاني عبد الناصر بنفسه، أكّد هشام مبتسما.

أشعل عود ثقاب.

- في كل الأحوال، أظهر هذا الصحافي الفرنسي وضوحا كبيرا. لقد علمت، صباح أمس، أن السلطات أمرت بإغلاق بعض المدارس الأجنبية، ويروج هنا وهناك أنها طلبت رحيل عائلات يهودية ومسيحية. ويستعد آلاف اليونانيين والإيطاليين لحزم حقائبهم، رغم أنهم ولدوا ويعيشون هنا منذ أجيال.

غشيت سحابة كدر عيني تيمور لطفي.

- إنه أمر منطقي. فهم يخشون أن يدفعوا ثمن تهور الثالوث الإنجليزي-الفرنسي-الإسرائيلي. إذا ثبت هذا الأمر، فإنه سيكون مأساة حقيقية. . نزيف مصري آخر، لن يخطر حتى على بال موسى نفسه.

- بابا، ألست تبالغ في الأمر؟

- لا، يا ابني. بل مازال وصفي دون مستوى الواقع. لقد ساهمت هذه الجماعات، منذ قرون، في ازدهار بلدنا. وهي منخرطة فيه تماما. تذكر أن هذه الأقليات لجأت إلى مصر في أواسط القرن التاسع عشر، عندما فرّت من مذابح الأتراك. لجأت إلى هذه البلاد التي ساد فيها حينها مناخ من التسامح والانسجام بين ديانات الكتاب

الثلاثة. وما كادوا يستقرون، حتى واجهوا مأزقا: إما أن يبقوا مسيحيين مناصرين للغرب، وإما أن يعتنقوا الإسلام. هكذا، ابتكرت هذه الجماعات طريقا ثالثة، هي القومية العربية.

- هل أنت جادّ؟ هل المسيحيون هم رواد القومية العربية؟

- أجل، يا عزيزي! لأنهم اختاروا الاندماج، والالتحام ببلد الاستقبال، والمشاركة بحيوية في نموه، دون أن يتخلوا أبدا عن هويتهم الدينية. وهؤلاء المهاجرون أنفسهم هم الذين يقفون أيضا وراء *النهضة* الثقافية والسياسية. ويوما بعد يوم، تصور هؤلاء المسيحيون الشرقيون أفكارا مبتكرة يغرف منها اليوم أغلب الزعماء القوميين العرب.

- أفترض أنك تفكر في ميشيل عفلق، هذا السوري الذي كان من بين هؤلاء المسيحيين، والذي أسس حزب البعث منذ بضع سنوات، ويشغل اليوم منصب وزير الشؤون الخارجية في سورية؟

- عفلق. تماما.

- لكن الرجل لا يتمتع بموضوعية كبيرة. لقد قرأت في مكان ما أنه يصرح، رغم كونه مسيحيا، أن الإسلام حبا العرب باللغة الأنبل والأدب الأرقى. وهو يؤكد أيضا أن الأمريكيين، والأوربيين أيضا، لن يبلغوا نفس الدرجة الروحية التي بلغناها نحن المسلمون. وهو بذلك بعيد عن الحياد والتجرد.

- أنت تنسى أن تؤكد أنه ظل، رغم إعجابه بديننا، يحارب الفكرة التي يمكن أن تكون ذريعة أو سلاحا في المواجهة المتزايدة مع الغرب. لقد دافع دائما عن فكرة دولة علمانية. فضلا عن ذلك...

- الغذاء جاهز!

رفع تيمور نظره إلى زوجته نور. التمعت نظرته ببريق حنين،

كأنها حلّت بفيلا الجيزة أمس فقط، يرافقها شقيقها أحمد ذو القفار، صديق تيمور الوفي.[1] كان عمرها حينها أربع وعشرين أو خمس وعشرين سنة. سمراء. شعرها أسود. جميلة مثل قلب. واليوم، بعد ثلاثين سنة، لم يذبل جمالها على نحو مدهش. لكن نور ترفض أن تصدق ذلك. تضحك عندما يذكرها زوجها بذلك، وترميه بالمثل العربي: «كل خنفس في عين أمه غزال.»

- هل وصل أخي؟ سأل هشام، وهو ينهض عن الأريكة.

- اتصل منذ ربع ساعة، ليخبرنا بتأخره قليلا.

خاطب هشام والده بنبرة تنضح مرارة:

- ينبغي أن تكلمه، يا أبي، أليس كذلك؟

تحاشى تيمور السؤال، وتوجه نحو صالة الأكل.

*

حيفا، في اللحظة ذاتها

غسل حسين الحسيني وجهه، ثم مسحه، ونظر إلى نفسه في مرآة الحمام.

ملامحه بارزة ومطاوعة. فمه واسع ذو شفتين لحيمتين. قسماته صارمة. وشعره أسود مثل ليلة بلا نجوم. مدهش شَبَهُهُ بالمرحوم والده عبد القادر الحسيني الذي سيبقى اسمه منقوشا في ذاكرة الفلسطينيين إلى الأبد. قبل ثماني سنوات، سقط بطل المقاومة تحت وابل من رصاص الصهاينة المهاجمين خلال المعركة الضارية بين الجانبين لبسط السيطرة على قرية القسطل.

كانت القسطل قد عادت عربية- منذ مدة-، لكن عبد القادر

---

(١) انظر الجزء الأول.

مات. كان البطل قد نزل من التلة في معركته الأخيرة، على محمل، يشيعه القرويون الذين غالبا ما قادهم إلى ساحة الوغى.

تجمد حسين لحظة، كأنما يسعى إلى فك خطوط المستقبل في المرآة. غدا سيحتفل بسنواته الثماني عشرة. لقد أنهى دراساته رغم الحرب والتقلبات التي أجبرت جزءا كبيرا من أبناء شعبه على الرحيل. إنها النكبة: ذاك هو الاسم الذي أطلقه الفلسطينيون على هذه المأساة التي دفعت نحو سبعمائة وخمسين ألفا منهم إلى المنفى القسري.

كان تلميذا نجيبا ومجتهدا. كانت جامعة نابلس، أو القاهرة، أو الأزهر، تفتح أبوابها أمامه. لكن هل كان ذلك اختيارا صحيحا؟ كيف يطمئن بين جدران الدراسة، ويعيش كأن لا شيء يحدث؟ كأن فلسطين لا تنزف؟ هل ينسى ذلك اليوم المشؤوم الذي أهدى فيه لفيف من الغرباء، داخل بناية في مدينة نيويورك الواقعة على بعد آلاف الكيلومترات من هنا، أزيدَ من نصف أرضه للصهاينة؟ كيف ينسى أن إسرائيل، بعد انتصارها على العرب سنة ١٩٤٨، تتوسع الآن على رقعة أوسع مما ارتآه مخطط التقسيم؟ مستحيل.. كأنما يطلب من رجل التخلي عن أبنائه وأسرته. ففي شرايين حسين تجري دماء عبد القادر. ودماء فلسطين تطلب الثأر.

تناول ساعته الموضوعة على حافة المغسلة. كانت عقاربها تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهرا. أمامه الوقت الكافي ليحلّ بغزة، آملا ألا يعترضه الجنود الإسرائيليون الذين باتوا يراقبون الشريط الساحلي بين عسقلان وحيفا، والقدس الغربية، ووادي جزريل ونهر الأردن الأعلى. في الطريق، سيقلّ معه زيد القسام، شقيقه الروحي وأمين سرّه.

مع مرور الوقت، توثقت صداقتهما، التي ولدت قبل عشر سنوات على مقاعد الدراسة. كان حسين يشعر أن عرى وثيقة تربطه بزيد، ابن البطل عز الدين القسام، أحد آباء المقاومة الفلسطينية، وأول من قال إنه لا يمكن فصل العمل السياسي عن الكفاح المسلح. لقد حارب عز الدين الذي رأى النور في سوريا، الاحتلال الفرنسي لبلاده بعد الحرب العالمية الأولى. حكمت عليه محكمة فرنسية بالإعدام سنة ١٩٢١، لكنه نجح في الفرار والانتقال سرا إلى فلسطين. وما كاد يصل إلى حيفا حتى نظم المقاومة ضد الانتداب البريطاني، حيث أدرك قبل الجميع أن هذا الانتداب كان يعد الحركات الصهيونية لتستولي على الأراضي الفلسطينية، وتنشئ دولة يهودية. رجل صاحب نبوءة. مات بطلا مثل باقي الأبطال.

في يوم ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٥، وجد القسام ورجاله- نحو مائتين- أنفسهم محاصرين في ضواحي جنين أمام أكثر من خمسمائة جندي بريطاني يفوقونهم عُدّة وعددا. قيل له إن المعركة لن تكون متساوية، والانتصار فيها مستحيل. اكتفى بالقول: «لا يهم، فموتنا سيكون مثالا لشعبنا.» فلم يخلف الموت موعده.[١]

بالطبع، يحمل زيد قناعات المرحوم والده. لم يأل جهدا لينقلها إلى صديقه حسين. قبل أسبوع، بينما كانا يناقشان كالعادة مستقبل أرض فلسطين، اقترح عليه زيد بنبرة غامضة:

- هل أنت مستعد لترافقني إلى غزة عندما أطلب منك ذلك؟

- غزة؟ هل نسيت أننا لم نعد في بيتنا؟ وأن المدينة باتت تخضع لمراقبة مصر منذ الحرب؟

---

(١) احتفاء بذكراه، تبنى الجناح المسلح في حركة حماس، المعروفة اليوم، اسم «كتائب القسام» المسجلة على لائحة التنظيمات الإرهابية لأغلب البلدان الغربية.

- بالضبط، أجاب زيد، هناك يتهيأ مستقبلنا بفضل الإخوان المسلمين.

بالفعل، هناك في ذلك الإقليم الصغير المكتظ بلاجئين بؤساء، بدأ يبرز الوعي السياسي الفلسطيني منذ حرب سنة ١٩٤٨، تحت تأثير الإخوان المسلمين المصريين. لم يكن «الإخوان» القوة الناشئة الوحيدة، لكنهم كانوا أكثر عزما، سواء داخل مخيمات اللاجئين أو في أوساط النخب الحضرية. ومنه أيضا أطلق الفدائيون الأوائل شرارة الكفاح ضد دولة إسرائيل الجديدة.

أضاف زيد قائلا:

- في كل حال، ألم يحتل البريطانيون أيضا فلسطين؟ هل منع ذلك آباءنا من القتال؟

- كيف سنخترق متاريس الإسرائيليين؟ سأل حسين.

- خلاص! انسَ اقتراحي!

هكذا هو زيد، صلب المعدن. إما يلتزم، وإما لا يفعل.

استسلم حسين، قائلا:

- طيب، سأرافقك. لكن هل تخبرني بالسبب على الأقل؟

صمت زيد، قبل أن يجيب بنبرة مهيبة:

- هناك سنلتقي برجل مقدام سينقذنا.

- ما اسمه؟

وضع زيد سبابته على شفتيه.

- لا تنس أبدا أنك سيدٌ للأقوال التي لم تنطق بها، وعبدٌ لتلك التي تنفلت منك.

*

كان القهرمان سيّد، النوبي ذو القوام الممشوق المتدثر بجلابية حريرية، منهمكا في تقديم الأطباق الأولى، عندما ظهر فاضل، شقيق هشام الأصغر، على عتبة صالة الأكل.

استدارت نور نحو ابنها مثلما تفعل الوردة نحو الشمس. مال ليقبلها، ثم احتضنته بين ذراعيها وهي جالسة.

- مازال الوقت مبكرا، دمدم تيمور.

- أخبرتكم أنني سأتأخر.

قال هشام ساخرا:

- مثلما تفعل دائما. التأخر عندك طبيعة ثانية.

تجاهل فاضل ملاحظته. مدّ يده إلى سلّة الخبز.

تفصله ثلاث سنوات فقط عن أخيه، بل ألف سنة في الحقيقة، لأنهما يختلفان في كل شيء تقريبا. خلال السنوات الأخيرة، انخرط هشام الوطني والقومي الواثق، انخراطا كلّيا في صفّ عبد الناصر وطغمته التي باتت الآن سيدة مصر. لا شيء يكتسي عنده أهمية ما عدا تجديد الحضارة العربية التي خبا بريقها منذ زمن طويل. فثمة أحلام ومُثل كثيرة لا تشغل بال فاضل نهائيا.

ينضاف كذلك إلى هذه الاختلافات الفكرية تباين بين جسميهما. كان هشام ذا بنية رياضية ضخمة وممشوقة تبرز سحرا طبيعيا. أما شقيقه، فبدين تبدو سمنته سابقة لأوانها بالنسبة إلى رجل في السابعة والعشرين، كأنه سلطانٌ صغير أكثر من أكل البقلاوة في صغره.

كانت الأمور تتضح أكثر، وهم يتقدمون في تناول الغذاء الذي افتتح بسلطة الخيار والطماطم، ثم طبق الملوخية[1] الرئيسي، إلى

---

(١) حساء مصري معروف، يتكون من أوراق الملوخية بعد طحنها، ومن مرق =

جانب رز وربع دجاج. ذلك أن ضيفا خفيا ومزعجا كان يحضر الغذاء. بات تجاهله مستحيلا. كانت الردود تتباعد أكثر فأكثر، حتى بات حضور هذا الضيف الافتراضي ساحقا. نظرت نور إلى زوجها علامة على الاستفهام، لترى ملامح كئيبة في المقابل.

عندما قدمت لهم المهلبية،[1] كان الجو قد أصبح خانقا.

حينها دفع تيمور صحنه فجأة، وأمر بتقديم القهوة في الصالون.

قال بصوت أجش:

- فاضل، اتبعني. يجب أن نتكلم.

أذعن الابن دون أن يظهر أي اندهاش. ربما كان ينتظر هذه اللحظة طيلة الغذاء.

- أترككم، قالت نور.

تظاهرت بالوقوف، لكن تيمور أوقفها بإشارة آمرة.

- لا! فالأمر يعني الأسرة كلها. ووجودك ضروري.

جلسا إلى مائدة في الصالون الذي يشبه صالون «كوين أن»، قصد احتساء القهوة المضبوطة.[2] امتنعا عن تناول التمر المسكر الذي قدمه الخادم النوبي.

غاص فاضل في أريكته.

- أنصت إليك، يا أبي. عمّا أو عمّن تريد أن تحدثني؟

- عن تلك المرأة.

= الدجاج والبصل والثوم والكزبرة، تقدم عموما إلى جانب الدجاج والرز. وهي تنتشر أيضا في تونس ولبنان والأردن وسورية.

(١) قشدة بالحليب ودقيق الرز معطرة بالقرفة وزهر الليمون، ومحشوة بالعنب المجفف والفستق.

(٢) قهوة بسكر عادي. *الريحة* بسكر قليل. *سكر زيادة* هي قهوة محلاة جدا. صدى بدون سكر.

- تلك المرأة، كرّر فاضل بجفاء، تحمل اسما. هي تدعى ليلى طرابزيان. أحبها.

ثم سارع إلى التأكيد بنبرة صارمة:

- وأنوي الزواج بها.

- تصور أننا نتخوّف من ذلك. إذا كانت مصادري دقيقة، فهي تنوي مغادرة مصر، لتستقر في لندن حيث توجد عائلتها.

علّق هشام بنبرة ساخرة:

- طرابزيان. هي من الأرمن الذين فضلوا مغادرة بلدنا، وبلدهم حيث ظلوا يعيشون منذ فجر التاريخ.

- وما هي المشكلة؟

- صورة جميلة من الوطنية! يمكن أن أفهم تخوفات اليهود الذين يهاجرون إلى المنفى منذ حادثة السويس. لكن الأرمن؟ من يحسبون أنفسهم إذا؟ هل يظنون أن النظام المصري الجديد ينوي أن يقطعهم إربا، ويصنع منهم قضبان كباب؟

- أفضل ألا أجيبك. أنت حرّ، يا باي. أنت...

- توقف! أمر تيمور. لنعد إلى ما هو أهمّ.

أشعل سيجارة.

- بما أنني أتصور أنك تنوي الزواج بامرأة ستبتعد بآلاف الكيلومترات عن هنا، أخلص إلى أنك تعتزم أن تتبعها.

هز رأسه ثانية.

- ماذا ستفعل في لندن؟

- أخت ليلى هي السيدة «فوستر ويستغايت»، زوجة أحد ولاة بنك «لويدز». ينتظرني منصب هناك.

- ستهجرنا إذاً، قالت نور بصوت متشنج.

- أهجركم؟ ألا ترون أننا نركب عبّارة تغرق في يوم عاصف؟ لا أرغب في الهلاك.

- عبارة؟ دمدم هشام. مصر عبارة؟ قاتلنا أنا وأبي، ونحن جميعا، من أجل الاستقلال، فتأتي أنت لتقول إننا نركب عبارة؟ تتجرأ على قول هذا الكلام أمام شقيقك، الملازم الأول الذي طرد الجيوش الغربية؟

- هو على حقّ، وافق تيمور بجفاء. تعليقاتك مخزية.

التزم فاضل الصمت لحظة. علت وجهه مسحة من الرصانة. استأنف الكلام:

- بابا، كنت سيدا قبل أربع سنوات. كنت تيمور لطفي باي. ولم تعد اليوم سوى تيمور لطفي، النائب عن الحزب الوحيد، الاتحاد الوطني. حزب وحيد، كما في الدكتاتوريات! كنت تملك آلاف الفدادين[١] من الأراضي التي ورثتها عن والدك فريد لطفي باي[٢] الذي اكتسبها بعرق جبينه. ماذا تبقى منها؟ قل لي يا أبي؟ كان من نتائج الإصلاح الزراعي الذي قرره زعيمكم عبد الناصر وأعوانه حرمانك من جميع ممتلكاتك تقريبا. ستقود هذه الحكومة وأفكارها الاشتراكية المزعومة البلدَ إلى الكارثة! لا مستقبل لنا هنا. لا مستقبل لشباب طموح يريد أن يصبح مستقلا. لا مستقبل إلا بالانتماء إلى دائرة هؤلاء المدّعين. كفاية!

أصبح الجو متوترا.

- أنت بغيض! انفجر هشام. كيف تتجرأ على التفوه بأقوال جائرة مثل هذه؟ تتحدث عن الإصلاح الزراعي كأنه آفة، بينما يتعلق

---

(١) يساوي الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع.

(٢) انظر الجزء الأول.

الأمر بعمل من أعمال العدالة والمساواة. إذ نستنكر بؤس فلاحينا على الدوام، سواء في الصحافة المصرية أو في قبة البرلمان. بؤس يعود أساسا إلى التقسيم الجائر للدخل الفلاحي، حيث استحواذ المُلاّك على مجالات كثيرة يجنون منها أرباحا هائلة جدا، بينما يموت الشعب جوعا.

أشار بسبابته إلى شقيقه.

- هل تعرف من أنت في الحقيقة؟ أنت أناني! كنت تستحق أن تبحر رفقة فاروق وعائلته!

قالت نور بنبرة خجولة:

- يا بني، كيف يمكنك أن تتحدث هكذا؟ أنت لا تذكر أي شيء، لأنك لم تكد تبلغ حينها السنة العاشرة. لكن أنا، أمك، لم أنسَ. هل تذكر ما قلته، بينما كنّا نتساءل حول قدرات الملك على إخراج بلدنا من الأزمة؟

تابعت دون أن تنتظر الجواب:

- قلت: «فاروق كركوز. والكراكيز ليست سوى دمى، والدمى أشياء تسخّر فقط.» أنت نسيت، بالطبع. بعد ذلك، وعندما قرر هذا الملك ذاته أن يتصدى للمحتل الإنجليزي، كنت أنت وأخوك تدعمان جميع التظاهرات. وعندما سمعنا خطاب السادات في الإذاعة وهو يعلن الانقلاب، كنت حاضرا. كان ذلك يوم ٢٣ يوليو/ تموز. لن أنسى أبدا عبارتك منذ أربع سنوات خلت. صرخت بابتسامة مشرقة تنير وجهك: «مبروك! لقد نجحوا!»

ختمت كلامها بفتور:

- واليوم، ها أنت تتحدث مثل غريب! كيف تغيرت هكذا، وبسرعة؟

ذكّر تيمور:

- خاصة بعد العدوان الجبان الذي قاسيناه منذ بضعة شهور، حيث تحالفت ثلاثة بلدان لتلتهمنا وتصادر وطننا تحت ذرائع زائفة.

- وانتصرنا مع ذلك على هذه الكواسر بطرد جيوشها! زاد هشام.

ابتسم شقيقه ابتسامة ساخرة. ثم قال:

- كلام فاضي. لم نطرد أي جيش، حيث ذبح جنودنا الذين وجدوا على الضفة الشرقية للقناة. لم يتوقف زحف الإسرائيليين إلا لأن الاتحاد السوفياتي أشهر ورقة التهديد النووي. ولم ينسحب الإنجليز والفرنسيون إلا لأن الولايات المتحدة أجبرتهم على ذلك.

- هذا لا ينفي أننا قاومنا في بورسعيد، قال هشام مشددا، وأن عبد الناصر لا يعتبر اليوم بطلا فحسب، بل رمزا في الشرق الأوسط كلّه. إذ تتجه أنظار العالم العربي كله إلينا.

- ماذا عن انتقام الفلاحين المحبطين من النخبة؟ ألا تنظر إلى ما يجري الآن؟ سرعان ما سيمتد تأميم البنوك وشركات التأمين إلى جميع المقاولات في هذا البلد. ولن يفلت من ذلك سوى القهوجيين وعاهرات الأزبكية. وسيصبح النظام أسوأ من النظام السوفياتي. لا، لم أعد أؤمن بمستقبلي في هذا البلد. يجب أن تشجعوني على بناء حياتي في الخارج، بدل أن تلوموني.

طأطأت نور رأسها. هل كانت تبكي؟ أم تكفكف دموعها؟

وقف هشام فجأة.

- يكفيني ما سمعت. سأبدي لك ملاحظة أخيرة. ثمة في الحياة شيء يسمى الفخر. قاسم تيمور لطفي مفخرة. لكن اسم فاضل لطفي لن يكون كذلك. بل سيكون مجرد اسم مصري التحق بصفوف العدو، لأنه كان خائفا من مواكبة ودعم استقلال بلاده، ومن مواجهة الصعوبات التي تنتظرنا بالتأكيد. أنت تنسى تفصيلا صغيرا، وهو أن

عمتنا منى تزوجت فلسطينيا. وتحلّت بالشجاعة لتتبعه وتواصل العيش معه هناك، رغم الحرب والمآسي والمكائد التي يتجرعانها على يد الإسرائيليين كل يوم. لا هي ولا زوجها مراد اختارا المنفى والرفاه. بل تشبثا بأرضهما. فهما يقاومان. أتمنى لك سفرا سعيدا، يا أخي. أدعو الله أن يمن عليك بالرفاه والسعادة!

غادر الصالون، تاركا وراءه صمتا جليديا.

(٢)

هل رأيت شعبا واحدا يهجر أرضه بمحض إرادته؟
على النحو ذاته، لن يهجر عرب فلسطين أرضهم
دون استعمال العنف.

«فلاديمير جابوتينسكي»[١]

غزة، التاسعة مساء، ٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٧

بالكاد ينير المصباح الزيتي الغرفة بوميضه الأصفر الذي يسلطه على ملامح الرباعي الجالس على وسائد في حلقة دائرية.

جلس حسين الحسيني على يمين صديقه زيد. ظلّ محدقا في الرجل الجالس قبالتهم، البالغ من العمر سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاما. رجل أمرد، ذو أنف بارز. شفته السفلى غليظة ولحيمة. يتراقص في جوف حدقتيه السوداوين وميض راسخ. اعتبره حسين مكرا، في الوهلة الأولى، لكنه سرعان ما تراجع عن حكمه؛ فالمكر هو عين الثعلب.

---

(١) زعيم الجناح اليميني في الحركة الصهيونية ومؤسس «الفيلق اليهودي» خلال الحرب العالمية الأولى. أورده «ماكسيم رودنسون» في كتابه *Jewish People or Jewish Problem*.

أبعد الرجل، بحركة متوترة، حاشية الكوفية ذات المربعات السوداء والخلفية البيضاء التي تغطي جبهته. رماها خلف كتفه الأيسر. كان حسين يعرف أن هذه الكوفية تكتسي أهمية بالغة، رغم أنها وجدت منذ القديم عند البدو والمزارعين العرب. لكنها أصبحت تمثل، منذ سنة ١٩٣٦ تاريخ الانتفاضات التي قادها والد زيد، رمز المقاومة ضد الوجود الإنجليزي في فلسطين. إذ كان المقاتلون يستعملونها لإخفاء وجوههم، حتى لا يتعرف عليهم الجنود البريطانيون.

ثمة عنصر آخر استرعى انتباه حسين منذ حلوله بهذا البيت، وهو كومة الكتب المصفوفة في خزانة. كان جلّها، إن لم يكن كلّها، سيرا ذاتية مخصصة للوجوه الصهيونية المعروفة: «تيودور هرتزل»، «فلاديمير جابوتينسكي»، «موشي هيس»، أو «نحمان سيركين».

- تسمعني، يا أخي!

جفل حسين. هدر صوت الرجل، يكتنفه بعض القلق، مشوبا بنبرة مصرية.

- أجل، أجل. لم أفوّت أي شيء من أقوالك.

- إذاً، ما رأيك؟

جاء السؤال على لسان الجالس على يسار صاحب الكوفية. قدّم نفسه باسم أبي جهاد. تجاوز عمره العشرين بقليل.

أجاب حسين:

- أستحسن مشروعكم برمته.

- هل أدركت أسسه جيدا؟

قبل أن يتمكن حسين من الإجابة، استأنف صاحب الكوفية:

- لا أحد يقوى غيرنا على استعادة وحدة الفلسطينيين وسيادتهم المفقودة لمواجهة التنظيمات الصهيونية المهيكلة جيدا، التي تحظى

بدعم الشتات اليهودي غير المشروط. هكذا، تكمن الوسيلة الأنجع في إنشاء هذه الحركة الثورية التي تحدثت عنها، والتي ستكون- كما أؤكد- حرّة ومستقلة تماما عن البلدان العربية وأي قوة أجنبية أخرى.

عقّب حسين:

- أنت واعٍ، بالطبع، بأنك، وأنت تتبنى هذه الخطوة، تقلب الفكرة السائدة اليوم القائلة إن وحدة البلدان العربية وحدها ستسمح بتحرير فلسطين.

- وحدة البلدان العربية؟ أي بلدان عربية؟ وأي وحدة؟

بدأ يحصي على رؤوس أصابع يده.

- لبنان شمعون والمسيحيون المارونيون يرتجفون وهم يرون أنفسهم فريسة في يد الطائفة المسلمة، ويأكلون مثل عصافير الدوري من يد الغرب. بل إن الحكومة اللبنانية رفضت إدانة الهجوم على قناة السويس، واكتفى شمعون بالقول: «أسحب سفرائي، لكني لا أقطع العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا وفرنسا.» وفي العراق، يبدو الملك فيصل الثاني، هذا المتقلب الذي تحرر بالكاد من وصاية عمّه، دميةً في يد البريطانيين. وتسبح العربية السعودية في نفطها، وملكها ابن سعود لا ينظر إلا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، زبونه الأول. فهو يمقت عبد الناصر، ويخشى أن يرى ملكه يسقط بدوره. أما ملك الأردن حسين، فلم يتجاوز عمره إحدى وعشرين سنة، وترتعد فرائصه خوفا على عرشه، ويقارنه الجميع بمصر، حيث أحترس من أمراء أتمّوا- على غرار الملك فاروق- دراساتهم في إنجلترا.

- تبقى سورية شكري القوتلي ومصر خصوصا، لاحظ زيد.

- أقدّر القوتلي، لكنه لم يعد يمتلك السلطة بصفته رئيسا، حيث يقتصر نفوذه الآن على السياسة الداخلية السورية. إذ يجلس على عرش من ورق. أذكرك أن تصفيته تمت قبل سبع سنوات في انقلاب

عسكري، حيث أجبر على اللجوء إلى القاهرة. وضعوه فوق دبابة وتجولوا به في شوارع دمشق أمام أنظار الحشود التي كانت تصيح: «تخلصنا منك، أيها القوتلي الطاغية!» ونظامه معلق اليوم بخيط واحد. أما مصر، وهي البلاد التي أعرفها جيدا لأنني درست بها، رغم أنني ولدت في القدس، فيجب أن تصلح ما أفسدته سبعون سنة من الاستعمار الإنجليزي، وهي لا تمتلك جيشا جديرا بهذا الاسم. عبد الناصر رجل عظيم. بطل. وهو بالتأكيد الزعيم الوحيد في العالم العربي الذي يبدو في مستوى المشكلات المطروحة- تماما لأنه يطرحها-، لكن المهمة التي تنتظره جسيمة.

- تعتزم إذاً عزل الحركة المستقبلية عن الدعم العربي، ختم حسين.

- كل ما نطلبه من الزعماء العرب هو أن يحيطوا فلسطين بحزام دفاعي، وأن يكتفوا بمتابعة معركتنا مع الصهاينة.

اعترض حسين:

- لم تثر التفاصيل البنيوية: من سيسير هذه الحركة؟ أنت بنفسك؟

طأطأ صاحب الكوفية رأسه نافيا ذلك. ثم قال:

- ستخضع لإدارة جماعية تشتغل داخل لجنة مركزية ينتخب أعضاؤها بطريقة ديمقراطية.

- لا شك أنك تعلم بوجود حركات أخرى، مثل حركة القوميين العرب التي أسسها جورج حبش، هذا اليوناني المسيحي الأرثوذوكسي. ماذا سيكون مصيرها؟

- ستلتحق بنا، أجاب أبو جهاد. بهذه الجائزة سنصبح أقوياء لا نهزم.. جائزة الوحدة.

- وإذا كانت هذه الحركات لا تأمل ذلك؟

حرّك صاحب الكوفية يده تعبيرا عن استخفافه بالأمر.

- سيكون مصيرها الاندثار. رهاناتنا واضحة، وهي: مراسلة الهيئات الدولة حول القضية الفلسطينية وإقامة دولة علمانية وديمقراطية. إننا ننظر إلى الأعلى. لا يمكن للشجيرة أن تصمد أمام العاصفة. وحدها الزيتونة قادرة على ذلك. وسنكون هذه الزيتونة.

هزّ زيد رأسه.

- لكن لا بد من فسائل لزرع الزيتون. أنت واعٍ بذلك، أليس كذلك؟ لقد أكدت أنّ هذه الحركة ستكون مستقلةً. وفي غياب المال، سيكون مصيرنا الجمود. سنبقى مكتوفي الأيدي والأقدام.

- المال مشكلة، بالفعل. بالنظر إلى الطبيعة السرّية لحركتنا، فإن مصدر الأموال لن يكون سوى أعضائها أنفسهم. سنلتمس سخاءهم. أما الآن، فإني لا أرى أي حلّ آخر غير ذلك.

- هل فكرت في اسم هذه الحركة؟

ساد الصمت لحظة قصيرة.

- فتح.

- فتح؟ كرر زيد.

- أجل. حركة تحرير فلسطين. سأنتقل بعد بضعة أيام إلى الكويت حيث حصلت على منصب مهندس مدني. آمل أن أضع الهياكل ما أن أصل إلى هناك، وأن أعثر على المال. لا يهمّ الوقت الذي سيتطلبه ذلك. سنة، سنتان. لا يهمّ!

الكويت. استغرق حسين متأملا. بالطبع.. فمنذ فترة، يلجأ أغلب الفلسطينيين إلى هذا البلد، بعد نهاية دراساتهم، حيث انتشرت وظائف بأجور سخية بفضل إيرادات البترول. إذ توفر هذه المنطقة، بابتعادها عن التمزقات الأيديولوجية في مصر أو فلسطين أو سورية،

فضلا عن مواردها المادية، فضاء للحرية وحركة التنظيم. هكذا، لم يكن غريبا أن يختار صاحب الكوفية هذه الوجهة.

ران الصمت مرة ثانية، قبل أن يقطعه صوت أبي جهاد:

- إذا كنا قد دعوناكما، فلأنكما ابنا بطلين، حيث لا ينبض قلباكما في صدريكما فحسب، بل قلبا والديكما عبد القادر وعز الدين. فهل نستطيع أن نعتمد على دعمكما؟ هل أنتما مستعدان للالتحاق بنا؟

صاح حسين وزيد صيحة رجل واحد: «أجل! حياتنا فدى لفلسطين!»

عندما غادرا البيت، همس حسين في أذن صديقه:

- إنه نابغة. لكن حفظ اسمه صعب للغاية: «محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني». أليس كذلك؟

- بلى، لكن الجميع يناديه باسم عرفات.[1]

*

باريس، ١٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٧

فتح «جان فرنسوا لوفون» عينيه، وقطب وجهه بسبب الألم، كأن آلاف الإبر تنغرز في صدره. اعتدل في جلسته. كانت جبهته ترشح بالعرق. ثم أسند ظهره إلى مقدمة السرير، ساعيا إلى استعادة نَفَسَه.

سرعان ما همست دِنيا، النائمة جنبه، بصوت ناعس:

- هل استيقظت قبل الأوان؟ كم الساعة؟

تكلم زوجها أخيرا:

---

(١) اختار اسم «ياسر» تكريما لعربي قتل خلال فترة الانتداب البريطاني. و«عرفات» هو اسم الجبل الواقع شرق مكة، الذي يسمى أيضا بـ«عرفة».

- الخامسة. نامي يا حبيبتي.

رمى البطانية ونهض. بدا له النهوض جهدا خارقا. كانت عقارب الساعة تواصل تعذيبه. ظنّ أنها تسعى إلى اختراق جسده. كان في حاجة إلى الهواء. توجه إلى الصالون، وفتح إحدى نوافذه. كان الليل ما يزال مخيما، وشارع «بروتوي» خاليا. وثب قطّ من مكان ما، ثم اختفى في ساحة «فوبان».

استنشق الهواء. تصاعد الغثيان الآن إلى شفتيه، وراودته فكرة الموت. لكن لا. لا *يموت المرء في سن السابعة والستين*. مازال هناك مشاريع عدة تحرّك ساكنه، وأحلام كثيرة لم تتحقق بعد. وحب جم ينبغي أن يمنحه لدنيا.

حدث ذلك في بغداد، ببيت نضال خلا ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨.[١]

- اسمي دنيا.
- دنيا. العالم. الكون. أي الكلمتين تليق بك أكثر؟
- أترك لك الحكم.

تأملها لحظة كأنه يقيسها، ثم قال:

- إذن سيكون الاسم هو الكون.

بعد ذلك، التقيا في حلب بعد سنة، بذلك المطعم.

- لم أعد أريد أن أعيش قصة وضيعة. أُفضّل عشقا قصيرا، شريطة أن يكون رائعا بالمعنى الجمالي للكلمة، بدل أن أذبل في علاقة متوسطة فقط، لأنها ستحمل لي بعض الضمانات أو شكلا من الأمان.

---

(١) انظر الجزء الأول.

- «شكل من الأمان». تقصدين الزواج؟

- نعم. إنه تقليد عبثي وسخيف. فحياة كائنين تحت سقف واحد، فوق سرير واحد ومائدة واحدة، تبقى أقرب إلى العبث.

بات الألم لا يطاق. حاول التنفس بملء رئتيه، لكن كان ذلك مستحيلا، كأن مكبسًا يضغط عليهما.

- أنت، يا «جان فرنسوا». أين تصنف نفسك؟ في جانب الأخيار؟ أم الأشرار؟ في أي المعسكرين تشعر بالارتياح؟

لم يطرح هذا السؤال أبدا. لقد ساهم «كامبون»، الذي طالما اعتبره بمثابة ابنه، في تقديمه إلى «كي دورساي». كان يطيع الأوامر. هذا كل شيء.

في بيتها دائما في حلب، خلال ربيع سنة ١٩١٩.

- أنا عراقية، وشعبي يعاني. أنا عربية، وإخوتي يعانون. إذن؟ كيف أشطر نفسي بينك وبينهم؟ أنت الذي تساهم في مأساتنا، في الكواليس، وفي الخفاء. مبرراتك نبيلة، أحترمها. لكن لا تطلب مني أن أتصرف كأنني غير موجودة.

ثم، أخيرا، جاء يوم الحرب عندما بدأت القوات الفرنسية تمطر حلب بقنابلها. كان ذلك يوم ١١ أغسطس/ آب ١٩٢٥. ارتمت دنيا بين أحضانه.

- خذني، همست، خذني... حيث تريد، لكن خذني.

- «جان فرنسوا»! ماذا يحدث؟

كانت دنيا قد دخلت الصالون مذعورة.

حاول أن يستدير نحوها. مدّ لها يده كأنه غريق يسعى إلى التشبث بالحياة. ثم انهار.

جثت بالقرب منه. جسّت نبضه. كان ما يزال يتنفس، لكن بشكل ضعيف. بعد ذلك، أسرعت نحو الهاتف.

*

اسطنبول، ١٥ فبراير/ شباط ١٩٥٧

جلست سلمى الصافي أمام النافذة المطلة على حديقة «بوتي شان». واصلت التأمل في الصورة الشاحبة لزوجها الراحل نضال، كأن الأمر يتعلق بصورة مقدسة.

كان قد رحل خلسة، وهو جالس على هذه الأريكة ذاتها، يوم ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤١، منذ ست عشرة سنة خلت.

قررت أخيرا أن ترفع عينيها نحو ابن أخيها فواز البغدادي.

- لم أكن أعلم بوجود هذه الصورة. أشكرك لأنك أحضرتها لي. كان رجلا طيبا، أليس كذلك؟

- إنه رجل عظيم، بما أنه لم يعد هناك رجال اليوم في العراق، للأسف.

- العراق... يبدو لي أنه لم يولد أبدا. ولم يكبر أبدا. ولم يعايش أي شيء. فقد انمحى الماضي من ذاكرتي يوم رحل عني خالك، رحمه الله.

- ربما يكون الأمر أفضل هكذا. فالحاضر يكاد يكون متكررا، للأسف.

- هل مازال فيصل الصغير في مكانه؟

- فيصل الصغير هو اليوم شاب في السادسة والعشرين يسعى جاهدا إلى تحديث بنيات البلاد، عبر إطلاق مشاريع بناء السدود

والمستشفيات والمدارس، دون أن ينجح في كسب تعاطف الشعب. إذ يدرك الناس جيدا أن الإنجليز يتلاعبون به. فضلا عن ذلك، لم يقبل عمّه الأمير عبد الإله، الوصي السابق، فكرة إجباره على تسليمه زمام الأمور. ففي الكواليس، مازال يواصل حبك المؤامرات، مما يضعف سلطة الملك الشاب. في نظري، لن يدوم هذا الوضع إلى الأبد.

تنهدت المرأة العجوز تنهيدة عميقة تعبيرا عن خيبة الأمل.

- يا للعراق المسكين! يا لبلدي المسكين! مع ذلك، هناك رجال مثل خالك ناضلوا من أجل إرساء نظام مندمج ومستقر ومستقل عن أي وصاية. لكن من يستطيع أن يحارب القدر؟ كنت آمل أن أرى بلدي مرفوع الرأس، ولن أراه. سأبلغ الثمانين، والموت تأخر عني. إنه أمر جائر. كان ينبغي أن يأخذني عندما انتزع نضال مني.

جثا فواز قرب قدمي المرأة العجوز، وقبّل يدها.

- أرجوك، ابتعدي عن هذه الأفكار. ستعيشين أكثر، إن شاء الله، وسترين أبنائي.

- هل تزوجت؟

- أجل، يا خالتي. لقد حان الوقت. سأبلغ التاسعة والعشرين بعد أسبوع. مجيدة هو اسم زوجتي. تزوجتها منذ شهرين.

- هي عراقية، كما آمل؟

- أجل. أسرتها موصلية. عمرها اثنتان وعشرون سنة. حلوة مثل العسل، وجميلة مثل وردة.

- الله كريم، يا بني. لينعم عليكما بالسعادة. وأنت؟ حدثني عن نفسك. ماذا تعمل؟

- أنا مهندس نفط. بفضل مهنتي تعرفت على مجيدة في الموصل. كان والدها مكلفا بمنشأة نفطية. وفي الآن ذاته، أنا

منخرط في العمل السياسي، حيث انخرطت في حزب البعث السنة الماضية.

عَلَتْ علامة ضجر وجهها المجعد.

- البعث. كان قائما في عهدي هناك. أي وصفة عجيبة جديدة يقترحها؟

- توحيد الدول العربية في وطن علماني واحد وكبير. وهي فكرة تغريني.

تجمدت ملامح المرأة العجوز.

- ماذا دهاك، يا خالتي؟ هل قلت شيئا لا يروقك؟

- السياسة، الأحزاب.. بسببهم فقدت زوجي وابني. لماذا هذا الاختيار، يا صغيري؟ لماذا؟ ابتعد عن السياسة! إنها خدعة وسمّ! فهم يتحركون جميعا، ورؤوسهم متخمة بالمثل التي يسارعون إلى خيانتها ما إن يتولوا السلطة. هل تعرف ما قاله لي نضال المسكين ذات يوم؟

ثم رددت:

- «روح الحزب تنزل بالرجال العظام إلى مستوى صغار الشعب.»

وقف فواز. بدا وجهه كالحا هو الآخر.

- لقد وصفت لك وضع بلدنا. هذا البلد الذي نحبه. أليس من حقنا أن نتفاعل مع ما يجري به؟ أليس ذلك ما فعله خالي نضال؟ ألم تذكري، أنت بنفسك، أنه كافح من أجل مُثُله؟ ألم يضحِّ ابن خالي شمس بحياته من أجل الاستقلال، وهو يفجر سيارته ضد حاجز عسكري إنجليزي؟[1] لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين. أنا أفكر

---

(١) انظر الجزء الأول.

في مستقبل الأبناء الذين سأنجبهم. يجب أن يترعرعوا في بلد حرّ وديمقراطي!

ارتسمت على شفتي المرأة العجوز ابتسامة غامضة متشحة بالسخرية.

- الحرية... من منّا حرّ فعلا؟

استغرق بضع ثوانٍ قبل أن يجيب:

- المحرومون من كل شيء، لأنهم لم يعودوا تحت رحمة أحد. فهؤلاء يصبحون أحرارا من جديد بشكل كامل.

مدّت ذراعيها نحو ابن أخيها.

- تعالَ، يا صغيري. احضني. لقد شعرت بالبرد فجأة. امنحني دفئك.

(٣)

لم تكن خرائط الجغرافيا مخططة دائما.
ولا التاريخ.

محمود درويش

حيفا، ٢ أبريل/ نيسان ١٩٥٧

- اسمي «أفرام برونشتاين».

وضع مراد شهيد نظارته، وتفحص الشاب العشريني الواقف أمام العتبة. كان متوسط القامة، ذا شعر مجعد، وعينين زرقاوين، يرتدي زيّ «تساحال». اهتزّ قلب الفلسطيني. كانت أول فكرة تخطر على باله: «ارتكب أخي سليمان إحدى حماقاته المعهودة!»

غمغم قلقاً:

- ماذا تريد؟

- ألا يعني لك اسمي أي شيء؟ يا لي من أحمق! كان علي أن أقول إنني «أفرام مرقس».

كرّر الاسم، فاصلا الاسم عن اللقب:

- مرقس. «أفرام مرقس»

مرقس؟! فجأة، تدفقت الذكريات مثل سيل جارف، جامحة غير

مرتبة. مرقس؟ أهو ذاك الصديق اليهودي الأقرب لأبيه حسين؟ له ابنة اسمها «إرينا». كم عمرها اليوم؟ أربعون سنة؟

تمتم غير مصدق:

- كنت أعرف رجلا اسمه يوسف مرقس.

- أنا حفيده. ابن «إرينا».[1]

- بسم الله الرحمان الرحيم. غير ممكن! ادخل، ادخل...

وهو يقود الشاب إلى الصالون، صاح:

- منى! منى!

أشار إلى مقعد، داعيا ضيفه إلى الجلوس، بينما التحقت بهما زوجة مراد. تجمدت وهي ترى الزيّ الموحد. طمأنها زوجها قائلا:

- إنه «أفرام». «أفرام مرقس»! حفيد يوسف.

- حفيد مرقس؟

تأملته من رأسه حتى أخمص قدميه.

- صحيح أنك تشبه جدّك. العينان خصوصا وهذه الجبهة العريضة، و...

- ائتنا بقهوة، يا عزيزتي، قاطعها مراد. أو مشروب طري.

استفسر «أفرام»:

- ماذا تفضل؟

- أشكرك. العصير جيد.

- كأسان من عصير ليمون، من فضلك يا قلبي.

عندما توجهت منى نحو المطبخ، استأنف بنبرة مضطربة:

- كان يوسف من العائلة، هل تعرف ذلك؟ كيف حاله؟ اروِ لي كل شيء.

---

(١) انظر الجزء الأول.

- للأسف، توفي جدّي قبل بضعة أشهر. يوم ٨ نوفمبر. كان سيحتفل بعيد ميلاده السابع والثمانين.

- إنا لله وإنا إليه راجعون. كان رجلا طيبا. كان سخي اليد.

- حدّثني طويلا عنكم، وعن أبيكم حسين شهيد. كان يعتبره أخاً.

- كان على حق. لقد كانا متحابين فعلا. كنت أراهما يقضيان أمسيات بكاملها، يناقشان ويعيدان النظر في أحوال العالم. واليوم، رغم الزمن الطويل الذي انقضى- أنا الآن في الثامنة والخمسين- إلا أني أتذكر يوسف كأنه غادرنا البارحة.

علا الحزن ملامح مراد، وهو يتابع كلامه:

- للأسف، فرّقت الأحداث بينهما. ثم توفي والدي. كان يوسف حاضرا يوم دفنه، هل تعرف ذلك؟ ووالدتك «إرينا» وزوجها الذي لا أعرف اسمه.

- والدي اسمه «صامويل». «صامويل برونشتاين».

- ها هو العصير!

عبرت منى الصالون، وقدمت المشروب للرجلين، ثم جلست على يمين «أفرام». قالت والتأثر بادٍ عليها:

- صحيح، أنت تشبه جدّك.

غشي الحنين عينيه.

- الوقت يمضي بسرعة، قالت. أين هي تلك الأيام التي كنا فيها سعداء؟

- ستعود، يا سيدتي. سترين. كوني واثقة.

رفعت رأسها فجأة.

- سيدتي؟ اسمي منى. هكذا يدعونني.

- منى.

- هيا! هيا! دمدم مراد. لا مجال للحزن! اليوم هو يوم احتفال! كيف قرّرت أن تزورنا بعد كل هذه السنوات؟

أجاب الشاب متضايقا:

- يتعلق الأمر بأخيك سليمان وابنك كريم.

وضعت منى يدها على جبينها.

- هل أصابهما مكروه؟ هل جرحا؟

- لا، اطمئنا. لكن...

- ماذا إذن؟ سأل مراد.

- هل سمعتما بالموساد؟

بدا القلق والشك على الزوجين.

- هي مؤسسة نشأت منذ بضع سنوات، وهي مكلفة بتنظيم وتنسيق مصالح المخابرات والأمن.

- مصالح سرّية... هذا هو القصد؟

- أجل. صديق من أصدقائي المقربين يعمل بها.

ما فتئ «أفرام» يزداد قلقا، وهو يتكلم.

- ينبغي ألا أبوح لكما بهذه الأشياء. لكن بالنظر إلى الروابط التي كانت تربطكم بجدي، فإنني أخول لنفسي هذا الحق. أعترف أنني ترددت منذ زمن طويل في الإقدام على هذه الخطوة. وقد كلمت والدتي في الأمر، فشجعتني دون تردد.

- بارك الله فيها، قالت منى.

- يجب أن تعرفا أن سليمان وكريم منضويان في جماعة... (بحث عن الكلمة) من المشاغبين. هناك تخوف من أن ينتهيا، عاجلا أو آجلا، إلى ارتكاب أفعال شنيعة.

- هجمات...

- بالتأكيد. يخشى أن يعرضا حياة أبرياء للخطر، وحياتهما أيضا.

حرّك مراد رأسه مرات عديدة. تلبسته حالة من الحزن.

إذا كان انخراط ابنه كريم متوقعا، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى سليمان. إذ ظل شقيقه الأصغر، طيلة شبابه، يحلم أن يصبح شاعرا، بينما لم يكن كريم يأمل، وهو في سن العشرين، إلا أن يفتك بالصهاينة.

بعد ذلك، ذات صباح من شهر أبريل/ نيسان ١٩٤٩، وقعت مأساة دير ياسين، القرية الصغيرة الواقعة على تلّة، على بعد خمسة كيلومترات غرب القدس. راح ضحيتها أربعمائة شخص. إذ انقضّ مائة رجل من جماعتي «إرغون» و«سترين»[١] على السكان فجرا. كان كريم حاضرا هناك. وفتكوا تحت أنظاره بجميع أفراد عائلة ليلى طربوش، التي أصبحت زوجته بعد ذلك، وكذا بالمئات من القرويين. كيف ينسى ذلك؟

بعد تلك الحادثة، قرر سليمان أن يركن ريشته وقصائده في الرفّ.

- يجب أن تكلمهما.

انتزع صوت «أفرام» مراد من تأملاته.

- أجل. سأفعل، لكن يجب أن تعلم أن كلامي سيكون بلا جدوى.

---

(١) حركتان راديكاليتان نشأتا سنة ١٩٤٠. وقد أدان «بن غوريون» بشدة، وكذا أهم السلطات اليهودية، الهجوم على دير ياسين. إذ بعثت «الهاغانا» والحاخام الأكبر والوكالة اليهودية رسالة اعتذار وتعزية إلى الملك عبد الله، الذي كان يحكم آنذاك الضفة الغربية.

سألت منى بنبرة مضطربة:

- ماذا ينتظرهما في حالة اعتقالهما؟

- السجن، في أحسن الأحوال. وفي أسوئها، سيقتلان أثناء المواجهات، غدا أو بعد أسبوع أو شهر.

- سيكون الأمر قاسيا، خاصة بالنسبة إلى ابني كريم. لستُ أبرئ ساحة أخي سليمان، لكنه أعزب. بينما كريم مازالا في عمر الزهور، وهو أب لطفلين. ابن وابنة. و...

- *السلام عليكم*... قاطعه صوت.

استدار الثلاثة نحو باب الصالون. في العتبة، ظهر رجل خمسيني، ترافقه امرأة يبدو أنها في العمر ذاته. تجمد الاثنان في مكانهما، وهما يريان زيّ «أفرام».

- سليمان! صاحت منى، وهي تقفز نحو شقيق زوجها.

احتضنته. لكنه ظلّ متجمدا، وعيناه مسمرتان على «أفرام برونشتاين».

حينها، سعت منى إلى دعوة المرأة إلى داخل الصالون. لكنها رفضت.

- إنها أختي سامية، قال مراد محرجا.

وقف مراد، وتوجه نحو الاثنين، مادًّا يده.

تراجعت سامية بسرعة، كأنها رأت ثعبانا، وبصقت على الأرض.

- قاتل! قالت مزمجرة.

كشفت عيناها الملتهبتان عن كراهية مطلقة.

- قاتل! قالت مكررة.

غادرت البيت. استدار «أفرام» المذهول نحو مراد، يسائله بنظراته.

- لقد قتلت زوجها، قال سليمان بنبرة باردة.

- زوجها؟

- العظيم عبد القادر. بطل معركة القسطل. *بطلنا*. بطل الشعب الفلسطيني كلّه. له ابن اسمه حسين. هو يتيم اليوم.

- آسف. أنا آسف لجميع الأموات. كانت الحرب. تعلمون ذلك، أليس كذلك؟

تحاشى سليمان السؤال.

- من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

- أنا حفيد يوسف مرقس. جئتكم صديقا.

- هل نسيت يوسف؟ سارع مراد إلى التأكيد.

- أجل، يوسف، أضافت منى منفعلة. كان بمثابة الأب الثاني لك ولسامية.

- يوسف مرقس. أجل، تذكرته.

جاء الجواب باردا.

- هيا، تعالَ! قالت منى. اجلس معنا. نحن نتحدث عن الأيام الخوالي.

امتثل سليمان على مضض.

- هل تريد عصيرا؟

حرّك رأسه. نظر إلى بعيد، إلى مكان ما في الخارج. عادت به الذاكرة إلى صباح من شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠ في القدس.[١] كان عمره حينها ثماني عشرة سنة. كان هو وأخته سامية في طريقهما إلى بيت جدّيهما. وعندما أطلّا على الحرم الشريف، اندلعت بعض المشاحنات.

---

(١) انظر الجزء الأول.

- انتبه، أيها العربي! قليل من الاحترام! ألا ترى أني أصلي؟
- وأنا، ألا ترى أني أمضي، أيها الغريب!
- الغريب! لكن إلى من توجه خطابك؟
ألقى سليمان نظرة مذعورة على الرجلين اللذين يتشاتمان.
- إذن، كرر اليهودي، وهو يسوّي نظارته، مع من تتحدث؟
- معك! غاصب الأراضي! الـ«غريب»!
- «اذهب إلى الجحيم».[1] أنا في بيتي، هنا! هل تسمعني؟ في بيتي! كان أجدادي يعيشون في هذا البلد، بينما لم يكن أجدادك مجرد غبار!

في بضع دقائق، استولى الجنون على المكان المقدس.
أطلقت سامية صرخة، ورفعت يدها إلى جبهتها. دمٌ ينزّ، ملطخا فستانها وملابس سليمان بلطخات حمراء قانية.
تناول يد أخته، محاولا شق طريقه وسط الهائجين. لكنه ما كاد يقطع بعض الأمتار، حتى وجدا نفسيهما طريحي الأرض. امتدت إليهما يدان لتساعداهما على النهوض. متى؟ لا يعرف.
- اتبعاني! لا تخافا! اتبعاني! بسرعة!
كان يوسف مرقس هو من ساعدهما، إلى جانبه ابنته إرينا. كانت ترتجف. شقّ اليهودي بمرفقيه الطريق أمام الطفلين وسط الحشود الهائجة، ثم قادهما إلى مكان آمن، إلى طبيب..
- إذاً أين كنت، يا أخي؟ تساءل مراد بلهجة غير مكترثة. بدأنا نقلق عنك.
- كنت منشغلا. الغلّة. والعمال.

---

(١) التعبير ورد في النص الأصلي باللغة اليديشية: (Gai in drerd arein) (المترجم).

رفع عينيه نحو «أفرام».

- هكذا، أنت حفيد يوسف مرقس. . .

- يشبهه، أليس كذلك؟ لاحظت منى.

لا يبدو أن سليمان سمع كلامها. سأله:

- ما الغاية من حضورك؟

اختلس «أفرام» نظرات إلى مراد قبل أن يجيب:

- الصداقة.

علت ابتسامة ساخرة وجه الفلسطيني. ثم كرّر:

- الصداقة؟

- تلك التي كانت تجمع بين والدك وجدّي.

- ماتا معا.

- يبقى إرثهما.

- إرثهما؟ وادي فوكين، أبو غوش، مجدل، بين النقوبة. . .

كبح مراد ومنى حركة جافلة. ذلك أن الأسماء المذكورة هي أسماء قرى طرد منها أغلب الفلسطينيين خلال المواجهات سنة ١٩٤٨.

اطمأن «أفرام» إلى تكرار قوله بهدوء تام:

- كانت الحرب.

- ليس بالنسبة إلى سكان أبو غوش. لكنك كنت صغيرا لتعرف ذلك.

- بالفعل. لم يكن عمري سوى ثمانية أعوام. ولا أطلب إلا المعرفة.

- إذا، اعلم أن أبو غوش كانت القرية المحايدة الوحيدة من بين ثلاثين قرية عربية قابعة في التلال المحيطة بالقدس. بل ساهم سكانها في الإبقاء على الطريق مفتوحة حتى لا يموت إخوتك الصهاينة جوعا

وعطشا، رغم أنهم حوصروا مثل الجرذان في حيّ بالمدينة. فعلوا ذلك بسخاء، بينما كان العالم يدرك أن الولوج إلى القدس أو سد المنافذ عنها ممكن من هذه القرية.

سكت قليلا قبل أن يختم بمرارة:

- ما أن انتهت المعارك، حتى بادر رجالكم إلى طرد السكان، على سبيل الشكر. حاول البعض العودة. لكنكم طردتموهم ورميتموهم في صحراء النقب مثل الكلاب. أهذا هو الإرث الذي تحدثني عنه؟

- يا أخي! دمدم مراد. ما نفع النبش في الرماد؟ لا تنسى أن «أفرام» ضيفنا. جاءنا صديقا. فعامله على هذا الأساس!

هدّأه «أفرام» بإشارة من يده.

- لا حرج. أتفهم مرارته.

استأنف كلامه بنبرة رصينة:

- لم يكن لنا خيار.

- بإجبار أزيد من سبع مائة ألف بريء على الرحيل؟

- ما أعرفه هو أن تقسيما عادلا للأراضي اقترح عليكم، ورفضتموه.

انتفض الفلسطيني، ممتقع الوجه. لقد حافظ طوال سنواته الأربعة والخمسين على حدّته. وضع يديه على الطاولة، ثم مال إلى الأمام.

- عادل؟ هل قلت عادل؟ يأتي رجل ذات صباح ويطالب بأرض بدعوى أن أجداده عاشوا فيها منذ ألفي سنة؟ أهذا عادل؟ يقرر زعماء دول أجنبية يجلسون بارتياح على أرائكهم على بعد آلاف الكيلومترات من هنا مصير شعب، ويمنحون ما لم يملكوه أبدا لشعب آخر. أهذا عادل؟

- مازال كل شيء ممكنا، قال «أفرام». يكفي أن تضع أنت وإخوتك العرب حدًّا للمواجهات.

- والتخلي إذاً عن كل أمل في استرجاع ممتلكاتنا؟ أنا آسف، يا «أفرام مرقس»، فالجبن ميزة الأقوياء. ولم نصر أقوياء بعد.

توجه نحو الباب، عندما نهره «أفرام» قائلا:

- يتعلق الأمر بحياتك! أتيت مدافعا عنها.

استدار الفلسطيني مذهولا. استأنف «أفرام» كلامه:

- أخبرتك قبل قليل أن الصداقة هي التي قادت خطواتي إلى هذا المكان. اعلم أن الموساد يقتفي أثركما.

- يقتفي أثرنا؟

- أنت وابن أخيك. لا يهم الحياة أو الموت، لكن فكّر في كريم على الأقل. لقد أخبرني أخوك أنه أبٌ لطفلين.

- وبناء عليه، فهو سيد مصيره.

انسحب.

*

مدينة صور، جنوب لبنان، أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٧

تمعن الطفلة ذات الثلاثة عشر ربيعا النظر في البحر. يحرّك النسيم خصلاتها السوداء. لها وجه ملاك، مطمئن، لكن النظر في عينيها يكشف، بين الفينة والأخرى، ومضات قاسية. هل تنتظر ظهور سفينة تحملها بعيدا؟ نحو جزيرة أو أرض عجيبة؟ نحو بلد يعيش فيه الجنّ الخارقون القادرون على تحويلها إلى أميرة، وكسوتها بفستان آخر غير لباسها المضحك؟ لا. لا شيء من هذا. فهي تحلم بالعودة إلى بيتها في حيفا من حيث طردت وأهلها على يد قوات مجهولة.

كانت الحياة وديعة ذاك الزمان، في البيت الصغير بشارع

«ستانتان»، قرب الحي اليهودي «هدار هكرمل». الجيران من آل «أبراموفيتش» أو «آرونشتاين» أو «أيزنبورغ». ومن أفضل رفيقاتها في اللعب فتاة يهودية اسمها «تمارة». هل هي عربية؟ متى كانت الطفلة تعي الاختلاف بين هذه الصفة وتلك؟ كانت تظن دائما أنها تنتمي، مثل باقي سكان حيفا، إلى الإنسانية. ثم جاء ذلك اليوم اللعين التاسع والعشرون نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، يوم قرّر بعض الأجانب داخل بيت من زجاج وفولاذ أن يمنحوا والدي «تمارة» وإخوتهما الصهاينة ٥٦ في المائة من الأرض الفلسطينية. وعندما استشاط العرب غِضبا وقرروا القتال، اندهشت «تمارة» وأهلها. لم يفهموا سبب رفض هذا التقسيم.

بلا شك، فقد نسوا الحادثة التي وقعت زمن الملك سليمان العظيم. حينها كانتا امرأتين تعيشان تحت سقف واحد، تصارعتا حول حيازة رضيع. كانت كل واحدة تدعي أن الرضيع ابنها. أمر سليمان حينها «بقطع الطفل إلى نصفين، لكل امرأة نصف.»

وافقت إحداهما وصرخت: «اقسمه، لن يكون لي، ولا لها.»
بينما استعطفت الثانية الملك: «سيدي، امنحها الطفل، ولا تقتله!»

قال الملك حينها، مشيرا إلى الثانية: «هي الأم، لنمنحها هذا الطفل.»

على غرار المرأة الثانية، رفض العرب التقسيم. لكن زمن حكم سليمان قد ولى. لا شيء من حكمة الملك ونبله كان حاضرا في هذا البيت الزجاجي الكبير حيث تقرر كل شيء ذات يوم خريفي مشؤوم.

حزم نحو ثمانين ألفا من سكان حيفا حقائبهم حينها، دون معارك، تحت تأثير الرعب. إذ استمرت فظاعات دير ياسين عالقة في الأذهان. كانت أسرة الطفلة من بين هؤلاء المنفيين، حيث تتذكر جيدا رحيلهم. كان يوم ٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٧ يوم عيد ميلادها.

جمعت أمّها- في رزم- كل ما استطاعت أن تحمله وأمرت أبناءها أن يتبعوها، أمام النظرات الكليلة لزوجها الذي قرّر أن يبقى ويقاتل دفاعا عن تجارته الصغيرة. وفي اللحظة الأخيرة، أدركت أن ليلى غائبة. أرسلت شقيقتها البكر بحثا عنها، فعثرت عليها مختبئة وراء أكياس البطاطس. صاحت: «تعالي! إذا لم تأتِ، سيصل اليهود ويقتلونك!»

جرّت ليلى من شعرها بلا مبالاة، حتى مدخل البيت. أشار إليهم والدهم مودّعا. لكن فراقهم لم يدم طويلا. أجبره الإفلاس على الالتحاق بأهله في صور، وبعد بضعة أشهر، وجد نفسه منكسرا. بدا شيخاً، رغم أنه لم يكن يتجاوز حينها الأربعين.

منذ تلك النكبة، وهي تعيش في هذا المخيم بالبرج الشمالي الذي يتكدس فيه سبعة آلاف من إخوتها.[1] ففي كل يوم، تصل أفواج أخرى من المنفيين. وكما هو شأنهم، يحدث أن تشرد بين متاهات الأزقة المتشققة المليئة بالنفايات النتنة.

الماء الصالح للشرب نادر.. لا مستشفيات، ولا مدارس، عدا كوخا يجمع فيه مدرّس عجوز الأطفال الفقراء، ليعلمهم القراءة والكتابة. وفي بعض الأيام، كانت تتنفس بصعوبة، حيث تخنقها الرائحة الكريهة التي تصعد إلى أنفها. من حسن حظها أن المقبرة قريبة، حيث تلعب هناك، وسط صمت الأموات النهائي.

---

(١) يصل عددهم اليوم إلى نحو ثمانية عشر ألفا. ويتراوح عدد اللاجئين الفلسطينيين الإجمالي إلى لبنان بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف، يتجمعون في مخيمات، أضخمها مخيم عين الحلوة في مدخل صيدا، الذي يضم نحو أربعين ألف نسمة. يتعلق الأمر بأحد أهم المجتمعات المقيمة خارج حدود فلسطين الانتداب البريطاني، بعد الأردن، وبالعدد ذاته الموجود في سوريا.

تعود الطفلة، وترفع رأسها. ففي هذا الجحيم الأرضي، تلتصق المساكن الفوضوية، التي شيدت من الصناديق والتراب المجفف، بعضها ببعض حتى إنها لا تسمح أحيانا برؤية الأفق. إذ يتكتل سبعة آلاف شخص في الكيلومتر المربع الواحد.

ومع ذلك، بدا المكان فردوسا. هنا يمتد أجمل شاطئ في كل بلاد الأرز، ويتلون البحر بجميع ألوان الطيف.

ولدنا لاجئين، وسنموت كذلك. مكتوب.

كم مرّة سمعت هذه الجملة الواخزة، التي يكررها أبواها والعجزة في الجوار دائما؟

لم تؤمن بها أبدا، ولن تفعل أبدا! لماذا؟ يا الله؟ لماذا؟

كيف أشرق هذا الفجر الذي ذابت فيه حياتهم في البارود والدم؟

ولدنا لاجئين، وسنموت كذلك.

لا! لا شيء مكتوب! مهما حدث، ستواصل التشبث بأرضها التي اغتصبها الغرباء. إذ تجري فلسطين في شرايينها، والانتقام يسري في روحها، ولن تتخلى عن ذرة رمل منها.

جثت الطفلة فوق الرمل. همست وهي تنظر إلى السماء:

- اسمي ليلى خالد. وقد جئت من هناك حيث ستحلّ صرخة الحجارة، يوما ما، غدا ربما، محلّ مراثي الرجال. اسمي ليلى خالد.

(٤)

هي الأحداث التي تسيطر على الرجال،
وليس الرجال على الأحداث.

«هيرودوت»

القاهرة، ٣١ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٨، قصر القبة

أشعل جمال عبد الناصر سيجارته «كرافن أ» العشرين، وسحب نفساً. بينما كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا.

في زاوية معزولة من الصالون المزيّن بستائر حريرية، يبدو طيف هشام تيمور الذي غير زيّ المقدم ببذلة من ثلاثة أثواب.

كان البكباشي[١] صامتا، يدرس بعينيه الصهباوين ملامح زواره الثلاثة.

يسمى الأول ميشيل عفلق، وهو مؤسس حزب البعث، الوزير الحالي للشؤون الخارجية في سورية. شخصية هذا المسيحي العاشق للإسلام مدهشة. والثاني هو أكرم الحوراني، الزعيم الاشتراكي،

---

(١) لقب أطلق على عبد الناصر. لكن الأمر يتعلق، في الأصل، برتبة تركية يقصد بها «قائد الألف»، استعمل في وقت لاحق لتطلق عموما على كولونيل الجيش المصري.

رئيس البرلمان السوري. شخصيته غامضة. يضع قدما هنا، والثانية هناك. أخيرا، لم يكن الزائر الثالث سوى شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية. هو رجل يعرفه عبد الناصر حق المعرفة، لأنه التقى به في مناسبات عدة، كانت أولاها سنة ١٩٤٩.

في هذه الفترة، وبعد انتصار إسرائيل سنة ١٩٤٨، نُفِيَ القوتلي الذي أطاح به انقلاب عسكري، إلى القاهرة في انتظار أيام أفضل. وبعد سبع سنوات، سمحت انتخابات حرّة لحزبه «الكتلة الوطنية» بتحقيق الفوز وعودته إلى وظيفته الرئاسية الهشّة بسبب الخوف الكامن في احتمال انجراف بلده نحو الشيوعية. ففي الآونة الأخيرة، علمت الحكومة السورية أن الروس وزعوا بنادق على المدنيين عبر الحزب الشيوعي السوري الذي ما فتئ عدد المنضويين فيه يزداد يوما بعد يوم. هكذا، صار كل شيء يحمل على الاعتقاد أن البلاد توشك أن تشهد انقلابا شيوعيا.

لهذا السبب ربما كان الرئيس السوري يلحّ، منذ سنتين، على عبد الناصر بالقبول بتوحيد بلديهما. إذ كان القوتلي ينادي بضرورة «أن ترفرف راية واحدة في السماء الحرة للوطن العربي المحرّر، راية الوحدة العربية!» ألم يوجّه في خطابه الافتتاحي، خلال سبتمبر/ أيلول ١٩٥٥، تحية إلى «زعماء مصر والمدافعين عنها الذين انخرطوا في معركة ضارية ضد إسرائيل، هي معركة الوطن العربي برمته»؟ لكن عبد الناصر كان يتبرم من الفكرة، حيث تنتظره انشغالات كثيرة أخرى، غير الانغمار في المشكلات السورية.

كما بذل ميشيل عفلق، بدوره، قصارى جهده لإقناع الريس بالفكرة. ففي رأيه، ستنتهي الحرب الباردة بين القوتين العظميين، عاجلا أو آجلا، بسحق الدول العربية، وفي مقدمتها مصر وسورية. وحده وطن عربي كبير وقوي يمكنه مقاومة الصدمة. غير أن عفلق لم

يكن مقتنعا، في سريرته، بقدرة عبد الناصر على إنجاح هذا المشروع. والأكثر غموضا من ذلك أنه كتب، في مذكرة داخلية التقطتها المخابرات، أن النظام المصري «يسير نحو الدكتاتورية، حيث وجب الاحتراس منه.» وحضوره اليوم إلى القاهرة يؤكد أنه تخلى عن تحفظاته. فكل شيء سيكون أفضل ما عدا وجود سلطة شيوعية في سورية. وحتى لا يصبح البلد تابعا لروسيا، ليس هناك من مخرج، في رأي عفلق، سوى الارتماء في أحضان مصر.

كسر القوتلي الصمت.

- إذاً، ما قراركم، يا ريس؟

كانت نبرته تشي بالتوجس. إذ تكتسي هذه الوحدة، في نظره، قيمة حيوية كبرى. ذلك أن جميع النزاعات الداخلية في سورية سترفع، أخيرا، إلى حكم أسمى، هو جمال عبد الناصر. ستتنفس سوريا أخيرا. ستجد فيه رئيسا ثابتا يتزلف إليه المجتمع العربي كلّه.

ألحّ الرئيس السوري قائلا:

- ليس هناك دقيقة نضيعها. إما الآن، وإما لن ينجح الأمر أبدا.

سحق عبد الناصر سيجارته.

ظنّ أكرم الحوراني أنه من المفيد أن يذكره وهو يقول:

- نقترح ترشيحكم لرئاسة هذا الوطن الجديد. لا شك أن الشعب السوري، وكذا البرلمان، سيؤيدان هذا الترشيح.

في النهاية، سأل الريس، الذي بدا كمن استفاق من حلم:

- هل فكرتكم في الاسم الذي ستعطونه لهذه الدولة الجديدة؟

أجاب عفلق:

- الجمهورية العربية الموحدة. لها راية واحدة ذات نجمتين.

تابع كلامه مؤكدا:

- يتعلق الأمر بخطوة أولى. ستنضاف إليها نجمات أخرى. سنضم تدريجيا لبنان والعراق واليمن. إذ لا تطلب شعوب هذه البلدان سوى الوحدة.

نظر عبد الناصر إلى هشام تيمور الذي ظل صامتا.

هل كان الرئيس يسأله؟ هل كان يبحث عن موافقته؟ حرّك ابن تيمور لطفي رأسه علامة على التشجيع. أعلن الرئيس في النهاية بعد أن غادر أريكته:

- طيب، غدا، سنوقع بالحروف الأولى على الاتفاق الذي سيرسخ اندماج دولتينا.

قفز القوتلي فجأة من أريكته، وعانق الرئيس المصري.

- مبروك! إنه يوم عظيم، يا أخي!

استحسن عبد الناصر كلامه. لكن هشام لم يلمس فيه فرحا، ولا حماسا.

*

بغداد، في اللحظة ذاتها

داعب فواز البغدادي بطن زوجته مجيدة المستدير بشغف.

- هل تظنين أنه ولد؟ تساءل.

- يا حبيبي، سيكون هبة من الله في جميع الأحوال.

- موت من أجل حياة.

- ماذا تقصد؟

- تلقيت برقية من اسطنبول البارحة. ماتت خالتي سلمى.

- الموت قدر لا مفر منه. أنا آسفة.

- لم يكتب لها أن ترى العراقَ حرًّا وقائما.

- المستقبل بين يدي الله. وهذا اليوم سيأتي.

أمسكت يد زوجها .
- بفضل رجال مثلك.
طأطأ فواز رأسه .
- في غضون بضعة أيام، سنجتمع مع الجنرال عبد الكريم قاسم والكولونيل عبد السلام عارف. احفظي هذا السرّ. ستتحرك الأشياء. لن نبقى مكتوفي الأيدي أمام حكومة هؤلاء المرتشين.
دسّت مجيدة يدها في شعره الأسود الطويل.
- احترس، يا قلبي. كن حذرا. أنت الآن أب لطفل. فكّر فيه.
مدّ فواز يده من جديد إلى بطن زوجته.
- لا تقلقي. أنا أفكر فيك أيضا.
هزّته رعشة خفيفة، عندما تبادر إلى ذهنه تحذير خالته فجأة:
«السياسة. الأحزاب. لقد فقدت زوجي وابني بسببها. ابتعد عن السياسة! إنها خدعة، وسمّ! فالساسة ينطلقون محملين بالمثل التي يسارعون إلى خيانتها ما إن يتولوا السلطة.»

*

القاهرة، فاتح فبراير/ شباط ١٩٥٨

- تم الأمر، يا أبي!
- ماذا هناك؟ تساءل تيمور لطفي الذي مازال يرتدي بيجامته.
- الوحدة! الوحدة! لقد قبل عبد الناصر. ستتوحد مصر وسورية. سنشكل وطنا واحدا!
ارتدى تيمور رداءا بيتيا، بينما نزلت نور التي استثارتها صرخات ابنها، من غرفتها مهرولة، وهي تتساءل عما إذا وافت المنية أحدهم.
- ماذا حدث؟ سألت قلقةً.
- زواج، تمتم زوجها.

انفتحت عينا نور على سعتهما.

- زواج؟ من سيتزوج؟ أنت؟ أنت يا ابني؟

- لا! ليس بعد. غادرت للتو مكتب الرئيس حيث عقدنا اجتماعا مع السوريين. هل تدركين تأثير ذلك في العالم؟ سيشعر الإنجليز والإسرائيليون والأمريكيون بمغص في الأحشاء!

طلب من الخادم قهوة مضبوطة، ثم استأنف كلامه:

- هناك مأدبة منتظرة للاحتفال بالحدث. لم يحدد موعدها بعد. لكن اعلما أنكما مدعوان منذ الآن.

- مأدبة؟ صاحت نور. في القصر؟ لكني لا أملك فستانا ألبسه!

رفع تيمور عينيه إلى السماء:

- متى ستقول النساء اللواتي يملكن خزانات مملوءة: «لا أعرف ماذا سأختار»، بدل «لا أملك شيئا ألبسه»؟

*

حيفا، ١٠ فبراير/ شباط ١٩٥٨

كان سليمان شهيد يتأمل بحنوّ ابني كريم مبروك وفيروز، اللذين كانا يلعبان مع أمهما على سجاد الصالون. لم تبلغ ليلى سنتها الأربعين بعد، لكنها تبدو مثل امرأة عجوز، لأن وجهها أصبح متغضنا. تجاعيده المبكرة لم يرسمها التعب، ولا المرض، بل شيء آخر. ثمة آلام معينة ما أن نعيشها حتى نختنق وننكسر، فتنطبع على ملامحنا نهائيا.

كانت زوجة كريم تبلغ العشرين عندما تقدّم أعضاء «إرغون» و«ستيرن»، ذات صباح من شهر أبريل/ نيسان ١٩٤٨ أمام قريتها دير ياسين.

كان صوت قد صرخ: «اليهود علينا!»

حاصرت القريةَ الكومندوهاتُ التي جاءت من الشمال والجنوب. وعندما انسحبت، كانت دير ياسين تغرق في بحيرة من الدماء. لم يبقَ من القرية الباسمة بالأمس سوى الأنقاض، وسبعمائة جثة.

ذبحت أسرة ليلى جميعها: الأخ والأخت والأب والأم. نجت هي وأخوها كريم بأعجوبة.

كلما تذكرت هذه المأساة، تبادرت إلى ذهنها آية من القرآن: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.»

- تأخر ابن أخي، قال وهو يراجع ساعته.

- هو يتأخر دائما. تتطلب بيارات جدّه عناية كبيرة. لا يثق في أحد، كما تعرف!

تساءلت فجأة:

- ألم تعد تكتب الشعر؟ أخبرني كريم ذات يوم أنك كنت تحلم أن تكون شاعرا. بل أظن أنه احتفظ ببعض أبياتك. انتظر...

توجهت ليلى نحو صندوق أثاث، أخرجت منه ديوانا. استخرجت مخطوطة موضوعة بين الصفحات، وسلمتها لسليمان.

- هي لك، أليس كذلك؟

قرأ سليمان بنبرة مضطربة:

«قوس قزح في يدي أمضّني.
لا أطلب من الشمس إلا ليمونة
والذهب الذي يسيل من الآذان.
هنا، على منحدرات التلال،
أمام الغروب، قرب الضيعات في الظل المقطوع
أحتضر أملا.»

- هي لي. كنت فتى في ذلك الوقت.

أعاد لها القصيدة، وسأل:

- أين عثر عليها؟

- أظن أن والده هو الذي سلمه إياها ذات يوم.

- أيام زمان! كنت ساذجا آنذاك، مقتنعا أن تربة العالم مفروشة بالورود والياسمين. وقد تخليت عن ذلك الاقتناع منذ ذلك الحين. لم تكن تلك التربة ورودا، بل أشواكا.

- لن أعارضك، يا سليمان. أرغب في ذلك، لكني لا أستطيع.

- أعتقد أنني سأنصرف. يجب على كريم أن يتوقف.

أوقفه صوت انفتاح الباب.

- أهلا، يا عمي. سعيد برؤيتك.

- سأرحل فعلا. يجب أن أكلمك.

انفرد بابن أخيه، ثم استأنف كلامه:

- قل لي الحقيقة. هل أنت وراء محاولة اغتيال هذا الجندي الإسرائيلي الذي كان يحرس وزارة الدفاع؟

- مطلقا! هل فقدت عقلك؟ أبدا.

- هل أنت متأكد؟ ألا تكذب علي؟

- أكذب عليك؟ اعلم أنني لست فاقدا للوعي. فضلا عن ذلك، يستحيل علي، منذ أن أخبرتني أن الموساد يرصدنا، أن أخطو خطوة دون ملاحقة.

- وأنا أعيش الوضع ذاته. لم تعد حياتنا ملكا لنا. فقط أنا أستطيع التضحية دائما. لا زوجة لي، ولا أولاد. لكن أنت...

التفت إلى ليلى، ثم تابع حديثه:

- هناك هي. لكن هناك أيضا مبروك وفيروز. لا أحد يريدهما

أن يكونا يتيمين. فقدت ليلى جميع أفراد أسرتها. وليس لها إلا أنت.

- أعرف، يا سليمان. أنت على صواب تماما.

حدّق في عمه، وكرر بعزم:

- لست فاقدا للوعي.

هزّ سليمان رأسه.

- الله معك.

*

بغداد، ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٥٨

كان الجنرال عبد الكريم مهووسا بالقتل. كان ذقنه المخروط مثيرا تسكنه تكشيرة تتنازع أسفل وجهه في كل اتجاه. له حاجبان كثيفان وشفتان رقيقتان يعلوهما شارب يذكر بشارب هتلر. كل شيء، في هذه الشخصية الأربعينية، يرشح بالصفاقة والوقاحة.

تخرج من المدرسة العسكرية في بغداد، وارتقى إلى رتبة ضابط سامٍ قبل ثلاث سنوات، وأصبح أحد حاملي ألوية الماركسية في الجيش، ومعارضا صريحا للملكية العراقية، ممثلة في الشاب فيصل الثاني العاجز عن تخليص عرشه من الوصاية الإنجليزية.

نزع فواز البغدادي خيطا رفيعا من كمّ سترته، قبل أن يخاطب الكولونيل عبد السلام عارف المسترخي على أريكة على يمين قاسم.

- أنت على حقّ. يجب أن تسقط الملكية. لن نتمكن من مواصلة الحياة في ظل نظام خاضع للهيمنة الإنجليزية. ينبغي على العراق أن ينتزع استقلاله.

وافق الكولونيل عبد السلام عارف بارتياح.

- أنت ابن الأخ الجدير بوراثة عمّك الراحل نضال الصافي. إنه رجل عظيم. أنا فخور بك، يا صديقي. فعندما التقينا، أنت وأنا، أول مرة، قبل خمس سنوات، لم تكن سوى فتى. لكنني سرعان ما اعتبرت أنك من طينة الوطنيين الكبار، مثل نضال. لقد أحببت عمّك من أعماقي، وأعجبت به. كان بمثابة الأب بالنسبة إلي.

لم يعرف فواز بما يرد على هذا المديح، لأنه يدرك أنه جدّي. فهذا الإحساس الذي يضمره لعمّه نضال، نسبه إلى فواز بشكل معكوس، حيث سرعان ما اعتبره مثل ابنه الذي لم تهبه إياه الحياة بعد. غير أن الكولونيل لم يكن يكبره سوى بسبع سنوات. فمتى تعارف هو ونضال؟ حدث ذلك في نحو سنة ١٩٣٦، حسب قول الكولونيل. كان عارف حينها في الخامسة عشرة، بينما نضال في الستين. كان الإنجليز حينها، بقيادة «ستانلي مود» والمندوب السامي «السير أرنولد ويلسن»، يبسطون قانونهم على ما كان يسمى آنذاك بلاد الرافدين. إذ لابد من الاعتراف أن القانون لم يتغير كثيرا منذ ذلك الحين، إلا عندما تدخل فيه مشرّعوه في الكواليس. فما سبب انجذاب نضال إلى الشاب عارف؟ تصعب معرفة ذلك. ربما ظهرت في صفات المراهق ملامح سياسي مستقبلي، إن لم يكن ذلك راجعا إلى حوافز عائلية، لأن الأواصر بين آل الصافي وآل عارف كانت متينة جدا.

اختلس فواز نظرة إلي الجنرال قاسم، حيث لم يعد يقدّره. كان يتساءل خصوصا حول قدرته على الحكم إذا استولى على السلطة. زد على ذلك، لم يكن التفاهم الودّي الذي ساد بينه وبين عارف سوى ظاهريا. فهما لا يشتركان في أي شيء.

هو عضو في حزب البعث، بينما قاسم ليس كذلك. هو يؤيد انضمام العراق إلى هذه الجمهورية العربية الموحدة التي توشك أن

ترى النور، بينما الجنرال يعترض على ذلك. فكل شيء يفصل بين الرجلين، عدا الرغبة في القضاء على المملكة الهاشمية.[1]

قال الجنرال بنبرة لاذعة:

- هذه الوحدة مع الأردن، التي وقعها الملك ووزيره الأول مساء أمس، إهانة للشعب العراقي. وهي صفعة لكل الاستقلاليين.

ضحك باستهزاء:

- «الوحدة العربية الأردنية العراقية»! زواج كركوزين في خدمة العدو البريطاني.

بصق على الأرض.

أضاف عارف، مستخفا:

- يتصور فيصل وحسين أنهما سيتحديان بهذه الوحدة اتحاد مصر وسوريا، ليبدآ صراعا بين المحورين: من جهة، محور عمان- بغداد الهاشمي الملكي اليميني، ومن جهة ثانية، محور القاهرة- دمشق الجمهوري اليساري! هكذا، لابد أن تفرك الدوائر الغربية الأيدي ابتهاجا بخلافاتنا.

- «ويحلفون بالله إنهم لمنكم»! استشهد عبد الكريم قاسم من القرآن. ليموتوا!

بعد صمت، قال فواز:

- إذا نجح انقلابنا، ستطرح مشكلة.

- مشكلة؟ ردّ الكولونيل عارف. تقصد غابة من المشكلات. هلا أوضحت سؤالك؟

- أريد الحديث عن مصير الملك وابنته الصغيرة وريثة العرش

---

(١) أسرة عربية هي سليلة هاشم بن عبد مناف، التي تنحدر منها السلالة التي حكمت العراق (١٩٢٠- ١٩٥٨) والأردن منذ ١٩٢١.

الوحيدة الأميرة عشتار، ووصي الملك عمه الأمير عبد الإله، دون أن ننسى «ثعلب بغداد» نوري السعيد، رئيس الحكومة.

تبادل عارف النظرات مع الجنرال قاسم الذي أجاب بحركة من يده، مشيرا إلى ضرب أعناقهم.

*

كما كان متوقعا، لم يلهب إعلان مشروع «الجمهورية العربية الموحدة»، الذي يوحد مصر وسورية، حماس أهل البلدين فحسب، بل أيضا شعوب العالم العربي. ومثلما توقع الحوراني، صادق البرلمان السوري على الاتفاق بنحو ٩٣ في المائة من الأصوات، كما صوت الناخبون السوريون عليه بـ٩٢ في المائة أثناء الاستفتاء. هكذا ولدت دولة موحدة، عاصمتها القاهرة. واقترب منها اليمن، وهو يوقع اتفاقا يستشرف إنشاء «فدرالية للدول العربية الموحدة» يضم البلدان الثلاثة.

ظلّ القوتلي المواطن الأول في الجمهورية الجديدة، بينما تولى الحوراني منصب نائب الرئيس. وعانق عفلق منصب وزير الشؤون الخارجية ثانية. وعلى إثر ذلك، حصل العديد من الوزراء السوريين على حقائب أهمّ، لكنها غير مؤثرة، طالما أنه لا يخفى على أحد أن السلطة الحقيقية يمارسها وزراء مصريون، لا غيرهم، وخصوصا صديق الريس الحميم ورفيقه في السلاح وظلّه المشير عبد الحكيم عامر، قائد الأركان العامة للجيش المصري، الذي عين «قنصلا في سوريا».

«هل يلوح عملاق عَربي في الأفق؟» تساءل كاتب افتتاحية إنجليزي.

انتهى استقبال عبد الناصر الحاشد في دمشق، يوم ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٥٨، بزرع الذهول في الدوائر الغربية. أمام هذا الحشد الهائج، الذي كان يردد «عبد الناصر! عبد الناصر!»، كيف يمكن

للرئيس المصري، الذي كان مترددا في البداية، أن يقاوم هذا النداء إلى الحلم؟

ساد الفرح والفخر من أعلى وادي النيل إلى أسفله، وأيضا في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المنتشرة هنا وهناك.

في طنطا، ودمنهور، والزقازيق، وباقي المدن في مصر العليا والسفلى، نظم الحكام المحليون احتفالات غنائية «عفوية»، ووزعوا الأغذية. باختصار، حلّت الأفراح قبل موعدها.

كان تيمور ينظر، بغرابة، إلى هذا الفوران بعين نقدية تدقق في الأمور أكثر فأكثر، مكرهًا على تحمل خطاب المتحمسين للثورة وباقي المهيّجين السياسيين، مع الحفاظ على وجه لطيف وبشوش أيضا. مصدره الإخباري الرئيس يظل هو هشام الذي يسجل هنا وهناك، بفضل صفته المزدوجة كعسكري ومتعاطف مندفع مع الطغمة، معلومات يستعملها كما يشاء.

- يحدث لي أن أقول لنفسي إن أخاك فاضل كان محقا في الرحيل، قال تيمور الذي بدا قانطا.

وأمام دهشة ابنه، تابع كلامه:

- لم أكن أتمثل الثورة هكذا. فقد بدأت تظهر، شيئا فشيئا، أشبه بانتقام الجاهلين من المتعلمين، والفقراء من الأغنياء. فذاك سبب من الأسباب التي تجعلني لا أعقد آمالا كبرى على الوحدة مع سورية. ذلك أن الملاكين السوريين الكبار لا يريدون أبدا الإصلاح الزراعي الذي قدمت ثمنه مثل العديد من الفلاحين المصريين. لقد تحول شهر العسل إلى علقم. سترى، يا ابني. إننا في زمن الجمهورية الشفوية الموحدة!

استاء هشام، لكنه أحجم عن الإدلاء بأي تعليق سيء. إنه والده في جميع الأحوال، وهو يستحق الاحترام.

(٥)

كل الرايات تلطخت كثيرا.
لقد آن الأوان ألا نملكها نهائيا.

«غوستاف فلوبير»

القدس، ٤ أبريل/ نيسان ١٩٥٨

طوى «أفرام برونشتاين» صحيفة «*جيروساليم بوست*» ومدها لأبيه.

- هل تريد قراءتها، يا أبي؟

حرّك «صامويل» رأسه تعبيرا عن الرفض.

- أنا على علم بالأخبار. سمعتها عبر المذياع. سأدهشك، لكني لست قلقا. فخطوط الهدنة مع مصر ولبنان هادئة. وفي الأردن، يبدو الملك حسين ماسكا بزمام السلطة التي ينازعه فيها القوميون العرب، بل يقال إنه التزم بمنع أي اختراق فلسطيني.

- أجل، يا أبي، لكن الحقيقة تتمثل في عملنا أن المنطقة المنزوعة السلاح بيننا وبين سورية ستظل منطقة توتر دائم. هناك أيضا مشكلة الماء العويصة. إذ يكفي حصول تغير بسيط في مستوى بحيرة طبرية حتى يتأرجح كل شيء، ويصبح خط الحدود الفاصل بيننا وبين السوريين موضع جدال.

وافق «صامويل».

- أعرف. لم أنسَ العصيان والاحتجاج العام الذي أثاره، قبل خمس سنوات، بناء قناة سمحت لنا بتحويل مجرى مياه نهر الأردن إلى أراضينا الزراعية في الجنوب والنقب. بل إن الولايات المتحدة الأمريكية، التي جنّ جنونها، أوفدت مبعوثا، نسيت اسمه، بغية عرض مخطط حول تقسيم المياه.

- لم يُقبل هذا المخطط أبدا، أليس كذلك؟

- وللسبب نفسه، رفضه مزارعونا. وينطبق الأمر ذاته بالنسبة إلى البلدان العربية التي ترى أن القبول بهذا المخطط يعني، بطريقة غير مباشرة، الاعتراف بدولتنا،[1] التي يصرون على رفضها بعناد بليد وعقيم. نحن موجودون، ونحن شعب. لقد جرى التصويت على التقسيم. فأي مصلحة للعرب في الانغلاق والإصرار على رمينا في البحر؟

سكت. استغلت «إرينا» سكوته لتسأله:

- هل من أخبار عن آل شهيد منذ زيارتك بيتهم؟

- لا خبر. آمل أن يكون تحذيري كافيا لتهدئة اندفاع سليمان وكريم، وألا يرتكبوا أي حماقات. لو اعتقلا، فما استطعت لهما شيئا.

- لو حدث ذلك، لكان الأمر فظيعا. لقد كان جدّك يوسف يحبهم كثيرا. مازلت أذكر ذاك اليوم حينما صادفنا سليمان وأخته

---

(١) يتعلق الأمر بمخطط «جونسون». وردا على ذلك، قررت الدول العربية المجاورة (سورية، لبنان، والأردن) سنة ١٩٦٤ تحويل مجرى نهر الأردن لصالحها الخاص، وتملك موارد أنهار الحاصباني والبانياس واليرموك، التي تغذي مجرى النهر المقدس. وسرعان ما ردّت إسرائيل بتفجير البنى التحتية لهذا التحويل.

سامية في القدس. كانا مرعوبين مثلي. كان عمري حينها... اثنتي عشرة سنة. كم أشتاق لرؤيتهما. لا شك أن سليمان تغير كثيرا.

- لئن حدث ذلك، فلأنه يبلغ من العمر خمسة وستين عاما، ولأنه سيئ الطبع. لسنا في نظره سوى جلادين ومحتلين.

- إنه العبث. لكن يمكن أن أفهمهم. كان جدّك يفهم.

صححت:

- اعتقد أنه يفهم.

- ماذا تقصدين، يا أمي؟

- قبيل وفاته، شهدت حديثا بين يوسف و«ديفيد بن غوريون». قال له العجوز الأسد: «مصير إسرائيل سيقوم على قوتها وفهم عدالتها.» سمحت لنفسي حينها بسؤاله: «لا يفكر الجميع هنا مثلك. فالعرب يشعرون أنهم تعرضوا للسرقة والمهانة والاحتلال. كيف السبيل إلى إقناعهم بقبولنا؟» فأجابني: «أن نقول لهم الحقيقة.»

- لا أفهم.

- حسب رأيه، كان من الضروري أن يفهم العرب أن عودتنا إلى جبل صهيون تسندها إرادة شعب في العيش، إرادة تبررها آلام يمتد تاريخها ألفي سنة.

- لا يحلّ هذا الأمر أي مشكلة، احتج «صامويل». فهم يرفضون هذا الواقع.

- تماما. لكن بن غوريون تابع كلامه: «لن يصبح هذا التفاهم ممكنا دون اعتراف من جانبنا بحقيقة أخرى: نحن أمام جماهير عربية استقرت في فلسطين منذ مئات السنين، ولد أجدادهم فيها وماتوا، وهم يعتبرون هذه الأرض بلدهم، بلدا حيث يريدون، أيضا، أن يعيشوا اليوم، كما في المستقبل. إذاً نحن ملزمون بأن نقبل بهذا الواقع. إنه الأساس ذاته لأي تفاهم حقيقي بيننا وبين العرب.»

لم يمنع «صامويل» نفسه من السخرية:

- رغم أننا نعيش على أرض مقدسة، إلا أن المعجزات لم تحصل منذ طويل. وبن غوريون إنسان حالم.

لاحظ «أفرام»:

- منذ لحظة، قلت: «كان الجدّ يفهم». ثم أضفت: «اعتقد أنه يفهم.»

وافقت «إرينا»:

- في ذلك اليوم، اطلع على مقال في جريدة يروي مأساة سفينة «إس. إس سانت لويس» التي غادرت ميناء هامبورغ خلال مايو/ أيار ١٩٣٩، وعلى متنها ألف مسافر. كلهم يهود ألمان. كلهم كانوا يتوفرون على تأشيرات نحو هافانا، حيث كان المنفيون يأملون أن يستقروا بها، في انتظار أن يمنحوا حقّ الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لكنهم ردوا على أعقابهم، حيث لم يستقبلهم أحد. لا السيد «روزفلت»، ولا أي رئيس دولة آخر. وجدت السفينة نفسها مجبرة على أن ترجع أدراجها. ولم توافق بعض البلدان الأوربية على دخول هؤلاء الهائمين على وجوههم إلا بعد أن صاروا على حافة الهلاك. حدث ذلك سنة ١٩٣٩. بعد بضعة شهور، انفجرت الحرب، حيث اعتقل أغلبهم وأرسلوا إلى معسكرات الموت.

توقفت لحظة، متأثرة على ما يبدو، قبل أن تختم:

- في ذلك الصباح، قال لي جدّك: «واليوم، وأنا في سن السبعين، عندما أدرك المصير الذي نذره الرجال لطائفتنا، أتساءل إن لم أكن حالما، بل أسوأ من ذلك، متواطئا- بعقليتي- مع قتلتنا.» كما أخبرني بما قاله له بن غوريون: «لو عرفت أنه كان من الممكن إنقاذ أطفال ألمانيا جميعهم بنقلهم إلى إنجلترا، أو إنقاذ نصفهم فقط

بنقلهم إلى إسرائيل، لاخترت الحلّ الثاني، لأن الأمر لا يتعلق فقط بعدد الأطفال الذين يجب إنقاذهم، بل بمسؤوليتنا التاريخية تجاه الشعب اليهودي برمته.» همس يوسف حينها: «بدأت أفهم.»

وقف «أفرام»، وبدأ يذرع المكان جيئة وذهابا.

- كلمت البارحة «موردخاي» المقرب من الحكومة، كما يعلم الجميع. وهو لا يملك هدوءك بتاتا، يا أبي. أما الخبر السارّ الوحيد، فهو أن بن غوريون زار اسطنبول سرًّا، بدعوة من الوزير الأول التركي. وخلال هذه الزيارة، وقّع الرجلان اتفاقية تعاون اقتصادي وعسكري. لن نبقى وحدنا على الأقل من الآن فصاعدا. وفي المقابل، شاع أن عبد الناصر، وبعد التماس هذا النازي أمين الحسيني مفتي القدس، استشرف تشكيل دولة فلسطينية ستصبح في الواقع الشريك الثالث للجمهورية العربية الموحدة الجديدة.[1] بل هناك حديث عن وجود قوات تشكلها قوات فلسطينية مكلفة بتأمين حفظ النظام في غزة. أنت تظن أن كارثة نهاية أرض إسرائيل ستحلّ.

- نهاية أرض إسرائيل؟ صاح «صامويل برونشتاين». لن يسمح العالم بذلك! لن يفعل بعد ما قاساه شعبنا! ها نحن عدنا الآن إلى بيتنا. ومع ذلك، فإننا لم نعد، حيث لم نصبر على حرماننا من أرضنا أبدا. لابد أن ينتهي العرب إلى إدراك هذا الأمر.

صاحت «إرينا»:

- إلى أين سيذهب أحفادنا، إذا طردونا من هنا؟ إلى فرنسا حيث باعونا للنازيين؟ أم إلى ألمانيا حيث فتكوا بنا؟ أم إلى روسيا حيث يكرهوننا ويذبحوننا؟ أم إلى غيتو بولوني؟

خطا «صامويل» خطوة نحو زوجته، واحتضنها.

---

(١) اعترض الريس حينها على الدفع بعدم قبول اقتراح المفتي.

- لن نذهب إلى أي مكان، يا عزيزتي. أي مكان. لقد عدنا...

*

باريس، ١٤ مايو/ أيار ١٩٥٨

أمسك «جان فرنسوا لوفون» يد دنيا، ورفعها إلى شفتيه. كان هناك أطفال، غير بعيد عن الزوجين، يدحرجون دراجة في ممشى الحوض ومحيطه. لم تكن لكسمبورغ متلألئة كما هي اليوم.

- مازلت أحبك، هل تعرفين؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي دنيا.

- ما زلت؟ كيف يمكنني أن أؤول ذلك؟ رغم كل شيء؟ هل مازلت... رغم الملل من حبي؟

- لا هذا، ولا ذاك. سأل طفل أمه ذات: «كيف نكتب كلمة «مداعبة»؟» أجابته: «نكتبها بيدين.» «ما زلت» أحبك تعني حبًّا عنيدا.

تكورت على صدر «جان فرنسوا». همست وهي تضع يدها على قلب زوجها:

- هل هو بخير؟

- ينبض بفضلك، وبفضل هذا الطبيب الرائع.

- ظننت فعلا أنني سأفقدك.

- مستحيل. نموت بالسهو. غير أنني كنت في كامل وعيي. ولا رغبة لي في فراقك. مازلنا شابّين.

- في سن الخامسة والستين؟ نحن عجزة، أجل.

سارعت إلى استئناف الكلام:

- هل تعتقد فعلا أن الحكمة تقتضي القبول بهذه المهمة التي يقترحها عليك «كي دورساي»؟[1]

- بالطبع! يزعجني الجمود. أنت تعرفين مثلي أنه أسوأ الأعداء. تمضي أيام، لا أفعل فيها أي شيء، سوى تكرار الأفكار السوداء أو الرمادية، ويقرضني التوهم. لا. يجب أن أتحرك. إذ لا يقع لبنان أو سورية أو الجزائر في أقاصي المعمورة.

- أعترف أنني لم أفهم أي شيء مما جرى. لماذا هذا الجنون؟

- لأن الشرق يبقى قنبلة موقوتة. لا شيء فيه سهل، كما هو شأنه دائما. إننا نواجه مشكلة عويصة مع الانتفاضة الجزائرية. أمس، قيل لي إن ضباطا من أنصار الجزائر الفرنسية حرضوا على العصيان. ها قد مضت أربع سنوات وجيشنا يحاول أن يخضع الجزائريين المسلمين الذين يطالبون باستقلال بلادهم. إننا نواجه حربا أهلية مزدوجة بين الطوائف من جهة، وداخل الطوائف نفسها من جهة أخرى. فما تزال الذاكرة منحوتة بمذابح يوم ٨ مايو/ أيار ١٩٤٥.

- تذكر أن استعراضا قد نظم احتفالا بنهاية الحرب وانتصار الحلفاء. إذ قررت الأحزاب الوطنية الجزائرية، التي استفادت من حضور خاص في ذلك اليوم، التظاهر بغية التذكير بمطالبها الوطنية. أطلق شرطي رصاصة، ليقتل شابا جزائريا كان يلوح بعلم الجزائر. فاهتاجت الجماهير. سقط مئات القتلى من الجانبين، وجرح الكثيرون.

مال «لوفون» برأسه إلى الخلف، ليحدق في السماء.

---

(١) تشير هذه التسمية في أدبيات السياسة الفرنسية إلى وزارة الشؤون الخارجية (المترجم).

- سفك الدماء. . . جنون. اليوم، ما فتئت الانتفاضات تتزايد.
وأمام خطورة الوضع والتصعيد، اقترح «روني كوتي»[1] تعيين الجنرال «دوغول» رئيسا للمجلس. وهو يأمل أن يجد هذا الأخير، المتوج بهالة مجده الماضي، حلا للمشكلة.

- لن تقبل الجمعية الوطنية التي يهيمن عليها اليسار أبدا.

- أعرف. لكن «كوتي» هدّد بالاستقالة فورا في حالة رفض تنصيب الجنرال. هكذا. . .

ابتعدت العراقية عن «جان فرنسوا»، وهزت رأسها.

- لا يعلمنا الماضي فعلا أي شيء. سيكون من السهل جدًّا تمتيع الجزائريين بالاستقلال. لقد وضعت فرنسا حدًّا للحماية في تونس والمغرب، أليس كذلك؟

- بلى، لكن ماذا سنفعل، في هذه الحالة، بمئات الآلاف من المعمرين الذي رأوا النور في الجزائر، ويعيشون فيها منذ أجيال؟ فهم يرون أنها بلادهم، شأنهم شأن السكان الأصليين. لا، يا دنيا، ليست المسألة سهلة بتاتا.

- لا تصبح الأحداث معقدة، إلا إذا جعلها الرجال كذلك. ولِمَ يوفدك «بينو» إلى بيروت؟

صحّح «جان فرنسوا»:

- سيرحل «بينو». ابتداء من الغد، سيخلفه وزير خارجية آخر هو «روني بليفان».

- «بليفان» أو «بينو» أو أي وزير آخر. لِمَ بيروت؟

---

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية بين ١٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٤ و٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٩.

- لأن الحرب الأهلية توشك أن تندلع هناك أيضا. ذلك أن الرئيس كميل شمعون لم ينتصر لعبد الناصر في نزاعه مع الغرب. فضلا عن ذلك، فهو يشعر بالتهديد الكامن في الوحدة المصرية السورية، التي خلقت أملا رائعا لدى الأحزاب التقدمية والإسلامية الراغبة في الانضمام إلى الجمهورية الجديدة. إذ خاب أمل هذه الأخيرة كذلك بغياب الإصلاحات- التي التزم شمعون بتفعيلها- وهي ترفض أن يلتمس الرئيس ولاية ثانية، خلافا للدستور. ينضاف إلى هذه الأحداث اغتيال الصحافي الماروني نسيب المتني، حيث سرعان ما أشار المعارضون للحكومة بأصابع الاتهام إلى مسؤولية الدولة، طالما أن الضحية عرف بقربه من بطريرك الموارنة المعارض لشمعون. وابتداء من اليوم الموالي، ثار الشوف[1] الذي كان قد دشن تمردا صريحا. وانفجرت المعارك في صيدا وطرابلس وجزء من البقاع بين أنصار شمعون؛ أي المسيحيين الموارنة، والميليشيات الوطنية المسلمة بقيادة رشيد كرامي، السنّي المتحالف مع الفلسطينيين، وفؤاد شهاب، الماروني المعتدل قائد الجيش اللبناني.

- ماروني يعارض مارونيا آخر؟ دعني أعرف، هل شمعون مسيحي أم لا؟

لم يستطع «جان فرنسوا» أن يمنع نفسه من الضحك.

- يا حبيبتي، هذه هي السياسة. لا تنسي أن بلاد الأرز بدعة فرنسية لم تحسب حسابا للفخ الذي وقعت فيه عشرات الطوائف، لكل منها طابعها الخاص. إذ يتكون المسيحيون من اثنتي عشرة طائفة على الأقل. بل هناك كنائس مقسمة بين اليونانيين الكاثوليك،

---

(١) يقع في الجزء الجنوبي من جبل لبنان، وهو معقل من المعاقل التقليدية للطائفة الدرزية.

واليونانيين الأرثوذكس، والأقباط الكاثوليك، والكلدانيين، والأرمن، وغيرهم!

استعاد نفَسه، قبل أن يستأنف:

- وعند المسلمين، لم يكن الأمر واضحا. الشيعة، والعلويين، والسنّة، والدروز...

- أشرت إلى سورية.

- أجل. يجب أن ألتقي هناك ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث. نحن في حاجة إلى معرفة موقفه من فرنسا. فالرجل صاحب حضور قوي. إذ ليس مجرد وزير للشؤون الخارجية، بل هو الحلّ والعقد في حركة ثورية تمتد حتى بغداد.

حدّقت دنيا في زوجها، مشفقة على حاله.

- ترى، يا حبيبي، أنكم عندما تقررون، أنتم الغربيون، اللعب في ساحة الشرق الأوسط والأدنى، تجعلونني أفكر في مصارعين عميان يتحركون على غير هدى وسط ثيران هائجة.

*

حيفا، ١٨ مايو/ أيار ١٩٥٨

تناول حسين الحسيني سبحة عنبر، وشرع يدحرج حبيباتها بين الإبهام والسبابة، وهو ينظر إلى والدته.

راقبت سامية ابنها. اغرورقت عيناها بالدموع، وارتعشت يداها.

- لم تبلغ العشرين، يا ابني. ما زلت طفلا. ما زلت في حاجة إليّ. أرجوك. لا تذهب.

- يجب أن أفعل، يا أمي. لا بد.

- لكن ماذا ستفعل في الكويت؟ هنا بلدك. هنا عائلتك وأصدقاؤك و...

- هنا، لا مستقبل لي. هناك، وبفضل النفط، فهم في حاجة إلى اليد العاملة. سأكسب قوتي، ويمكنني أن أساعدك. لن تفتقري إلى أي شيء. زد على ذلك، لن أكون وحيدا، حيث سيرافقني زيد. سنحمي بعضنا بعضا. لا تخافي.

كفكفت سامية دمعة.

- لا تخبرني بكل شيء، يا ابني. لا أصدقك. عندما يكون المرء ابن بطل، ابن عبد القادر، فهو لا يهاجر من أجل المال. لا أصدقك! أنت تخفي علي أشياء. أعرف زيد أيضا. سمعتهم يتحدثون عن شجاعة أبيه. أعرف حسبه.

أمسكت يد ابنها، وأصرت قائلة:

- الحقيقة، يا ابني. أنا أمّك. لا نخفي الحقيقة عن الأمّ...

مرّت شاحنة عسكرية، محدثة ضجيجا صامًّا.

- طيب. سأقول لك الحقيقة. منذ وقت، تعرفت بفضل زيد على شخصية مدهشة. إنسان سيحررنا من الصهاينة. هو صاحب أفكار عظيمة، ومؤسس حركةِ تحرير اسمها «فتح». وهو في حاجة إلينا.

- في الكويت؟

- أجل، لأنه يقيم هناك، مثل العديد من المهجّرين.

نهض عن كرسيه، وتوجه نحو صوان. زحزحها عن مكانها، وأخرج جريدة مخبأة خلفه. في صفحتها الأولى عنوان بارز: «فلسطيننا نداء الحياة».

- خذي، اقرئي.

وضعت سامية نظارتها.

يتناول أغلب المقالات التيمات ذاتها: المعركة الدائمة ضد إسرائيل، رفض أي اتفاق يبقي على وجود هذه الدولة، رفض وصاية الدول العربية، تحكم الفلسطينيين في مصيرهم، وتركيز جميع الموارد لخدمة الكفاح المسلح.

أعادت الجريدة الشهرية إلى ابنها.

- كيف حصلت عليها؟ إذا الإسرائيليون...

- زيد هو الذي إعطاني إياها. لا تخافي. سأمزقها.

قرن الإشارة بالفعل. مزق الجريدة ورقة ورقة.

- سأتخلص منها بعد قليل.

ران صمت طويل، وهما ينظران إلى بعضهما.

في النهاية، قالت سامية:

- اذهب، يا بني. الله معك.

فوجئ حسين برباطة نبرتها غير المتوقعة. تمتم:

- أنتِ... أنتِ متفقة؟

وافقت.

- لماذا؟ أريد القول... لماذا لم تعودي تحاولين...

- أن أمنعك؟ سأجيبك، يا ابني.

وقفت بدورها، وتوجهت إلى الصوان ذاته. فتحت الجارور، وأخرجت من بين الألبسة ورقة مطوية. سلمتها لحسين.

- كتب والدك هذه الكلمات ساعات قبل معركة القسطل، قبل أن يموت برصاص الصهاينة.

بسط الشاب الرسالة بتؤدة.

عزيزتي سامية،

سندوّن صفحة ناصعة ومجيدة من التاريخ. لن تتخيلي ما بذلنا، بين النهار والليل، من تضحيات وجهود جبارة. لكن

الرجال أنفسهم ينسون، وهم في ساحة الوغى. ينسون الأكل، والشرب، والنوم. ينسون آباءهم وأبناءهم. العدو قوي، يا سامية، لكننا سنحقق النصر في النهاية، إن شاء الله!

جثا حسين أمام والدته، مضطربا. بدا فجأة طفلا.

- الإجابة لك، همست سامية بفخر. لا يُمنع ابن عبد القادر، حتى وإن مُتْنا همّا وكمدا.

(٦)

لا حول ولا قوة إلا بالله.

القاهرة، ٩ يونيو/ حزيران ١٩٥٨

كان هشام ممتقعا، عندما حلّ ببيت والده العشاء. تهاوى على أريكة. بدا مرتعدا. سأله تيمور:

- ماذا حدث؟

- لا شيء خطير. أشعر بالبرد فحسب.

قدمت له نور شايا ساخنا، أضافت إليه ثلاث قطرات من مشروب «براندي». رشف هشام المشروب، لكنه ظلّ على حاله المنكوب.

- هلا أخبرتني أخيرا بما يجري؟ صاح تيمور.

- خبر سيء.

اشرأبت نور بعنقها من أريكتها.

- هل طردت من الجيش؟

هزّ هشام رأسه، ثم ذهب يغلق باب الصالون.

- لقد حاولوا اغتيال عبد الناصر، قال وهو يعود إلى مكانه.

- هم؟ من؟ الإنجليز؟

- لا.

- الأمريكيون؟

- سيد العربية السعودية الملك ابن سعود. لا تخبروا أحدا. مازال الأمر سرًّا.

لو انهار السقف، وانبثق من أنقاضه عفريت بذيء، لكان الذهول أهون. تناول تيمور قنينة «ويسكي»، ثم عاد إلى مكانه. ساد صمت قاتل في الصالون طوال بضع دقائق. كسّرته نور، وهي تقول:

- معلوماتك مؤكدة، كما أتصور.

- قدّم السعودي مليوني جنيه استرليني بغية وضع قنبلة في طائرة عبد الناصر أثناء سفره المقبل.

صاح تيمور:

- مليوني جنيه؟ لمن؟

- لرئيس المخابرات العسكرية السورية الكولونيل عبد الحميد السراج، المناصر المتحمس لعبد الناصر. عندما جاءه وسيط ابن سعود، تظاهر السراج بقبول اللعبة.

رمشت عينا تيمور. كان حائرا.

- لكن ما الذي أصاب ابن سعود، هذا العجوز الأشمط؟ صاح.

- إنه خائف. فهو يخشى أن تصبح الوحدة المصرية السورية مثل بقعة زيت، حيث يظن أن أيامه باتت معدودة.

- هل تدرك ما يستتبع ذلك؟ الفوضى! الفوضى المطلقة! نهاية الثورة!

غامرت نور بالقول:

- كان أحد رفاق عبد الناصر الأوائل- زكرياء محيي الدين- سيأخذ المشعل بدون شك.

- زكرياء أو أي كان، ردّ تيمور، لكن لا أحد يملك شخصية عبد الناصر.

لم يملك هشام سوى أن يلاحظ أن والده، الذي كان قبل بضعة أيام ينتقد الثورة والوحدة مع سورية، بدا هذا المساء يرى في موت الريس ونهاية الثورة كارثة. لكنه لم ينبس ببنت شفة.

نقر الخادم الباب، ليعلن أن العشاء جاهز.

بعد شهر، انفجرت الفضيحة. نشرت التفاصيل في الصحافة كلها، مرفقة بنسخ الشيكات الثلاثة المسحوبة من البنك العربي في الرياض، بتوقيع- لا غبار عليه!- ملك العربية السعودية شخصيا. كان الشيك الأول، وهو بقيمة مليون جنيه استرليني، يحمل الرقم ٨٥٩٠٢. وتصل قيمة الثاني إلى ٧٠٠ ألف جنيه. وهو يحمل الرقم ٨٥٩٠٣. ويحمل الثالث، وهو بقيمة ٢٠٠ ألف جنيه، الرقم ٨٥٩٠٤. حُوّلت هذه المبالغ إلى الحامل، الذي وضعها في البنك العربي في دمشق، لفائدة ع. س.، وهما الحرفان الأولان من اسم عبد الحميد السراج. انفجر عبد الناصر ضاحكا. قال للكولونيل: «إذا أحسنت الحساب، فإن المبلغ الإجمالي يصل إلى مليون و٩٠٠ ألف جنيه. هناك مبلغ ١٠٠ ألف جنيه لم يصرف. هكذا، فالمتآمرون مدينون لنا بأموال إضافية! اكتب لهم، مطالبا بما تبقى!»

عُلّقت العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية الموحدة والمملكة العربية السعودية.

في الأيام الموالية، بدأت حقيقة أخرى ترشح عبر فضول الصحافة وتعليقاتها، والشائعات المسموح بها إلى حد ما.

في البداية، سمحت المهلة الفاصلة بين اكتشاف المؤامرة وكشفها للجمهور بتحصيل مبلغ المليوني جنيه، الذي سارع عبد

الناصر إلى تخصيصه لتنمية الصناعة الثقيلة السورية، كأن الريس يستهزئ بخصومه، كما جرت عادته.

خمس سنوات قبل ذلك، ذات صباح من سبتمبر/ أيلول ١٩٥٣، وبينما كان مجلس الثورة يناقش مشروع بناء برج مخصص للاتصالات اللاسكلية الدولية. لاحظ هشام قائلا:

- يجب ألا يطرح هذا الأمر أي مشكلة، طالما نتوفر على الوسائل المالية.

- كيف؟ تساءل البكباشي. أي وسائل؟ صناديقنا فارغة!

تهلل وجه هشام بابتسامة.

- أموال الصناديق الأمريكية الخاصة.

- الصناديق الأمريكية الخاصة؟

لم يسمع عبد الناصر بأي حديث أبدا عنها. قيل له إن وكالة المخابرات المركزية (CIA) سلمت الجنرال نجيب[1] مبلغا لا بأس به قيمته ثلاثة ملايين دولار، عبر ضابط مصري يعمل عادة على تأمين الاتصال بوكالات المخابرات الأمريكية. تمت العملية في شقة بالضاحية السكنية المعادي، على بعد ثلاثين دقيقة من العاصمة.

فوجئ عبد الناصر بالأمر.

- أين المال الآن؟

- في مكتب الرئاسة، بصندوق الجنرال نجيب.

دون انتظار، زار عبد الناصر رفيقه الذي أكّد المعلومة. لكنه

---

(١) اسمه الكامل محمد نجيب. كان واحدا من جماعة الضباط الذي انقلبوا على الملك فاروق يوم ٢٢ يوليو/ تموز ١٩٥٢. بعد الثورة، كان أول رئيس للجمهورية المصرية، حيث شغل هذا المنصب حتى ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٤. لكن سرعان ما حمل على الاستقالة، تاركا مكانه للوزير الأول حينها جمال عبد الناصر.

حمل الخبر اليقين، وهو أن ملايين الدولارات الثلاثة ليست هدية من وكالة المخابرات المركزية، بل من الحكومة الأمريكية.

- لأي هدف؟

- هي أموال موضوعة رهن إشارة بعض رؤساء الدول، تسمح لهم بتمويل محاربة الشيوعية.

حينها، طلب عبد الناصر، الذي شعر بالاختناق، أن توضع هذه الأموال في عهدة المصالح السرية المصرية، وأمر ألا ينفق منها سنتيم واحد دون إذن مكتوب من مجلس الثورة.

وفي الأشهر الموالية، برز على ضفاف النيل برج غريب ذي شباك إسمنتي. كان المفروض، في البداية، أن يكون البرج بنايةً وظيفية مجهزة بجهاز إرسال واستقبال. لكن روح عبد الناصر المتمردة وإرادته التواقة إلى الاستقلال فرضتا أن يخصص مجموع هذه الملايين الثلاثة لبناء «مجنون»، عبارة عن مبنى يكرس «مجد» وكالة المخابرات المركزية. أنشئ مطعم في أعلى قمته. من هناك، مازالت القاهرة، حتى اليوم، تُرى على مد البصر. وسرعان ما أصبح المبنى موضوعا لكل السخريات. إذ لم يستوعب أي مصري كيف تبذر الأموال العامة هكذا، بالنظر إلى الحالة المالية المزرية. من كان يتصور مصدر هذه الأموال؟ أما وجود المطعم، فقد اعتبر- بلا شك- شتيمة من وكالة المخابرات المركزية.

قبيل وفاته، همس عبد الناصر في أذن صديقه الوفي الصحافي محمد هيكل، بينما كانا جالسين على شرفة فندق «هيلتون»، قبالة البرج، : «اسكت! انتبه! إنه ينصتون إلينا.» اندهش هيكل: «من ينصت إلينا؟» أشار عبد الناصر بأصبعه إلى البرج، ثم قال: «وكالة المخابرات المركزية، يا صديقي.»

لكن لم يكن الجميع على علم بأسرار موضوع محاولة الاغتيال

المجهضة. فالمقربون من الملك ابن سعود ذهلوا بأن هذا الرجل العنيد والحاقد بالطبع، لكن المرتاب والضعيف الإرادة في الآن ذاته، فكّر في تصفية زعيم يحيطه المجتمع العربي بهالة كبيرة. إذ تبين أن الفكرة أوحى بها الدبلوماسيون الأمريكيون العاملون في الرياض، الذين أثاروا شبح هيمنة ناصرية وشيوعية على جميع الشرق الأوسط والأدنى.

- تخيلوا، يا جلالة الملك، أن مغامرين سيضربون طوقا عليكم. تخيلوا الشهية التي يفتحها نفط بلادكم عند هؤلاء العسكريين.

- لكن كيف يمكن التخلص منه؟

حينها طرح مشروع المؤامرة، الذي كان يحتاج إلى رجل مناسب. هل هناك من هو أفضل من عميل المخابرات العسكرية في الجمهورية العربية الموحدة، وأقدر منه على وضع قنبلة في طائرة البكباشي؟ وقع الاختيار على السراج. استماله عملاء سعوديون، فتظاهر السوري بتواطئه.

تجلّت النتيجة المباشرة لهذه المسألة، في نظر هشام لطفي، في كونها غيرت قناعات والده. ذلك أن المؤامرة أثارت عنده الوفاء والفخر بالوطن.

ومهما كانت نتيجة هذه المسرحية السخيفة، فإن مصر الناصرية بدت، مع ذلك، أشبه بسفينة يقفز منها ركّابها يوما بعد يوم. هجرانها يظهر عبر تفاصيل تافهة من حيث الظاهر. فقد باع البقال اليوناني دكانه، حيث يتسوق الخادم سيد، لتاجر مصري، وحزم حقائبه ورحل رفقة أسرته. وحلّ تاجر سوداني محلَّ الفندقي المالطي صاحب مطعم شارع قصر النيل، الذي يرتاده عادة آل لطفي. رحل هو الآخر. إذ

برزت علامات عدّة تكشف مدى تحول أرض الفراعنة إلى «طوف ميدوزا». [1]

*

القاهرة، ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨

اكتشف هشام، وهو يتجاوز حاجز نادي الجزيرة الرياضي، كم هو واضح هذا الضياع. تظهر أرضيته التي أحرقتها الشمس شبه فارغة، وملاعب كرة المضرب أيضا. كما بدت قاعة الأكل، التي تكون عادة هادرة في ساعة الوجبات، هادئة مثل مسجد. كان يسمعهم يتساءلون هنا وهناك:

- ما مآل آل السدناوي؟ لم نعد نراهم.
- أظن أنهم في عطلة.
- في عطلة؟ لكن غيابهم تجاوز شهرين؟
- عطلة طويلة، بلا شك.

هذا يعني أن آل السدناوي باعوا ممتلكاتهم بسعر زهيد، وركبوا أول باخرة راحلة إلى أي اتجاه.. إلى اسطنبول، أثينا، مالطا، أو جنوة.. لا يهمّهم سوى أن يرحلوا خارج البلاد.

كانت الجاليات الأجنبية، من فرنسيين وإيطاليين ويونانيين وغيرهم، وكذا اليهود من جميع الجنسيات تغادر في لمح البصر. وحتى السوريون واللبنانيون، ممن أصبحوا أشد ارتباطا بمصر من

---

(١) «طوف ميدوزا» (Radeau de la Méduse) لوحة رسمها الرسام الفرنسي «تيودور جيريكو» سنة ١٨١٨، مستلهما فكرتها من حادث غرق سفينة «ميدوزا» قبالة السواحل السنغالية، حيث مات أكثر من بحار، بعد هرب ضباط على قوارب نجاة. (المترجم)

غير المسلمين إلى جانب الأقباط، كانوا يحزمون حقائبهم استعدادا للرحيل.

توجه هشام، بعد أن ارتدى مايوها، نحو كرسي من الكراسي الموضوعة تحت مظلة. طلب ليمونادة. تمدد فوق الكرسي، مغلقا عينيه.

إننا نركب عبّارة تغرق في يوم عاصف. لا أرغب في الهلاك.

تساءل: لماذا خطر بباله، في تلك اللحظة بالذات، ما قاله أخوه فاضل قبل هجرته إلى لندن؟

إنه انتقام الفلاحين المحبطين من النخبة. ألا تنظر إلى ما يجري الآن؟ سرعان ما سيمتد تأميم البنوك وشركات التأمين إلى جميع المقاولات في هذا البلد. ولن يفلت من ذلك سوى القهوجيين وعاهرات الأزبكية. وسيصبح النظام أسوأ من النظام السوفياتي. لا. لم أعد أؤمن بمستقبلي في هذا البلد.

مدّ يده إلى الكأس التي وضعها النادل للتو. رشف منها جرعة.

ماذا لو كان شقيقه على صواب؟ لا! مستحيل! لقد كانت الثورة حبلى بآمال عدة! وستنتصر!

تعثّرت روحه في تأملاته. نهض مثل آلة. توجه إلى المسبح، ثم ارتمى في الماء. على الفور، علَتْ صرخة حادّة.

في غطسته العمياء، صدم هشام سبّاحة بكامل قوته. عندما طفا فوق الماء، بحث عنها، ورأى في عينها نظرة غاضبة.

- سحقا! كان عليك أن تنتبه! كدت تكسر عنقي!

أثارت حدة الكلمات انتباه المستحمين القلائل.

تفاجأ هشام أيضا. كيف لامرأة أن تتلفظ بكلمات نابية؟ وبينما هي توبخه، ظل هو يتابعها صامتا. شعرها كستنائي مجعد، لا قصير ولا طويل، لكنه يلامس كتفيها. شعر ذو بريق ذهبي. في الثلاثين من

العمر. جميلة غاية الجمال. ومع ذلك، لم يكن جمالها مبعث حيرة هشام، وإنما ما يكشفه من مفارقة تمزج بين كآبة فظيعة وابتهاج كبير، بين سعادة مشرقة وقلق واهم بالحياة، وبين قوة ظاهرة وهشاشة لا توصف كذلك. تساءل عما إذا كانت تعي هذه المفارقة.

استعاد هشام رباطة جأشه.

- اعذريني. لم يكن الأمر مقصودا. لم أرَكِ.

استخفت به، هازّة كتفيها، وهي ترعد:

- سافل!

سبحت إلى الجهة الأخرى من المسبح، تاركة إياه مصعوقا.

هل كان يحلم؟ بدون تردد، سبح خلفها. أمسك بكعبها، عندما كانت تستعد للصعود من المسبح. قال مزمجرا في وجهها:

- سيدتي! لا أدري أين تربيت، بالتأكيد ليس في أسرة جديرة بالاحترام.

نظرت إليه بازدراء.

- أنت على حقّ! ترعرعت في الشارع. الآن، هل تطلق قدمي.

- ليس قبل أن تعتذري لي.

- اتركني، أيها مخبول!

- اعتذري!

هجمت عليه بقوة، حيث هوت برجلها المتحررة على وجهه، لكنها لم تصبه.

كان الزبناء حولهما يتابعون المشهد. أخيرا، حدث شيء ما كسر الرتابة.

تضاعفت القوة بالغضب، حيث انتفض هشام، فاحتضن المرأة، ثم ارتمى إلى الخلف، جاذبا إياها إلى الماء.

- سحقا! سحقا!

ظلت تصارعه مثل مسعورة، تسدد له اللكمات على غير هدى.

- اعتذري!

ما إن سعت إلى التخلص من قبضته، حتى غطس رأسها في الماء، مبقيا عليه كذلك بضع دقائق. أخرجها. كانت تختنق وتسعل وتبصق.

- إذًا؟

- اذهب إلى الجحيم!

أعاد الكرّة، مرة أولى، وثانية، وثالثة.

تعالت أصوات نساء احتجاجا:

- توقف! ستغرقها!

أما الرجال، فكانوا يضحكون.

أخيرا، تظاهرت بالاستسلام، وهي على حافة الاختناق. بل استسلمت. انبجست الكلمات باستخفاف:

- أعتذر. هل أنت راضٍ؟

أومأ برأسه منكرا.

قطبت جبينها، مستعدة لشتمه ثانية.

قاطعها قائلا:

- أدعوك للعشاء.

- معذرة؟

- هذا الاعتذار الثاني غير مفيد. أدعوك للعشاء غدا مساء.

- أنت مريض!

- غدا الساعة الثامنة مساء، بمطعم «سيميراميس».

ومادام مازال يمسك بها، أمرته قائلة:

- ألن تخلي سبيلي؟

- الساعة الثامنة. بسطح «سيميراميس». سأنتظرك.

ثم تابع كلامه:

- طيلة الليل، إذا اقتضى الأمر ذلك.

ثم أرخى قبضته.

هزّت كتفيها، ثم سبحت نحو المسبح. عندما غادرته، سمعها تدمدم: «سافل».

*

القدس، اللحظة ذاتها

كان الشك المطلق يرتسم على محيا «أفرام برونشتاين»، بينما يتحدث «أفي فراينكل». عندما سكت، لاذ «أفرام» بالصمت، عاجزا عن إبداء أي تعليق.

عندئذ، صبّ «أفي» كأسا فودكا له ولصديقه، ثم هتف:

- نخب حياة!

ردّ «أفرام»:

- نخب *حياة*...

- ما بك؟ لِمَ تخفي فرحك؟

- اترك لي الوقت الكافي لأهضم الفكرة. فما أخبرتني به جدير بذلك.

- لا حاجة لي بالطبع بأن أطلب منك التكتم، لأن «التكتم» كلمة ملطفة.

- بالطبع، بالطبع.

لم يتعرف الرجلان على بعضهما إلا منذ وقت قصير، لكنه يبدو كأنه قرن من الزمن، لأن صداقتهما أصبحت آنية ومتينة. في الواقع، حدث ذلك منذ أن انخرط «أفي»- الذي يكبر «أفرام» بخمس سنوات- في جهاز الموساد؛ أي قبل خمسة عشر شهرا. تغذيهما

العقيدة ذاتها، والمَثَل نفسه، وتسكنهما روح بناء وطن كبير، وقوي، وديمقراطي على الأخص، في جزء من العالم تهيمن عليه الدكتاتوريات والفساد والمحسوبية. بلد يعمل فيه كل واحد من أجل سعادة أخيه. كانت «الكيبوتسيمات» التي تزدهر حولهما تجسد هذا المثل. أما موضوع خلافهما الوحيد، فيكمن في رؤيتهما المتناقضة إلى المستقبل. إذ كان «أفرام» يرى ضرورة منح الفلسطينيين دولة إلى جانب إسرائيل، بينما كان «أفي» يعارض ذلك قطعا.

رشف «أفرام» جرعة قبل أن يستأنف كلامه:

- إذا، جرت منذ نحو ثماني سنوات اتصالات بين فرنسا ولجنة علمية منتظمة داخل وزارة دفاعنا؟ في السرية المطلقة؟ لجنة تتطابق بدقة مع المفوضية الفرنسية للطاقة الذرية؟

- تماما. بفضل «بن غوريون» الذي جعل، منذ عودته إلى السلطة، من المشروع النووي إحدى أولوياته الكبرى.

- وتقول إن الولايات المتحدة الأمريكية منخرطة في الموضوع كذلك؟

- لا، بالعكس. إنهم يتبرمون من المشروع، عازمين على كبح أي انتشار نووي. غير أنهم تكرموا علينا بإنشاء مفاعل صغير، ووعدونا بأن يكون مخصصا للبحث فقط. هذا كل شيء.

- إذا، حقا فرنسا هي التي تلعب الدور الرئيسي في هذه العملية.

- تماما.

- هل هذا الاتفاق الموقّع السنة الماضية ثابت ونهائي؟ هل أنت مقتنع به؟

- بأي لغة يجب أن أكرر الإجابة؟ نعم! لقد قررت الحكومة

الفرنسية، منذ قضية قناة السويس والمهلة السوفياتية التي أوقفت كل شيء، أن تمتلك السلاح النووي، وتتعاون معنا. أنت تظن أن «شمعون بيريز»[1] تردد كثيرا مثل العم سام. لكن الرجل- الذي لا يخفى عليك إصراره- نجح في طمأنة الأمريكيين بالغاية العلمية الصرفة من برنامجنا. فالاتفاق الذي وقعه مع الدولة الفرنسية سيسمح لنا ببناء مفاعل أكبر قادر على إنتاج بين عشرة إلى خمسة عشر كيلوغراما من البلوتونيوم سنويا.

- وهم يبنون الموقع الآن في صحراء النقب؟

- تماما. في ديمونة.

- لكن كيف سيمول الشيطان كل هذا المشروع؟ لا بد أن يشرح للكنيست الخطوات المالية!

انتعش وجه «أفي فراينكل» بابتسامة ساخرة قصيرة.

- سؤالك ساذج. لا يظهر التمويل في ميزانية الدولة، ولن يظهر فيها أبدا. وهو يتكون فقط من تبرعات أصدقاء إسرائيل في العالم. لقد تبين أن «بن غوريون» و«شمعون بيريز» لا يتعبون من جمعها! في الأخير، فالشخصية الوحيدة التي تتأفف من هذا المشروع- ستنتفض لسماع اسمها- هي وزيرتنا في الشؤون الخارجية «غولدا ميرسن»، التي صارت تعرف أكثر باسم «مايير» منذ أن أقنعها «بن غوريون» بأن تتبنى لقبا أكثر «عبرية».

بدا «أفرام» مندهشا. تابع «فراينكل» قائلا:

- أجل. فهي لا تثمن بتاتا السياسة الموازية التي يتبعها «شمعون بيريز»، بل تعارضها بشدة. ولم تعد تثق في الفرنسيين، وتخشى

---

(١) كان حينها المدير العام في وزارة الدفاع، والوزير الوصي هو «ديفيد بن غوريون».

غضب الأمريكيين حالَ اكتشافهم خفايا المشروع. ومهما يكن الأمر، فإن القنبلة الذرية وحدها ستسمح لنا بمنع اقتراب الدول العربية التي لا تطمح سوى لاستئصالنا.

السلاح النووي.

اخترق تيار بارد جسم «أفرام». عادت إلى ذهنه صورة نارية.

٦ أغسطس/ آب ١٩٤٥.

هي صورة فُطر ضخم يعانق عنان السماء. مات بسبب مائة وأربعون ألفا. نصف سكان هيروشيما تقريبا.

*

صور، جنوب لبنان، اليوم نفسه

جلست نوال، الأخت الصغرى لليلى خالد، على كيس رزّ وزعته الأنروا[1] البارحة. نفخت على الشمعة المغروسة وسط حلوى صغيرة، نجحت والدتهما في إعدادها لهذه المناسبة. حلوى «نمورة» اللذيذة المعدّة من السميد والياغورت والسكر وماء الزهر.

صفقت ليلى وأختاها الأخريان زكية ورحاب، وهما تتساءلان كيف نجحتا في الحصول على عناصر ثمينة في أكواخ البرج الشمالي حيث الماء الصالح للشرب أصبح عزيزا.

في غضون شهرين، ستحتفل هي أيضا بعيد ميلادها الرابع عشر. بسرعة! بسرعة! أريد أن أكبر. فالوقت لا يمضي بالسرعة الكافية!

---

(١) اسمها الكامل وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى. وهي منظمة تابعة للأمم المتحدة تعنى بمساعدة اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة والضفة الغربية والأردن ولبنان وسورية، الموزعين على نحو ستين مخيما. أنشئت عقب الحرب الإسرائيلية-العربية سنة ١٩٤٨ بموجب القرار ٣٠٢.

- لا تنسي أنكما، أنت وأختك، ستعودان بعد قليل إلى صيدا! عساك أعددت محفظتك.

لم تتحدث عن العودة إلى الداخلية البروتستانتية حيث سجلتها والدتها. لم يكن لتبدو حزينة، لولا أنها ستفارق والديها مرة أخرى. على الأقل، يمكنها هناك، عند هؤلاء القساوسة الأمريكيين، الذين لا تشاطر عقيدتهم، أن تأكل حتى الشبع، ومجّانا- زيادة على ذلك.

(٧)

إن الواقع لا يغفر خطأً واحدا للنظرية.

ليون تروتسكي

بغداد، ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨

لم تعد بغداد تلك البلدة الكبيرة، التي تغار من القاهرة أو دمشق. ما عاد شيء فيها يذكر ببهاء زمن *ألف ليلة وليلة*، الذي ساد فيه هارون الرشيد العظيم. في هذا اليوم، كان صبح ضبابي يطلع على المدينة الدائرية. بدا كل شيء هادئا. التلاميذ في عطلة. والزعماء السياسيون في السجن أو المنفى، والسكان غارقون في سباتهم.

توقف الكولونيل عبد السلام عارف في مركز القلعة، الذي يقع على بعد ثلاثين كيلومترا عن المدينة، حيث حدّد أهدافه لثلاثة رؤساء كتائب منخرطين في العملية. غادر في الساعة الرابعة صباحا على رأس خمسين رجلا، وبضع عربات مصفحة وسيارتي «جيب» مجهزتين بقذائف «بازوكا».

بعد نحو أربعين دقيقة، وبينما كان اللواء التاسع عشر يبسط سيطرته على الإذاعة ومحطة القطار والبنايات الحكومية الرئيسية، توقفت عربات القافلة أمام قصر *الرحاب* الملكي، تلك الإقامة الضخمة المشيدة على ضفة قناة، جنوب غرب المدينة، وسط أشجار

الكينا والدفلى. اندفع رجال مدججون بالرشاشات نحو مدخل الباب الحديدي. وأجهزوا على حارسين دون تحذير.

تخطى عارف، الذي يرافقه النقيب عبد الستار العبوسي، بركة الدم. ثم اندفع داخل الساحة المزدانة بالأشجار.

انقسمت مجموعتهما بسرعة البرق إلى فريقين. اتخذ الفريق الأول موقعا حول البناية الرئيسة، واقتحم الثاني بهوا ضخما ترتفع في وسطه أدراج رخامية.

كان الملك فيصل الثاني الوحيد بين أفراد العائلة الملكية الذي لم ينم بعد في تلك الساعة الصباحية. هل كان ذلك بسبب حسّه الباطني؟ أم هو الأرق؟ أم كان الملك الشاب ما يزال هائما بخطيبته الأميرة الجميلة فاضلة ذات ستة عشر ربيعا؟ كانت تتابع دراستها في لندن. كان سيتزوجها بعد بضعة أسابيع.

انتشر الجنود في القصر وسط ضجيج كأنه الفناء. أحاط بعضهم بالعبوسي الذي كان على أهبة صعود الأدراج المؤدية إلى الغرف.

في هذه اللحظة ذاتها، برز حراس الملك في أعلى الأدراج، عازمين على التضحية بأنفسهم حتى آخر رجل.

دوى صوت الملك بنبرة جازمة. أمرهم بالاستسلام وتسليم السلاح. هل كان يأمل بذلك أن يتجنب حصول مجزرة، أو أن ينقذ، بهذه الخطوة، حياته وحياة ذويه؟

امتثل طه البرماني، قائد الحرس، لأمر الملك.(١)

وعلى الفور، أمر النقيب العبوسي بجمع جميع أفراد الأسرة الملكية في ساحة المراسم.

---

(١) في الواقع، لن نعرف بدقة أبدا ما إذا استسلم لأن الملك أمره بذلك أملا في إنقاذ أسرته أم لأنه كان يأمل ببساطة أن ينجو بجلده.

بعد أن أخرجوهم من غرف نومهم، صفّوهم الواحد تلو الآخر، في مقدمتهم فيصل وعمه عبد الإله، وزوجته الأميرة هيام، والملكة نفيسة، وعمة فيصل الأميرة عبادية، وكذا الخدم الذين رفضوا التخلي عنهم.

- إلى جانب الحائط! صرخ العبوسي. استديروا!

بينما هم ينفذون الأمر، اصطف عشرة جنود، مصوّبين بنادقهم نحو الأهداف الجامدة في مكانها.

- غير ممكن، ثار عبد الإله. لن ترتكبوا جريمة مثل هذه!

- أطلقوا النار!

انطلق وابل من الرصاص، ثم ثانٍ. انخسفت الأجساد.

سرعان ما اختنق الجو برائحة البارود والدم.

*

القاهرة، في المساء ذاته، سطح فندق «سيميراميس»

كان نهر النيل، في شريطه الرمادي، يجري بمهابة تحت جسر قصر النيل. كانت المدينة متلألئة. تتهادى زوارق مزينة بمصابيح ذات ألوان فاترة في الهواء المشحون برطوبة تلتصق بالجلد.

المطعم غاصّ. حول موائده يتهادى «السفرجية»،[1] وأغلبهم نوبيون، بألبستهم السندسية البيضاء والمذهبة. يتجادل الزبناء هنا وهناك، وهم يحتسون صودا «كامباري»، أو نبيذا، أو ويسكي «جوني ووكر» المفضل لدى المصريون.

في زاوية من السطح، يعزف عازف بيانو أسود لحنا إيطاليا.

---

(١) النُدل (في العامية المصرية).

اطمأن هشام إلى أن الثورة لم تطرد الجميع في النهاية. نظر إلى ساعته. كانت عقاربها تشير إلى الثامنة وعشرين دقيقة.

لماذا كان يقنع نفسه بأنها ستأتي؟ إنه العبث، في كل حال.

طلب كأس «جوني» ثانية. حوّل نظره إلى النهر، وفكّر ثانية في الثورة وعبد الناصر.

تواصل أسئلة صرفة، تبقى بلا أجوبة آنية، حفر أروقتها في الدماغ حتى تعثر على حلولها الصحيحة أو الخاطئة. وقد انتهى هشام نفسه، منذ زمن طويل، إلى سرّ شعبية الريس: الشباب.

يا له من سحر لا يقاوم. يأكل المرء الفاكهة، لكنه ينجذب أكثر إلى الزهور التي تسبقها. ويبجل الشيوخ، لكنه يعجب بالشباب. لقد انتهى هشام إلى أن الشباب يمارس دوما سحرا لامتناهيا على الأفراد والشعوب. ألم يدخل أبطال عالم الخلود، لا لشيء سوى أنهم ماتوا شبانا؟ فمصر والعالم العربي يعجبان بعبد الناصر لأنه يجسد الشباب، والأمل بعبارة أخرى.

كان سلفه الجنرال نجيب، الذي سرعان ما أطيح به، رجلا ناضجا جدا وحذرا جدا. وقد أحسن الضباط صنعا عندما أعادوه إلى تأملاته. من يحتاج إذا، في ذروة الانتصار، إلى معلّم حذر ومستشار محتاط؟ لقد طرد الإسكندر العظيم أرسطو الحكيم، فعمّر في الحكم طويلا. كان يريد أن يسطع نجمه بسرعة.

لكن ما كان يثير القلق، لأنه غالبا ما يوجد واحد على الأقل، هو أن وجوه الضباط المحيطين بالريس تعكس كذلك الشباب ذاته. فقد تتحول هذه الميزة، شيئا فشيئا، إلى عائق. إذ لا أحد منهم جرّب السلطة.

كان زكرياء محيي الدين، وزير الداخلية، الرجل الوسيم ذو الملامح الشاحبة على الدوام، يجسد بوجهه الشباب الفاتن والماكر.

ويجسد عبد الحكيم عامر، القائد رئيس القوات المسلحة، الشباب المقدام والمتمرد.

ويمثل أنور السادات، رئيس البرلمان، بالأحرى الشباب المتقد والماكر.

وأخيرا، بلغ هشام بدوره الواحدة والثلاثين من العمر.

شباب في كل مكان.

«لا امرأة، ولا شيطان»، كما قيل عنهم، اقتداء بـ«فلاديمير نوفيكوف»، هذا العجوز الروسي الأبيض الذي تعرف عليه هشام قبل أن يختفي. فهذا الأخير بقي في مصر رغم الاضطرابات والانتفاضات، لأنه عاش الثورة في بلاده، ولن يخسر هنا أكثر مما سيخسره في موسكو إذا ركبه جنون العودة إليها. «لا امرأة، ولا شيطان» مثل روسي يفيد أنه لا وجود لأي قوة دنيوية أو خارقة قادرة على كبح هؤلاء المنتشين بانتصار ظل منتظرا منذ أن كان محمد علي باشا[1] ولي عهد ملك مصر، التي تتحدى العالم اليوم.

لم يكن عبد الناصر وضباطه الوزراء أسياد مصر فحسب، بل كانوا يحكمون أيضا خيال العالم العربي ويسكنون كوابيس الغربيين المتوجسين.

- مساء الخير!

رفع هشام عينيه. كانت ترتدي فستانا زاهيا، يصل إلى ما فوق الركبتين، كاشفا عن عنق فاتن. شعرها الذهبي يتماوج بحرية على وجهها. لا شك أن الرجال الذين شاهدوها، وهي تعبر ردهة

---

(١) يعتبر مؤسس مصر الحديثة. حكم خلال الفترة الممتدة بين ١٨٠٤ و١٨٤٣. وقد أقام إمبراطورية على الطراز النابوليوني.

المطعم، مازالوا يلتهمونها بنظراتهم، بينما زوجاتهم يبدين ذلك الشعور بالامتعاض الخاص بالإناث أثناء ظهور غريمة محتملة.

وقف. أراد أن يقبل يدها، لكنها كانت قد جلست.

قال لها:

- سعيد برؤيتك من جديد.

هزّت كتفيها.

- لم يكن عندي ما أفعله. ثم إني جائعة.

أكدت:

- أنا أجوع دائما بعد كل انفصال.

- انفصال؟

تحاشت السؤال. نادت على رئيس خدم المطعم.

- «مارغريتا». لكن إياك أن تكون مصبّرة.

استدارت نحو هشام، وسألته:

- ماذا قلت؟

- كنت تتحدثين عن انفصال.

- تماما. انفصلت عن الأخير، منذ ساعة.

- آه...

- وأي أثر لهذا الأمر فيك؟ «آه»

- هل كان علي أن أضيف شيئا؟

- كان عليك أن تسألني: «لماذا؟»

- أنا رجل متكتم.

ثم أضاف مبتسما:

- لماذا؟

- لأن الرجال جبناء. أحبهم كما أمقتهم. هل أنت متزوج؟

- لا.

- آسفة.

- معذرة؟

- آسفة لك. فالزواج هوّة وفرصة رائعة في الآن ذاته. فهو يسمح بإنجاب الأبناء. أحب الأبناء. إنه السبب الوحيد الذي سيدفعني إلى الزواج يوما ما.

ابتسم.

- إنها طريقة، مثل طرق أخرى، لرؤية الأشياء.

- هل بدأت تمتعض من طريقتي؟

استغرق بضع ثوان قبل أن يجيب:

- هل أنت حادّة على الدوام؟ أم أنك تستريحين بين الفينة والأخرى؟

- الجمعة فقط. وهو اليوم الذي لا أمارس فيه الحب.

- أخشى أنني لا أفهمك. الجمعة؟

- أنا مسلمة. والجمعة يوم أحترمه، رغم أني لست متعبدة تقية. لقد تربيت، طوال طفولتي، على الشعور بالذنب. أحبّ والدي وأسرتي، لكنهم عجنوني بقناعاتهم... اليهودية المسيحية، إن صح التعبير. كنا نمضي وقتنا في التعبير عن الندم وتقريع الذات. وقد نجحت إلى حد ما في التخلص من أغلب الأحكام المسبقة التي رسخوها فيَّ، لكن ليس من هذا الشعور بالذنب. هكذا، لا أمارس الحب يوم الجمعة. أشعر أن الله يراني.

ظن هشام أن هذه المرأة تسخر منه، أو أنها خارجة عن المألوف. جازف بالقول:

- كما تعرفين، من حقنا أن نعيش. بل من واجبنا تجاه أنفسنا أن نسعد ونستقل عن كل شيء. والشعور بالذنب مرض خطير.

تجاهلت التعليق. استغرقت في تصفح قائمة الطعام. ثم سألته:

- هل اخترت وجبتك؟ بالنسبة إلي، سأتناول المعجنات العربية.

مازحها قائلا:

- *Molto arrabiata*؟

قطبت حاجبها.

- *Arrabiata* تعني في اللغة الإيطالية...

- مغتاظة. أعرف. لست أمية. ما علاقة الأمر بذلك؟

- لا وجود لأي علاقة. مجرد لعب بالكلمات، لا يكتسي أي أثر حاسم. ألن تتناولي مقبلات؟

أجابت بالنفي.

- لكنك قلت إنك جائعة.

- تبدد جوعي منذ بضع دقائق. ماذا ستطلب؟

- صيادية.[1]

- اختيار جيد. هل أتذوقه؟ أم أنك من النوع الذي يقول: «كل شيء لي، ولا شيء للآخرين».

- كل شيء لك، يا عزيزتي...

توقف عن الكلام.

- هل يمكنني أن أتعرف على اسمك؟

- شهيدة.

- و...؟

- المالكي.

---

(١) كلمة مشتقة من كلمة «صياد». وهي عبارة عن طبق يتكون من سمك القباب المقطع إلى شرائح، والبصل المحمر، وحبات الصنوبر والرز. يقدم الكل بالمرق والكمون والحامض والملح والفلفل.

قطبت حاجبيها.

- هل أنت من أقارب الكولونيل عدنان المالكي،[1] الذي اغتيل قبل ثلاث سنوات بأوامر أمريكية؟

ردّت بالإيجاب:

- ابن عمّ بعيد.

- واقعة محزنة.

- لا جديد فيها. ألم أقل لك إن الرجال جبناء؟ والحكومات أسوأ منهم. فهي فاسدة وجبانة.

- اسمي هشام. هشام لطفي.

أشارت إلى رئيس الندل، طالبة مشروبها. استغلت الفرصة لتطلب «مارغاريتا» ثانية. كررت القول: «غير مصبرة».

- لست مصرية، قال ملاحظا. ألست لبنانية؟

- خطأ.

- أردنية؟

- سورية.

قالت ساخرة:

- ألا يمكنني القول من الآن فصاعدا إنني «مصرية»؟

- لا أفهمك.

أشعلت سيجارة قبل أن يمدّ لها ولاعة.

- كان عليك أن تفهم بالأحرى. ألم يصبح بلدك وبلدي يشكلان وطنا واحدا منذ فاتح فبراير/ شباط؟

---

(١) شخصية مهمة في حزب البعث السوري. اغتاله عسكري مأجور من الولايات المتحدة الأمريكية، بينما كان يشاهد مقابلة في كرة القدم. في تلك الفترة، كانت أمريكا تسعى إلى تشكيل حكومة مناصرة للغرب في دمشق. وكان عدنان معارضا شرسا لذلك.

- بالطبع. لكن. . .

- بفارق بسيط، وهو أنكم افترستمونا. أنتم تسودون علينا، نحن السوريين المساكين، في الوقت الحاضر.

- هي وجهة نظرك، أنا. . .

- يلعب عبد الحكيم عامر، تابع عبد الناصر، دوره كرجل نافذ بمهارة بين سحابتي حشيش. فهو يكمم أفواهنا تدريجيا، لكن على نحو أكيد.

التمعت رغبة مفاجئة على وجهها.

- لكنكم تسقطون في الفخ. سورية ليست مصر. لريّسكم ذاكرة قصيرة. ففي القرن التاسع عشر، أراد عظيمكم محمد علي أن يروضنا. لكن السحر انقلب على الساحر. سنطردكم من الباب.

- يبدو أنك نسيت أننا لسنا من سعى إلى هذه الوحدة، بل زعماؤكم. ولم يقم عبد الناصر سوى بتحمل هذا العبء.

- زعماؤنا مخبولون. لقد انخرطوا، كلٌّ لأسباب مختلفة، في هذه الوحدة ضدا على الطبيعة. إذ يرى فيها ملاك الأراضي وسيلة لتفادي الاشتراكية. وتأمل الطبقات الوسطى التحرر من تعسف الجيش المتسلط عندنا، وأنا أعترف بذلك. ويرجو المحرومون والبروليتاريا أن تخففوا عنهم حدة التفاوت الاجتماعي. ويتصور الطلبة والمثقفون البعثيون الحالمون، وعلى رأسهم عفلق، أن تكون هذه الجمهورية الخطوة الأولى نحو إعادة توحيد العالم العربي برمته.

- ها أنت ترين أن المهمة جسيمة، حيث يقتضي تحقيقها زمنا غير محدود.

- لن تتحقق! لن نصبح أبدا مستعمرة مصرية! أمامكم سنة، أو سنتان، حتى تفروا من دمشق. أما بالنسبة للعالم العربي. . . فأرجو ألا تضحكني! فهو غير موجود. وهو ليس سوى مجموعة من قبائل!

سكتت لحظة.

- وفيم يتصل بسورية، فاعلم أنه يوجد رجل، عضو في حزب البعث، لا يبدو أن أحدا انتبه إليه حتى اليوم. وقد حدث أن تعرفت عليه وناقشته، حيث يمكنني أن أؤكد لك أن نجمه سيسطع يوما ما.

قطّب هشام حاجبيه.

- ما اسمه؟

- حافظ الأسد.

- لم أسمع عنه أبدا. ما وظيفته في الحزب؟

- لا شيء حتى الآن. هو ملازم أول في القوات الجوية. ربان لامع. لم يبلغ بعد سن الثلاثين. لكن سترى...

تأمّلها باهتمام.

- غريب. أنت على اطلاع جيد بشؤون السياسة. وهو أمر نادر بالنسبة لامرأة.

نظرت إلى السماء.

- طبعا، يحق لي أن أعاملك مثل...

توقفت فجأة، ثم صححت:

- مثلما عاملتك البارحة في الجزيرة. أنت تنتمي إذاً إلى هؤلاء الرجال الذين يعتبرون النساء متخلفات، ليس بمقدورهن سوى أن يخطن ويطبخن.

أرسلت صفيرا مزعجا.

سأل بهدوء:

- ماذا تفعلين في القاهرة؟

- أدرسكم.

- وماذا أيضا؟

- سأفاجئك: أحضر كتابا حول احتلال سورية في القرن التاسع عشر على يد إبراهيم، ابن محمد علي.

شبك ذراعيه، وابتسم ابتسامة مرحة.

- حقا؟

- نعم.

- إذا لم أخطئ، فإن أغلب أرشيفات هذه الفترة محررة باللغة التركية.

- سأفاجئك ثانية. فأنا أتكلم عددا لا بأس به من اللغات... منها التركية.

هزّ رأسه، معبرا عن الإعجاب.

- أنت تمضين أيامك إذاً في «القلعة»؟

- أيام غبراء. حان الوقت كي ترتب حكومتكم الثورية الوثائق المخزنة بشكل عشوائي! إنها فوضى حقيقية.

- سأنقل الرسالة. عوّلي عليّ.

سكت بضع ثوانٍ، ثم قال:

- تعيش أسرتك في سورية، كما أتصور، أليس كذلك؟

أجابت بالنفي، لكنها لم تحدد المكان.

- وأنت؟ ماذا عن حياتك؟

- أنا ملازم أول في الجيش، وأصبح مستشارا سرّيا للرئيس؛ كلما كان رجل من طينته الصلبة في حاجة إلى استشارة.

غرزت شوكتها في العجائن. قدّم لها طبق الصيادية.

- خذي لك بعضا منها...

- بعد حين.

كان عازف البيانو قد شرع في عزف أغنية *As Time Goes by*.

بدَتْ حالمة.

- *كازابلانكا*. «بيرغمان» و«بوغارت»! يا له من ثنائي!
- إنها قصة تضحية، إن لم تخنّي الذاكرة.
- تماما. تركها ترحل مع زوجها ودفن الحب الذي يكنّ لها. يا لها من حماقة!
- أليس حبّا مبالغا فيه؟ إنها الحرب. في جميع الأحوال، لقد أنقذ حياتهما. فضلا عن ذلك، لا شيء يفيد أنه لن يعثر عليها.
- في فيلم آخر، بالطبع.

حدّقا في بعضهما لحظة، كأن الواحد منهما يحاول تفكيك شفرة الآخر.

انسرب المساء. تحدثا عن العالم، عن مصيره، ومصير الشرق الأوسط، والسياسة، بل وعن الموسيقى. تبين أن شهيدة عاشقة حقيقية لها، شغوفة بالأوبرا خاصة. بدت هادئة أكثر، عندما غادرا المائدة في نحو الساعة الواحدة صباحا.

عندما دخلا المصعد، سألها:

- متى أراك مجددا؟

ضحكت كأنه قال كلاما سخيفا.

- هل ستكون ساديا؟
- ربما...

كانا وجها لوجه.

عندما انفتحت البوابة، التصقت به. عانقته بحرارة. انفصلت عنه، ثم سبقته خارجة.

- لا ترافقني. عندي سيارة.

*

بيروت، ١٦ يوليو/ تموز ١٩٥٨

ردّ «جان فرنسوا لوفون» السيجارة التي قدّمها له الرئيس اللبناني كميل شمعون.

- أشكرك. لم أعد أدخن منذ مدة. هي مسألة اختيار.

- أنت على حق. لقد حاولت التوقف عن التدخين مرارا، دون أن أفلح في ذلك. ثمة مشاكل كثيرة، أليس كذلك؟

وافق الفرنسي دون أن تفارق عيناه الرئيس.

شعره أشيب، ذو أناقة طبيعية، ومظهر غامض مثل الممثل «جوزيف كوتن» في فيلمه «بهاء آل أمبرسن». عمره يناهز الستين.

ظل يعتبر، في هذا البلد، بطل الاستقلال عن الوصاية الفرنسية. درس هذا الماروني المسيحي القانون في باريس، قبل أن يعود إلى لبنان حيث اعتقلته قوات الاحتلال في الأيام الموالية، وسجنته في قلعة راشيا رفقة أبطال استقلاليين آخرين. لم تدم عزلته هناك أكثر من عشرة أيام. إذ أذعن الفرنسيون لإطلاق سراحه بعد حركات احتجاج قوية. حدث ذلك يوم ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٣. منذ ذلك الحين، صار اللبنانيون يعتبرون هذا التاريخ عيد استقلال لبنان.

بعد مرور ثماني سنوات، وعندما أجبر الرئيس بشارة الخوري على الاستقالة، عين البرلمان شمعون خلفا له. لكن سرعان ما توَقفت ولايته بسبب قضية قناة السويس.

راقب الرئيسُ البندولَ الموضوع أمامه. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا. وقف فجأة، وتوجه نحو نافذة. ظل جامدا في مكانه لحظة، كمن يتأهب لحركة ما، ثم عاد ليجلس أمام الدبلوماسي الفرنسي. خاطبه قائلا:

- تشرفني زيارتك، السيد «لوفون». أعرف مسيرتك والاستقامة

التي تسكنك. لكن يبدو أنك لم تفهم الوضع. اسمح لي إذاً بتلخيصه.

بسط الرئيس يديه على سطح مكتبه.

- يغرق العراق، منذ يومين، في بركة دم. إذ اغتيل الملك الشاب فيصل وجميع أفراد عائلته بمنتهى الهمجية، بينما قتل عمه عبد الإله، الوصي السابق على العرش، وأحرق في الساحة العامة. وأدرك حشد هائج الوزير الأول نوري السعيد، الذي حاول الفرار متخفيا في لباس امرأة، وأعدموه من غير محاكمة. ولقي أغلب أعضاء الحكومة المصير نفسه. وتلاشت الملكية بسبب الكراهية الفظيعة.

أراد «لوفون» الردّ على كلام الرئيس، لكن الأخير استطرد قائلا:

- مهلا، لقد أعلن الجنرال قاسم الجمهوريةَ، بعد أن استولى على السلطة، صائحا على الأثير: «لقد قتل عدو الله وسيده، وهما راقدان في الشارع». وفي القاهرة، صنيعتكم وصنيعة الإنجليز الكولونيل عبد الناصر...

قاطعه «لوفون» هذه المرة.

- صنيعتنا؟

- بالطبع، يا عزيزي. لو لم تطلق فرنسا وإنجلترا هذه الحملة العقابية، بالتحالف مع الإسرائيليين، ضد قناة السويس، لما أصبح الكولونيل عبد الناصر رمزا أبدا. ألست متفقا مع هذا الرأي؟

تابع شمعون، دون أن ينتظر الجواب:

- كان الريس أول من رحب بالانقلاب العسكري، وفعلت سورية الشيء ذاته بالطبع. وصار بلدي يواجه، منذ ثلاثة أشهر، احتجاجات متواصلة مؤيدة لعبد الناصر. وثورة بغداد هي الطريق

السالك للسوريين الذين لا ينتظرون سوى هذا الأمر ليقدموا يد العون للمتمردين المسلمين هنا في لبنان. صدقني أن المتمردين مصممون على تصفية حساباتهم مع المسيحيين المارونيين. وقد ناشدتُ الأمم المتحدة، لكن لم أتلقَّ سوى وعود مبهمة.

أخذ نفسا قصيرا، قبل أن يختم:

- تنتهي ولايتي كرئيس للدولة اللبنانية في شهر سبتمبر/ أيلول. ولا يمكنني أن أسمح باستمرار الفوضى!

- لذلك، رفعت سماعة هاتفك واتصلت بالأمريكيين طالبا النجدة.

- **بالطبع!** طالما لم تقدم الأمم المتحدة أي جواب.

- السيد الرئيس، أدرك صعوبة الوضع. لكن ألا ترى أن كل مشكلاتكم، مشكلات لبنان مصدرها عدم إنصاف الطائفة المسلمة- وهذا رأي شخصي لا يلزم فرنسا؟

قطب شمعون حاجبيه.

- أيمكنك أن تعمق الفكرة، من فضلك؟ عن أي إنصاف تتحدث؟

- بلدك بلد مركب، يتمازج فيه المارونيون، واليونانيون الأرثوذوكس، واليونان الكاثوليك، والدروز، والشيعة، والسنة، وكذلك الأرمن الأرثوذوكس. لكني آمل، السيد الرئيس، ألا تبطن لي غلاًّ بسبب هذه الصراحة؛ حيث لا يسعنا سوى القول إن السلطة تتركز أساسا في أيدي طائفة المسيحيين المارونيين، مع ما يقتضيه ذلك من رئاسة ذات صفات شبه مَلَكية. فضلا عن ذلك، لا تتجلى غلبة المارونيين على الدولة في القمة فقط، بل في جميع دواليب الجمهورية. ألا ترى أن هذه الهيمنة تصبح ثقيلة بالنسبة إلى الطوائف

الأخرى، خاصة الطائفة المسلمة؟ ألا يعني ذلك أن الدولة ليست دولتهم، رغم السنوات التي مرّت؟

- هل أنت جادّ فيما تقول، السيد «لوفون»؟ للمسلمين نصيبهم في تدبير بلدي، طالما أن الدستور المعتمد منذ ثلاثين سنة ينص بوضوح على أنه إذا كان رئيس الدولة مسيحيا، يجب أن يكون الوزير الأول مسلما! فضلا عن ذلك، تقسم جميع مقاعد البرلمان حسب الطوائف والمناطق، حيث وضع هذا النظام حتى يتقاسم مراقبةَ البلد ثلاثةُ زعماء ينحدرون من الطوائف الثلاثة ذات الأغلبية في لبنان، فيكون الرئيس مارونيا، والوزير الأول سنّيا، ورئيس البرلمان شيعيا. ومن هنا، أين ترى غياب الإنصاف؟

- أعتقد أننا نفهم بعضنا بعضا خطأ. فالحرية الاقتصادية التي امتدت خلال السنوات الأخيرة، إلى درجة الحديث عن رأسمالية متوحشة، خلفت على قارعة الطريق العديدَ من مناطق الهامش ذات الأغلبية المسلمة. والأزمة التي تواجهونها لا تختزل في المواجهة الإسلامية- المسيحية- كما يستفاد من قولك-، بل في مشكلات لم تُحَلَّ منذ استقلالكم، وهي: الطائفية وعدم الاتفاق على هوية وطنية.

انقبض وجه شمعون.

- تحليلك خاطئ، السيد «لوفون». يؤسفني أن أخبرك بذلك، لكنك لم تفهم أي شيء في بلدي.

- ربما، السيد الرئيس. لكن اسمح لي بأن أذكرك بما يلي: إنك تتحمل مصير أزيد من مائتين وخمسين ألف فلسطيني. ويخشى أن يتضاعف هذا الرقم غدا. لديك طائفة مسلمة تحلم بالاندماج في العالم العربي، وترى نفسها- خطأ أو صوابا- تتعرض للازدراء. فهي اليوم أقلية، لكنها ستصبح أغلبية غدا. هل ترى فعلا أنك قادر على تجاهل هذه المعطيات؟ فرنسا...

رفع شمعون يده.

- لحظة، من فضلك!

اندفع نحو النافذة من جديد، ولم يعد إلى مكانه هذه المرّة. قال بعد بضع دقائق:

- تعالَ! تعالَ لترى، السيد «لوفون».

أمام أنظارهما، كان أسطول ينفصل بعضه عن بعضه على المياه الساكنة.

على بعد بضعة أميال من الساحل اللبناني، رست حاملتا الطائرات «إسيكس» و«ساراتوغا»، تحملان نحو مائتي طائرة، ويحرسهما نحو أربعين مركبا.

شرعت المراكب الأولى في إنزال رجال من فرقة المارينز الثانية القادمة من مالطا و«كريت». كانت تتجه نحو المكان المسمى بـ«الشاطئ الأحمر»، الواقع قرب المطار، جنوب بيروت.

لم يكن «لوفون»، ولا الرئيس اللبناني، يسمعان الحديث الذي كان يدور بين مستحمين مذهولين وضابط أمريكي:

- من أين أتيتم هكذا؟ ولِمَ ستخوضون الحرب؟

- لا. جئنا بناء على طلب حكومتكم لحفظ السلام، قال الضابط صارخا.

(٨)

فخ الكراهية هو أنه يجعلنا نتشابك
عن قرب مع خصمنا.

ميلان كونديرا

القاهرة، ١٨ يوليو/ تموز ١٩٥٨

ابتلع زكريا محيي الدين آخر ملعقة من الكشري،[١] وحيّا ربة البيت.

- نور، تسلم يداك!

- نورتنا، يا زكريا! لقد حرصت على إعداد طبقك المفضل.

اقترح تيمور لطفي على أسماء زوجة وزير الداخلية، قائلا:

- ألا ترغبين في أن أقدم لك طبقا ثانيا؟

- لقد شبعت، شكرا يا لطفي باي.

علّق تيمور ساخرا:

- يا حبيبتي، نسيت أن لقبي الباي والباشا لم يعودا موجودين منذ زمن بعيد!

---

(١) طبق مصري يعدّ بخليط من الرز والعجائن والعدس والبصل المقلي. يزيّن بمرق الطماطم، والفلفل الأحمر حسب الاختيار. وهو طبق يباع في الشوارع أيضا.

أشار إلى زكريا بأصبعه.

- ها هو المسؤول! زوجك!

هزّ الوزير كتفيه.

- ولدت باباً، وستبقى كذلك يا أخي.

- أخبرني، قال هشام، أين وصل مشروع السدّ العالي الذي التزم به الريس منذ مدة؟ هل حقق بعض التقدم؟

تجهم وجه زكريا وعبس.

- تعرف جيدا أن المشروع يرتبط بالمال. أظن أننا سننتهي إلى القبول بالقروض السوفياتية المسبقة. لكنها ستكون محدودة وإجبارية. وعبد الناصر لم يحبهم أبدا. كان يفضل، عن بعد، أن يتعاون مع الأمريكيين.

- آه، جيد! اندهش تيمور.

- لا يفاجئني اندهاشك. قليل من الناس يعرفون أنه كان يؤيد الولايات المتحدة الأمريكية أيما تأييد عندما تولى السلطة. وهو يتحدث اللغة الإنجليزية. ويقرأ مجلاتها. ويعجب بإنجازاتها التقنية. وكان يرى أن نمط الحياة الأمريكية يعتبر الأفضل، ويؤمن بسذاجة بنزعتها المعارضة للاستعمار. ثم وهنت عزيمته من فرط الاحتكاك بهم والتفاوض مع ممثليهم، وأعياه حطّهم من قدره.

- الحط من قدره؟ صرخت نور لطفي. ماذا حدث؟

- هل ترغبين فعلا في معرفة الأمر؟ القصة طويلة، لكني أعتقد أن السياسة التي يمارسها هؤلاء الأشخاص تتحدث عن نفسها.

مال زكريا نحو المرأة، وقال:

- بعد مرور ثلاث سنوات عن ثورتنا، اتصل عبد الناصر بالبنك الدولي لإعادة البناء والتنمية، قصد الحصول على قرض. ردّ عليه

هذا الأخير بأن الانطلاق في مقاولة من هذا الحجم مستحيل دون موافقة ومساندة المساهمين الأساسيين فيه، وهما: أمريكا وإنجلترا.

ردّ تيمور هازئا:

- هكذا تطلب الذئاب علف الحَمَل!

أكّد الوزير:

- كلّف عبد الناصر حينها أحمد حسين، سفيرنا في واشنطن، بجس نبض الإدارة الأمريكية، لكن هذا الأخير وجد نفسه أمام هذا الوزير العزيز «دالز». [1] شرح له بتفصيل مدى حيوية هذا السدّ بالنسبة إلى المصريين، معربا عن أمله في الحصول على مساعدة من الولايات المتحدة. كان «دالز» يصغي إليه، أو يتظاهر بالإنصات، لأن النقاش طال كثيرا. وفي النهاية، أبدى الثنائي الأمريكي- الإنجليزي استعداده لمنح مصر مساعدة بقيمة ٧٠ مليون دولار، مبلغ سيسمح بالكاد بتغطية نفقات العمل خلال العام الأول. كان الأمر غير مقبول!

- لماذا؟ تساءلت أسماء، زوجة الوزير.

أجاب تيمور:

- يا بنتي، يبدو أنك لست خبيرة بعالم المال! لأن الالتزام بمشروع طيلة عشر سنوات على الأقل، باحتياطي ميزانية سنة واحدة، يمثل مجازفة كبيرة. فإذا انتابت هؤلاء الممولين أدنى نوبة غضب، ستجد مصر نفسها محشورة أسفل كتلة من الصخور.

- تماما، اعترف زكريا. هكذا، ستسير الأمور بشكل سيئ.

---

(١) وزير الخارجية الأمريكية بين ٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٣ و٢٢ أبريل/ نيسان ١٩٥٩. وهو شقيق «آلن ويلش دالز»، أول مدير مدني لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

سأعفيك من التفاصيل. في النهاية، وبعد محادثات عديدة طوال أسابيع مع «يوجين بلاك»، مندوب البنك الدولي لإعادة البناء والتنمية، سُوّيت نقاط الخلاف، وبدا «بلاك» مستعدا لتوقيع إعلان التزام، بدل رسالة نوايا. بدأ الجميع يتنفس الصعداء داخل مكاتب الرئاسة. للأسف، كان الأمر يعتمد على مزاج *السيد* «دالز».

شرب زكريا كأسا من الماء.

- في أواخر مايو/ أيار، بينما كان سفيرنا يستعد للعودة إلى مصر لمناقشة الوضع مع عبد الناصر، استدعاه «هربرت هوفر جونيور»، كاتب الدولة المساعد، عشية مغادرة واشنطن. أخبره هذا الجنتلمان أنه يحمل إليه رسالة من «دالز» مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية تشترط شرطين لتمويل مشروع السدّ العالي. يقتضي الشرط الأول أن تلتزم مصر رسميا بالامتناع نهائيا عن شراء الأسلحة من الاتحاد السوفياتي. ويفيد الثاني أن يستعمل عبد الناصر نفوذه في الشرق الأوسط لإقناع الدول العربية بعقد السلام مع إسرائيل.

- إنه ابتزاز، زمجرت نور.

- ليس هناك كلمة أخرى أبلغ. ظل أحمد حسين صامتا. في نظره، لا يمكن أن يحدث هذا الانقلاب إلا نتيجة نفوذ اللوبي اليهودي على الشيوخ والنواب الأمريكيين. ما كاد يصل إلى القاهرة، في حالة مهزوزة بالأحرى، حتى التحق بالريس في مدينة برج العرب الشاطئية الصغيرة، التي تقع على بعد خمسين كيلومترا من الإسكندرية. أطلعه حسين على شَرْطي «دالز». قال له عبد الناصر: «هل ترغب في أن أخبرك بجوهر فكرتي، يا أحمد؟ أنا متأكد أنه حتى وإن عدت إلى هناك وقبلت بشروطهم كلها، فإنهم لن يمولوا السدّ مع ذلك.»

- هل أنت جادّ؟ هل قال هذا؟ هتف هشام.

- يمكنك أن تطرح السؤال على حسين، سيؤكد لك ذلك. في الوقت الراهن، اعتقد صديقنا أن عبد الناصر فقد عقله. لكن الريس قال مشددا: «أصغ إليّ جيدا، عد إلى أمريكا. وقل لـ«دالز» إننا نوافق على جميع النقاط. هل تسمعني؟ جميع النقاط.» اندهش حسين: «ألا ترغب في مناقشة أي شرط من الشرطين؟» «لا، ولا واحد منهما. اذهب فحسب وقل لهم إننا قبلنا بكل شيء». انتهز حسين، الذي أذعن للأمر، فرصة توقف الطائرة في لندن، أثناء العودة إلى واشنطن، ليدلي بتصريح للصحافة. ومثلما طلب عبد الناصر، كشف أن مصر تذعن لكل الشروط الأمريكية.

- لا بد أن ذلك التصريح كان له أثر مثل الرعد، علّق تيمور.

- خاصة في البيت الأبيض! سرعان ما أدرك «فوستر دالز» اللعبة، بعدما علم بالتصريح. كان يعرف أن عبد الناصر لاعب نرد جيد. وقد خبر ذلك للتو، حيث وضعه خصمه فجأة في موضع حرج جدا. ومهما يكن الأمر، فقد عثر على الردّ. ففي الساعات الموالية، وبينما دخل سفيرنا مكتب وزير الخارجية، سارع ناطقه الرسمي إلى تقديم إعلان رسمي للصحافيين الذين استدعوا على عجل: «قررت أمريكا ألا تساهم في تمويل السدّ العالي.»

ندت عن نور صرخة امتعاض.

- مستحيل!

- غير أنها الحقيقة، أكد زكريا. في مكتب «دالز»، تسلم حسين التعيس نسخة من الإعلان. تتصورون جيدا أن أقوال عبد الناصر ترددت في ذهنه فورا: «أنا متأكد أنه حتى وإن عدت إلى هناك وقبلت بشروطهم كلها، فإنهم لن يمولوا السدّ مع ذلك.»

- وكيف كان ردّه؟ سأل تيمور.

- تمتم قائلا: «هلا أعطيتموني أسباب هذا الانقلاب المفاجئ على الأقل؟» أجابه الأمريكي: «بالطبع، لقد قدرنا أنكم لن تسددوا القرض أبدا.» بل سمح لنفسه بأن أضاف: «فضلا عن ذلك، نحن مقتنعون أن من يساعد على بناء هذا السدّ سيجرّ على نفسه كراهية الشعب المصري، لأن العبء سيكون ثقيلا بالنسبة إلى هذا الأخير. ولا نريد أن تكرهنا مصر. لا، السيد السفير. نفضل أن نترك هذا الامتياز للاتحاد السوفياتي.»

تنهّد هشام.

- الأمريكيون... مرة أخرى، واهمون في الرؤى أو هم أصحاب خيالات تثير الشفقة.

- ليس الأمر جديدا، أكّد زكريا. لقد وجهوا لنا الضربة ذاتها، عندما التمسنا منهم شراء الأسلحة. وهنا أيضا، وضعوا شروطا معجزة. أسلحة، نعم، لكن شريطة أن تنضم مصر إلى معاهدة بغداد.

- معاهدة بغداد؟ سأل تيمور. ألا يتعلق الأمر باتفاق هذا الحلف الذي يربط إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية بالعراق وتركيا قصد إقامة قواعد عسكرية فيهما، تكمن غايتها الوحيدة في خلق ضغط استراتيجي على الاتحاد السوفياتي؟

- أنت على علم بالأمور. بالطبع، رفض عبد الناصر رفضا باتا التوقيع على هذه الوثيقة. فهي تعارض فلسفته القاضية بعدم الانحياز. بل شرح الأمر بوضوح للأمريكيين: «ضغط على الاتحاد السوفياتي؟ لكن لم تكن لنا مشاكل مع الروس أبدا. ولا يمكن أن نحكي الشيء الكثير عن مشاكلنا مع إسرائيل. هل تتصورون أنني سأعلن لشعبي أني أتجاهل قاتلا مسلحا بمسدس يكمن على بعد تسعين كيلومترا من بيتي، لأنشغل بمن يشهر خنجرا على بعد ٧٥٠٠ كيلومترا من حدودنا؟»

تنهد زكريا وختم قائلا :

- وبعد هذا، استاء العالم عندما رآنا نؤمم القناة ونصافح اليد التي بسطها إلينا السوفياتيون. فالغربيون هم الذين رمونا بين أحضان موسكو! وها هم يتذمرون الآن! من يتحمل الخطأ؟ قل لي؟

اخترق ملاك صالة الأكل. كان يحمل النجمة الحمراء على جناحيه.

*

الأردن، مطار عمّان، ١٩ يوليو/ تموز ١٩٥٨

كانت ريح حارقة تهب على بدَن طائرة «بوينغ ٧٠٧» التي تحمل ألوان الشركة البريطانية «بواك» (BOAC).

كان زيد وحسين يسيران، برأسيهما المنغرسين بين الأكتاف وملامحهما المنقبضة، نحو الطائرة الرابضة على المدرج الإسفلتي. أقسما أن الشيطان وخدامه يتابعونهما بالنظر. لم يكن الشيطان بعيدا عنهما حينها، ولا خدامه أيضا. ففي كل مكان تقريبا، يظهر عشرات الجنود مدججين بالسلاح. كلّهم من الجيش البريطاني.

- لا أفهم، همس زيد. ماذا يفعل الإنجليز هنا؟ لماذا هذا الانتشار؟ كنت أعتقد أن الأردن لم يعد مستعمرة إنجليزية منذ زمن طويل!

- ذلك راجع إلى أن فرائص الملك الصغير ترتعد خوفا. فمنذ سنة، نجا في اللحظة الأخيرة من انقلاب عسكري حرض عليه رئيس القيادة العامة. ثم، هناك الوحدة بين مصر وسورية التي ترعبه، لاقتناعه بأنها ستنتهي بإسقاطه؛ وأخيرا، هناك أحداث الأسبوع الماضي في العراق التي ذبح خلالها ابن عمّه فيصل. هكذا، اتصل

بأصدقائه الإنجليز القدامى طالبا النجدة. لكن الأمريكيين، الذين لا يظهرون كثيرا، يلتزمون الحيطة أيضا.

- ليمت! دمدم حسين. لقد باع الملك نفسه للصهاينة. أسلافه فعلوا الأمر ذاته، حيث تفاوض جدّه الأمير عبد الله، عشية حرب ١٩٤٨، مع «غولدا ماير» التي زارته متنكرة في لباس عربي! والعالم كلّه بات يعرف أن الأمير والإسرائيلية وقّعا اتفاقا سرّيا غير مكتوب، يقضي بتقسيم فلسطين الانتداب بين «اليشوف»[(١)] ومملكة الأردن. إنه اتفاق تغذّيه الرغبة في التوسع والأحقاد الشخصية. إذ كان يحلم بأردن كبير يضم الضفة الغربية وقطاع غزة، في مقابل سورية كبرى.

- في كل الأحوال، لا يمكنه أن يسبب أي ضرر من حيث هو الآن. لا بد أن الديدان قد أكلت جثته.[(٢)]

ندت عن حسين حركة تنم عن الاحتقار، وشرع يعبر الممر إلى الطائرة. ففي غضون ساعتين، سيحلان بالكويت. في ساعتين، ستبدأ المعركة الحقيقية التي ستقود إلى تحرير بلدهما فلسطين.

*

دمشق، ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٥٨

سلكت السيارة شارع سعد الله الجابري المؤدي إلى نهاية السكة الحديدية في محطة الحجاز. بعد أن وصلت السيارة أمام المحطة،

---

(١) مصطلح يقصد به اليهود الذين هاجروا ابتداء من ثمانينات القرن التاسع عشر في إطار مشروع صهيوني. وتعني التسمية الكاملة *Hayishouv Hayehoudi bèEretz Yisraël* «المستوطنات اليهودية في أرض إسرائيل».

(٢) اغتيل عبد الله في القدس يوم ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٥١، على يد شاب قومي عربي عمره واحد وعشرين عاما، بناء على أمر محتمل أصدره المفتي العام الذي كان يلومه على سياسة «تعاونه» مع الدول العبرية.

انعطفت يمينا وتوقفت أمام مدخل قصر الشام.

عبر «جان فرنسوا لوفون» بهو الفندق، واتجه نحو الحانة الموجودة على اليمين. كان هنالك رجل جالس في زاوية منها، مستغرقا في القراءة. رجل أربعيني، قامته نحيفة وجامدة، ملامحه منقوشة، وأنفه معقوف. يعكس وجهه مزاجا مستبدا. لكن وداعة نظرته المدهشة تكذب صرامته الفكرية المتصلبة. لم يكن سوى ميشيل عفلق. تقدم الفرنسي نحوه.

- صباح الخير، بادره بالكلام وهو يمد يده للسوري.

رفع عينيه، فحص الدبلوماسي، وردّ التحية بحرارة.

- مرحبا بك في دمشق، السيد «لوفون». لقد سمعت الكثير من الأحاديث عنك. اجلس من فضلك.

تعالى من الشارع ضجيج، بدأ يتضخم حتى صار يصم الآذان. كان صادرا عن حشد من متظاهرين يمجدون السلطة ويطالبون بتوحيد بلادهم بمصر.

ابتسم عفلق.

- ما رأيك؟

- هل أصدقك القول؟ الحشد متقلب جدا! فهو مستعد دائما لإحراق ما أعجبه البارحة. فها هو، اليوم، يظهر فرحا محموما. لكن غدا؟ ماذا سيفعل عندما يصحو من سكرته؟

- تحليلك خاطئ. أنت تخلط بين الحشد والشعب. فهما مفهومان مختلفان.

- هل الفرق كبير جدا؟ ردّ «لوفون».

- إنه جوهري! الحشد جمهرة من الأفراد تجمعهم ظروف معينة. أما الشعب، فكيان دائم يصوغه التاريخ. وبخلاف الحشد، يدرك الشعب إرادته. لكنه لا يعرف كيفية بلوغها. لذلك فهو في

حاجة إلى قادة ينصاعون له بشكل أعمى، طالما ينصاع هو لهم. لكن ينقلب عليهم عندما يحسبون أنفسهم أسيادا، لا مرشدين، ويخونون تطلعاته، سواء بالجشع أو بالطموح الشخصي. يحرق من كان يهيم به إعجابا. فالشعب لا يفرز قادة حتى يغتنوا أو يتلفعوا بمجد ما، ناهيك عن أن يقودوه إلى الكارثة، بل ليساعدوه على الولوج إلى حياة أفضل. صدقني أنه لن يتخلى عن هؤلاء أبدا.

استغرق ميشيل عفلق في لحظة تأمل طويلة، كأنه تاه في أفكاره. ركز نظراته على الملف الموضوع على الأريكة أمامه. ربما كان يتساءل عمّا إذا كان يجدر به الحوار مع رجل يبدو جاهلا بهذه المعطيات الجوهرية.

استأنف كلامه بنبرة صمّاء:

- ما يجري اليوم، ليس وليد صدفة. نحن أمام بدايات عواصف لا تتصور أهميتها. فمنذ نحو اثنتي عشرة سنة، أسست رفقة بعض الرفاق الحزب الاشتراكي العربي. لاحظ جيدا أنني أقول «العربي»، وليس «السوري»، لأننا اعتبرنا منذ الوهلة الأولى أنه يجب أن يشمل جميع البلدان العربية، ولا يقتصر على بلد واحد. لقد دقّت الساعة التي سيحدث فيها الأمر ذاته في البلدان الأخرى. في ذلك اليوم، لن تعود الوحدة العربية مجزأة، لأنها ستكون قد تحققت في الأذهان والعقول.

جاء ساعي بريد يحمل برقية سلمها لعفلق. قرأها هذا الأخير بانتباه، كأنه يتشربها، قبل أن يضعها بروية فوق الطاولة.

هزّ رأسه ونظر إلى «لوفون».

- لكني أتحدث وأتحدث.. أتصور أن فرنسا يجب أن تنشغل بما يجري هنا. جئت تستعلم عن رؤيتنا إلى المستقبل، أليس كذلك؟

- لن تعلم أي جديد من قولي إن هذه الوحدة بين بلدك ومصر

تقلق بلدي والعالم الغربي معا. يبدو أنكم تسيئون إلى الشيوعية- وهي ما دفعكم إلى أحضان مصر- لكن يبدو أنكم لم تعودوا تسعون إلى الاقتراب منا، من الغرب.

استغرق عفلق بضع ثوان قبل أن يجيب.

- ألا ترى، السيد «لوفون»، أنني أطلعك على عمق أفكاري؟ فالشيوعية في تراجع منذ سنة ١٩٤٠. لقد تجاوزت أوجها. وهي تتغذى على زخمها، حيث أفرغت من مادتها الثورية...

- اسمح لي، قاطعه «جان فرنسوا»، في نظري، فهي لم تتوقف عن التقدم. وموقعها في العالم أقوى بكثير مما كانت عليه قبل الحرب.

- على الخارطة، ربما، لكن ليس في العقول. فهي تدين بالفضل، في نجاحاتها، إلى قوتها العسكرية، ونموها الاقتصادي، كما يمكن أن تنتصر عوامل أخرى مثل الرأسمالية الأمريكية. لكن صدقني أنه سيأتي اليوم الذي سينتهي فيه هذان البلدان إلى الفشل، على الأقل فيما يتعلق بمستوى عيشهما المادي. آه! أتحاشى الاستخفاف بالشيوعية السوفياتية بوصفها حركة تاريخية. غير أنها أصيبت بعاهات جذرية، أكاد أقول إنها خِلْقية. لهذا السبب نرفضها في سورية وخارجها.

وصلت برقية جديدة. توقفا مجددا. ظل «لوفون» يتطلع إلى شفتي مخاطبه. استأنف عفلق كلامه:

- توجد نقطة أخرى، بناء عليها يمكن أن نصطف مع موسكو. لا نملك إلا الأممية البروليتارية. نحن نسعى إلى الارتقاء بالإنسان إلى مرتبة عليا من كرامته. ولن تتحقق هذه الغاية سوى داخل إطار وطني. إذ لا يحقق الإنسان ذاته كلية إلا داخل وطنه. فالوطن هو المسرح الذي على ركحه يلعب الإنسان مسرحية مصيره الفردي.

احذفوا المسرح، وسترون أنه لن تكون هناك أي مسرحية. فجأة، ينهار الإنسان، عاريا من معناه.

تنفس ملء رئتيه، كأنه كان يختنق.

- هناك أخيرا خاصية ثالثة في الشيوعية التي لن نستطيع أبدا الانخراط فيها. لم يرد ماركس أن يرى في الأخلاق والدين إلا انعكاسات بنية اقتصادية واجتماعية، «بنية فوقية،» كما يقول. والحال أن الأخلاق والدين تمثل قيما عميقة، دائمة، وأبدية. لقد تحمل العالم العربي كثيرا من التقلبات. وتبنى مختلف الأشكال الاجتماعية، لكنه حافظ على الأخلاق نفسها والدين نفسه. ألا يكمن الدليل في أن الدين ليس «ظاهرة عرضية»، كما يقال، بل يبقى مستقلا عن التطور الاقتصادي؟

تساءل «جان فرنسوا» قائلا:

- هل نخلص إلى أن الدين ليس سوى ركام من التصورات اللاعقلانية المسبقة؟

- لا. فأنا مسيحي، لكن لو كنت مسلما، سأستعمل المفردات ذاتها. أن تزعم أن الإنسان لا يمكنه أن يؤمن بالله دون التنازل عن كرامته هو زعم سخيف. إننا نعيش في عالم مخلوق.

توقف، ثم قال بنبرة صارمة:

- جوابا على سؤالك المتعلق باختيارنا الاصطفاف إلى جانب الشرق أو الغرب، أقول إن الوحدة التي نرغب في تحقيقها تعني نهاية جميع التدخلات الأجنبية. الرأسمالية والشيوعية معا. هل رأيي واضح؟

وصلت رسالة أخرى، تحمل طابعا رسميا. فضّها عفلق، وأخرج مذكرة، تفحصها بعينيه، مقطّبا حاجبيه.

قال موجها كلامه للفرنسي، برباطة جأش مقصودة:

- المعذرة. يطلب مني السيد الحوراني أن أذهب إلى القصر على وجه السرعة. يجب أن أنصرف.

صافح «جان فرنسوا» بسرعة. جمع الوثائق الموضوعة على الطاولة. رتبها في حقيبته، وغادر الفندق بسرعة البرق.

في الطائرة التي أقلته إلى باريس خلال الساعات الموالية واليوم الموالي، ظل «لوفون» يردد في ذهنه السؤال نفسه: أي خبر مفاجئ هذا الذي أوقف حوارهما فجأة؟

(٩)

حيث يسود الحب، لا يخيّم الظلام.

مجهول

حيفا، ٢٥ يوليو/ تموز ١٩٥٨

في سنّ الثلاثين، صار كريم شهيد أشبه بوالده مراد تماما. غريب ذاك التحول الذي يجريه الزمن دون علم البشر. لقد ظل منذ زمن طويل يشبه والدته منى خصوصا.

جلس في شرفة بيته. كان يدخن نرجيلته بشكل آلي، وهو يتأمل البحر. بينما كانت ليلى، ببطنها البارز، تنهي حياكة قماش صوفي صغير.

كان سليمان، الجالس بينهما، يتابعها بشغف، وهو يرشف عصير ليمون.

- يا لها من مثابرة! هتف متعجبا في النهاية. في الأسبوع الماضي، طلبت ملابس رضع. ماذا ستطلبين غدا؟

ردّت عليه ليلى بابتسامة طفولية:

- قبعات.

- عمي العزيز، قال كريم، هل نسيت أنها ستنجب طفلا ثالثا بعد شهر؟

- يا له من سؤال! هل اخترت له اسما أم ليس بعد؟
- إذا كانت طفلة، سيكون اسمها منيرة. وإذا كان طفلا . . .
- سيكون اسمه عمر!
- المنيرة أو العمر. اسمانِ جميلان، اعترف سليمان.
أضاف قائلا، كأنه كان يفكر بصوت مرتفع:
- أنتما معا تملكان الشجاعة على كل حال.
- الشجاعة؟ اندهش كريم.
- شجاعة إنجابِ طفل آخر فوق أرض مصادرة، ومعرفة أنه سيحيا الإهانة والاحتقار، مثل شقيقيه الأكبرين مبروك وفيروز. يا لها من شجاعة!
احتج كريم قائلا:
- أنت مخطئ. لن يحيوا الإهانة، ولا الاحتقار. ستتحرر فلسطين قبل أن يصلوا السنّ التي سيقاسون فيها عذابات الإهانة أو الاحتقار. سترى!
- إنه على حقّ، وافقت ليلى. لم تذهب مذبحة والديّ في دير ياسين سدى. لن نترك الصهاينة ينعمون بالاستقرار. سنطردهم.
أشارت إلى البحر الأبيض المتوسط:
- سيعودون من حيث أتوا. غدا، يوما ما، سيرحلون! هل فهمت، يا سليمان؟
سألته بعد ذلك:
- هل سبق أن اخترقت شظية يدك؟ نعم، بلا شك. لن تفلت من ذلك ما دمت تعمل نجارا. أنت تعرف، إذا، ما يجري في تلك اللحظة: تتطاير شظية خشبية، فتنغرز في لحمك الذي يصارع من أجل أن يلفظها. هكذا هي إسرائيل، فهي شظية في الجسد العربي.
التفت سليمان، وأخذ ينظر إلى الأفق البعيد.

- أنت على صواب ربما، يا ليلى. لكن المشكلة تكمن في أن اللحم وحده عاجز في هذه المعركة. على الإنسان أن يتدخل لنجدته.

جال ببصره في محيطه.

- هل ترى هذا الرجل؟

- نعم، أكد كريم. إنه موجود. أنت على علم بالتأكيد بما يجري في الكويت. لقد أسس شخص يدعى عرفات منظمة اسمها «فتح». ولن يفوتك أيضا أن حسين، ابن أخي، ابن سامية، سافر إلى هناك للالتحاق بالمنظمة. لن تبقى الأمور على حالها. كن على يقين من ذلك.

قال سفيان بصوت أجشّ:

- من فمك إلى أبواب السماء، يا ابن أخي. أرجو من الله أن تكون على حق. في الوقت الراهن، يجب أن أنصرف. موعدنا...

قبّل ليلى بمحبة، وعانق كريم.

عندما غادر، نقل انتباهه إلى الأمواج، وتأمل وضعها بوجوم، وعيناه على الأفق حيث يمكن أن تظهر سفن حربية في أي لحظة.

*

القاهرة، ٣٠ يوليو/ تموز ١٩٥٨

تبدو قلعة صلاح الدين، التي تطل على القاهرة، أشبه بباخرة ضخمة سابحة في بحر من الرمال والأحجار. كانت الحرارة متوهجة، إلى درجة تجعل المرء يغمض عينيه.

تاه هشام لطفي داخل القلعة، متجاوزا باب العزب حيث حوصر خمسمائة مملوك يوم فاتح مايو/ أيار ١٨١١، وضربت أعناقهم بأمر من محمد علي باشا. بعد بضع دقائق، دخل مكتب الأرشيفات الوطنية.

«*أنا سخيف، ستسخر مني عندما تراني*،» قال في قرارة نفسه لحظة دفع الباب. لكن تساءل في أعماقه: ما أهمية ذلك؟ منذ تلك السهرة في فندق «سيميراميس،» لم تغادره صورتها، حيث ظلت تستبد به. غير أن هذه المرأة كانت متعجرفة، تستعمل لغة حوذي، مع أنها تبدو متمردة. فإذا ولدت بينهما قصة ما، ستكون نارية حتما. وهشام ليس رجلا خنوعا، وهي ليست امرأة تقبل الخضوع. سيكون الجحيم إذاً.

بينما كان يعبر دهليزا طويلا ضعيف الإضاءة تنبعث منه رائحة نتنة، شعر بمذاق القبلة العابرة التي تبادلاها في المصعد ثانية على شفتيه. متعجرفة، لكن كم هي غامضة أيضا!

سمع صوتا يناديه:

- رايح فين يا باي؟

اقترب منه رجل خمسيني، يرتدي لباسا ضيقا جدا، حتى إن خياطته قد تنفتق إذا عطس.

- أبحث عن امرأة، صديقة.

ابتسم الرجل.

- نحن جميعا نبحث عن امرأة تكون صديقتنا. في أي قسم تعمل؟

- تنجز أبحاثا حول محمد علي باشا. وهي سورية.

شعّ وجه الموظف.

- آه! أفهم!

علّق بخبث:

- امرأة جميلة.

لم يحبذ هشام هذه الملاحظة.

- هل هي هنا؟

- نعم، يا باي. لقد وصلت، مثل كل صباح، منذ افتتاح المكاتب.

- أين يمكن أن أجدها؟

- اتبعني.

رأى الرجل في تقديم نفسه أمرا مفيدا:

- أدعى عبد الوهاب، مثل المطرب المعروف. أعزف على العود مثله. وقد ولدنا في اليوم نفسه من العام نفسه. وحدهما اسمانا يختلفان. اسمي مصطفى.

- جيد.

أمام لامبالاته، أظهر الرجل سيماء صارمة، وكرر القول:

- اتبعني.

لم تكن شهيدة مخطئة حينما تحدثت عن «الأيام الغبراء». فالغبار منتشر في كل مكان، ومتراكم في طبقات. وبقدر ما كان هشام يستكشف قاعات القراءة، كان يزداد دهشة. ثمة أجزاء من الجدران مرصوفة برفوف آيلة للانهيار تحت ثقل الكتب. هنا صناديق مشقوقة، وهناك أكوام ملفات متراكمة بين المكاتب في فوضى رهيبة.

أخيرا، وصلا إلى عتبة قاعة واسعة، على طرفها ترتسم نوافذ ذات زجاج مكسور.

كانت شهيدة هناك، منكبة على وثيقة، غارقة في القراءة. لم تنتبه إليه إلا حينما قال: «صباح النور.» حينها رفعت رأسها. سرعان ما أشرق وجهها بابتسامة. هل كان ذلك بفعل الرغبة في رؤيته؟ لكنها خيبت أمله، حينما صرخت مثل طفل تلقى هدية غير متوقعة:

عنه.

- آه...

- التاريخ الحقيقي لميلاد الباشا.

- محمد علي، كما أفترض.

قالت، متأججة بوقع المعلومة:

- ظل يؤكد لمحيطه أنه رأى النور سنة ١٧٦٩. وأغلب سيره تضفي المصداقية على هذا البوح. والحال أنه خاطئ!

- خاطئ؟

- تماما. فهو لم يولد سنة ١٧٦٩! هراء!

كتف يديه، تعبيرا عن الحيرة.

أضافت بنبرة تفيض حماسا:

- في الحقيقة، التاريخ الوحيد الجدير بالمصداقية هو ذاك الذي اكتشفته للتو. انظر إلى هذه الوثيقة...

وضعت سبابتها على صورة وسام شاحبة.

- صيغ هذا الوسام سنة ١٨٤٧، تخليدا لبناء السد على الدلتا شمال القاهرة. يمكن أن نقرأ فيه...

وضعت يدها على كتف هشام، وأمرته قائلة:

- اقرأ!

غمغم:

- «محمد علي، ولد في كافالا سنة ١١٨٤ للهجرة.»

- أي الموافق لما بين ٢٧ أبريل/ نيسان ١٧٧٠ و١٥ أبريل/ نيسان ١٧٧١!

- لا أفهم. ما الذي يغيره هذا الأمر؟

- أنت بطيء الفهم، يا صديقي! كيف «ما الذي يغيره هذا الأمر»؟ نحن نعيش التاريخ، ولسنا في فيلم مصري رفقة تحية كاريوكا![1] لقد كذب محمد علي.

- لماذا كذب؟

وضعت يديها على وركيها، ثم نظرت إليه بازدراء، قائلة:

- كذبة غبية لأنه أراد أن يظهر تبجيلا حقيقيا للعريف الكورسيكي الصغير «نابليون بونابرت».

- ثم...؟

تأففت.

- أنت بطيء الفهم فعلا! محمد علي هو ابن دركي صغير، وهو نفسه تاجر تبغ بسيط. في رأيه، كان من الضروري الارتقاء بأصوله المتواضعة عبر تفصيل ساطع من شأنه أن يثير فضول الناس، وهو تاريخ ١٧٦٩. بالطبع، هذا التاريخ لا يعني لك شيئا.

اعترف بجهله.

- إنه تاريخ ميلاد معبوده! «بونابرت»!

ثم ختمت قائلة:

- ومن سخرية القدر أنه نفس تاريخ ميلاد «ويلنتون».

- وأنت تظنين أنه اكتشاف جوهري؟

- إنه أمر جليّ، طالما يضع كل الكتابات المخصصة لسيد مصر السابق موضوع سؤال. يجب تصحيح كل الموسوعات وكتب التاريخ.

ضربت بكفّها صورة الميدالية.

---

(١) نجمة من نجمات الرقص الشرقي. كانت أيضا ممثلة سينمائية، حيث شاركت في أكثر من مائة وعشرين فيلما.

- الحجة هنا!

- من صاغوها أخطأوا أيضا.

- تظنني حمقاء أما ماذا؟ لم أطمئن إلى هذه المعلومة، بالطبع. استخرجت ملفًا مليئا برسائل، وأشهرته في وجهه.

- في سنة ١٩٤٩، عندما عزم الملك فاروق على الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاة جدّه ذائع الصيت، عكف خبراء تلك الحقبة على هذه المهمة بغية تحديد تاريخ ميلاده بشكل أدقّ. إذ يضمّ هذا الملفّ مجموع الرسائل التي تبادلها القصر ومكتب الأرشيفات. كانت الخلاصة نهائية؛ ذلك أن التاريخ الأقرب، حسب رأيهم، هو عام ١٧٧٠ بالطبع، وليس ١٧٦٩.

فجأة، تساءلت كأنها أدركت وجوده للتو:

- ماذا تفعل هنا؟

- أبحث عنك.

ابتسمت.

- مازوشي، همم؟

- بلا شك.

رمته بنظرة حنون مفاجئة.

- حسنا فعلت. كنت على وشك الذهاب إلى عبد الناصر قصد الحصول على عنوانك.

تأبطت ذراعه.

- أموت جوعا. هل ستدعوني إلى الغذاء.

لم يمنع نفسه من الضحك.

- قطيعة أخرى؟

- لا. ليس هذه المرّة. إنني جائعة فعلا هذه المرّة.

- يوجد مطعم، أو بالأحرى محلّ أكل حقير، هنا داخل القلعة. الأكل فيه متوسط الجودة، لكن المنظر رائع.

- لست متطلبة. لنختر المنظر...

*

لم يكن في القاعة المفتوحة سوى بعض السياح الذين جازفوا بالجلوس تحت شمس حارقة.

طلبا معا مازة. طلبت جعة «ستيلا». أما هو، فطلب قنينة ماء معدني.

التزمت الصمت لحظة، تتأمل القاهرة التي تمتد أمام أقدامهما، والأهرام التي تظهر منفصلة في الأفق خلف الضباب.

علّقت فجأة قائلة:

- يمكن أن تجعلوا من هذه المدينة الأجمل في العالم، ومن هذا البلد منجم ذهب.

- إنها الغاية التي نسعى إليها ونأمل تحقيقها. وإلا لِمَ ستصلح الثورة؟

- لم أعد أذكر من قال إن «الثورة تفعل في يومين عمل مائة سنة، وتفقد في عامين عمل خمسة قرون.» احترسوا، حيث لا يكفي أن تأخذوا من الأغنياء لتعطوا للفقراء. لقد دفعتم الإنتلجنسيا إلى الهروب، لكنكم لم تعملوا على تعويضها. للأسف.

- اتركوا لنا الوقت. في سورية، وحسبما أعرف، لم تنجحوا في أي شيء حتى الآن. فإلى اليوم، لم تشهدوا سوى الانقلابات العسكرية.

ثم تساءل فجأة:

- لماذا قلت، مساء عشائنا، إن الجمهورية العربية الموحدة لن تدوم؟

- لأنني أعرف الوضع السياسي في بلدي. في الوقت الراهن، توجد انشقاقات خطيرة في حزب البعث، حيث يتواجه فصيلان فيما بينهما. الأول مؤيد لعبد الناصر، وهو يضم خصوصا الفئات الاجتماعية المهمشة من المؤسسين الإيديولوجيين البعثيين؛ والثاني معارض له، ويقوده الفرع البعثي اللبناني وفصيل أكرم الحوراني، رئيس البرلمان حاليا. عاجلا أو آجلا، سيحمى الوطيس بينهما.

تناولت كأس الجعة، ورفعته. تلألأ النور على واجهته. ذكرته قائلة:

- حدثتك عن رجل أعرفه جيدا...

- طيار القتال؟ الأسد؟

- لك ذاكرة جيدة. إنها نقطة جيدة. أكره الرجال الذين لا يتذكرون، والنساء أيضا. نعم. حافظ الأسد. تصور أنه يرابط بالقاهرة منذ يومين. رأيته مجددا، وسأفشي لك سرا: إنه يعمل في اللحظة الراهنة، رفقة ضباط آخرين، على إنهاء هذه الوحدة.

- ليس بعثيا إذا؟

- إنه كذلك. بل إنه يؤيد فكرة الوحدة العربية، لكنه يرفض الهيمنة التي يمارسها نظامكم على سورية.

باعد هشام بين ذراعيه.

- سنرى ذلك جيدا. إذا أرادت سورية أن تنهي هذه الوحدة، ستنهيها.

- معقول. لا يجبر زوجان على العيش المشترك، إذا كان أحدهما تعيسا، من حقه أن يرحل.

- لكني أعرف كثيرين ظلوا يعيشون مكرهين ومجبرين.

- مجبرون بماذا؟

- بالأطفال... المصالح... لا أدري!

- لن تكون تلك حالتي. عندما أصبح تعيسة، سأنصرف. لا أحتمل المهانة.

- حتى وإن كان لك أطفال؟

- بالطبع، لأن تربية الأبناء في جو مسموم هو الوسيلة المثلى التي تجعلهم تعساء. لقد أمضى والداي حياتهما يمزقان بعضهما، فافتقدت إلى الرأفة.

باعدت شهيدة بين يديها.

- انظر إلى النتيجة...

- لأنك لا تحبين نفسك.

- هل تملك وصفة؟

- أعتقد ذلك. يكفي أن تحبي، لكن دون إلحاح. فالمتطلبات قاتلة. والعشاق غالبا ما يطلبون الكثير من بعضهم بعض. في الحقيقة، إنهم لا يحبون إلا الانعكاس الذي تثيره نظرة من يجلس أمامهم، ويفتقدون، خصوصا، إلى الصداقة. الصداقة مسألة جوهرية.

انفجرت ضاحكة.

- ما موقع الصداقة هنا؟ هذان الشعوران يستبعد أحدهما الثاني.

- أنت مخطئة. تعرفين هذه المقولة العربية بلا شك: «إذا عرج صديقك برجله اليمنى، فاعرج باليسرى، حتى تحافظا على توازنكما.» ينطبق الأمر ذاته على الحب، حيث لا يدوم إلا بهذا الشرط.

- هراء! لا يمكنني أن أحب إلا بشغف، واندفاع، وبجوارحي كلها. وغيره ليس سوى ضجرٍ!

- احترسي، يا شهيدة، ليس الهوى في الحب إلا كنفخ الريح

في النار. فهي تؤججها وتذكيها، لكنها لا تنفخ على المدى البعيد سوى في الرماد.

- الأمران سيّان. سأحترق على الأقلّ.

- وستموتين.

قالت له مستفزة:

- تبا لك!

ردّ بهدوء:

- لماذا ترتدين ملابس؟

بدت السورية مرتبكة.

- لم تعودي في حاجة إليها. عدوانيتك الدائمة وقلة حيائك يكفيان لسترك.

كانت نبرته باردة.

وقف فجأة، ودفع الكرسي بقوة حتى اصطدم بالأرض منقلبا.

- سأقول لك، يا عزيزتي، إنك لست سوى فتاة قذرة سيئة التنشئة.

دار على عقبيه، واختفى.

*

باريس، ٢٠ أغسطس/ آب ١٩٥٨

رفع «جان فرنسوا لوفون» نخب ضيوفه.

كان هناك نائب عن مقاطعة «أندر-إي-لوار» يدعى «ميشيل دوبري»، وزوجته «أن ماري»، و«بيير لومير»، نائب برلماني وعضو الحزب الاشتراكي المستقل، ترافقه شابة ذات مظهر رجالي، اسمها «إيزابيل».

- أصدقائي، أشكركم على مجيئكم هذا المساء. يغمرني

حضوركم بمشاعر جياشة، ويجعلني أحس أنني أحتفل بتاريخ بقي وسيبقى محفورا في قلبي إلى الأبد.

تأمل دنيا بحنوّ:

- ثلاث وثلاثون سنة من الزواج. وخلافا لـ«ميشيل»، لست خطيبا مفوها يملك الكلمات الرنانة التي يستحقها هذا اليوم الموافق لـ ٢٠ أغسطس/ آب. لذا، لا تلوميني إذا قلت لك ببساطة...

سكت لحظة.

- إنني أحبك.

دوّت التصفيقات.

- ثلاث وثلاثون سنة من الزواج! هتف «بيير لومير». ارفعوا قبعاتكم.

استدار نحو رفيقته، وهمس في أذنها:

- هل تعتقدين أننا نستطيع أن نضاهي دنيا و«جان فرنسوا»؟

ثم أكد للحاضرين:

- سنتزوج في غضون شهر. أنتم مدعوون، بالطبع.

علت التصفيقات مجددا.

لاحظ «ميشيل دوبري»:

- «أن ماري» وأنا لسنا بعيدين عن صديقينا. لقد مضت أربع وعشرون سنة على زواجنا، ولنا أربعة أطفال. لم يعد الأمر سيئا!

-- آه! نعم، وافقت دنيا.

ومضت عيناها بالحنين.

- لا تحزني، يا عزيزتي، همست «أن ماري» التي لاحظت شرودها. اعلمي أن الطفل ليس إلا هو، لا تحبي سواه، ولا تعاني إلا منه: إنه أكبر الأنانيين وأكثرهم براءة وملائكية!

أشارت دنيا إلى رئيس الخدم بتقديم الحلوى، بينما سأل «دوبري» «لوفون»:

- إذا، يا عزيزي، ما هي الخلاصات التي استنتجتها من تنقلاتك بين دمشق والجزائر وبيروت؟

- فيما يتعلق بلبنان... إنه بلد معقد وحساس وممزق بين الشرق والغرب. في رأيي، فالتدخل الأمريكي منذور لتخلي المسيحيين عن الحماية الفرنسية. وقد أظهر الأمريكيون قدرتهم على نجدة حلفائهم، بما في ذلك بلد صغير مثل لبنان، الذي ظل خاضعا لنفوذنا منذ زمن طويل.

- ماذا تقصد، يا «جان فرنسوا»؟ سأل «دوبري». لسنا طليقي الأيدي فيما يجري في الجزائر.

- تماما. نحن لا نفقد الهيمنة من الناحية الجيوسياسية فحسب، بل الثقافية أيضا.

- ماذا تقصد؟ تساءل «بيير لومير».

سكت «لوفون»، واستغرق الوقت الكافي ليرشف جرعة نبيذ، قبل أن يستأنف كلامه:

- بيروت لا تَتَأَمْرَكُ فحسب، بل تميل إلى أن تصير مدينة عابثة متعطشة إلى الملذات البسيطة. إذ تنتشر فيها الحانات والعلب الليلية. مازال الشريان الأنيق يدعى شارع الفرنسيين، لكن لافتات النيون تعلن بحروف متوهجة أسماء *ميامي*، أو *ألاباما*، أو *بالم بيتش* في سماء لبنان.

- ومن أين يأتي المال؟ تساءل «بيير لومير».

- من النفط. إذ تصب فيها آبار البترول الخليجية ملاييرها التي يسارع اللبنانيون، الذين أصبحوا أسيادا في فن التجارة، إلى جمعها

أثناء عبورها. إذ تتطاير سدادات الشمبانيا على أنغام «الكاليبسو».
ولا تختلف قاعات الحفلات والعلب الليلية عن تلك الموجودة في الغرب. ففيها نفس الراقصات الإسبانيات المقلِّدات، ونفس الرعاة المكسيكيين المزيفين، والمغنية الفاتنة ذات النبرة المارسيلية، التي تزعم أنها أرجنتينية.

بدأت النساء يضحكن.

- حتما، يا له من وجه شرقي ترسمه لنا هنا. سيعتقد المرء أنه في باريس أو يكاد.

- نعم، أكد «لوفون»، مع فارق أن الاندفاع نحو الرغبة في بيروت أقوى من أي مكان آخر. فالزهو ليس وهميا- كما نصادفه عندنا، حيث لا يحتفل اللبنانيون قصد نسيان أشجانهم. في هذا البلد حيث عناقيد العنب متدلية والنساء مندفعات، لا شيء يبعث على القلق.

- آه! هتفت رفيقة «لومير». هنا لن يعاني الجسد من الحرمان إذا!

استأنف «جان فرنسوا» كلامه:

- هذا البلد، الذي لم نعد نعرف ما إذا كان بلدا مسيحيا ذا وجه عربي، أم بلدا عربيا ذا وجه مسيحي، ظل يعتبر، منذ أن أنشأناه من رقع مختلفة، أرض بعثات. إليكم مثال جامعة القديس يوسف في بيروت، التي يشرف عليها اليسوعيون. لقد مثلت قمة الهرم الدراسي في كل بعثاتنا إلى الشرق، والمنارة الروحية في المتوسط الشرقي. لكنها بدأت، منذ حين، ترى هرما منافسا آخر ينتصب قبالتها: الجامعة الأمريكية. هذه الأخيرة تجذب إليها طلابا بات عددهم يتزايد أكثر فأكثر، بينما تفرغ مدارسنا وكلياتنا. وليس ذلك مرده إلى مجافاة لفرنسا. بل يرجع فضله إلى ما تتلقاه الجامعة الأمريكية من

دعم محترم، لا يمكن لمؤسساتنا الفرنسية أن تطمع فيه. إذ يتراجع تعلم الفرنسية لفائدة الإنجليزية، وتقوض الرأسمالية النزعة الإنسانية الليبرالية القديمة تدريجيا.

- هيا، هيا! احتج «دوبري»، أراك متشائما!

- آمل أن يظهر المستقبل أنني مخطئ. في جميع الحالات، لقد قضيت ساعتين أبشر بالكلمة الطيبة. للأسف، أقل ما يمكن أن يقال هو أنه تبين، مع التدخل الأمريكي، أنني كنت أبشر في صحراء مقفرة. وما يقلقني أيضا هو هاتان الطائفتان اللتان تنظران إلى بعضهما بحقد مؤرق؛ ذلك أن كلا من المسيحيين والمسلمين منقسمون إلى فرق ومذاهب. أخشى أن تولد الخلافات السياسية حروبا دينية يوما ما. سيتخذ النزاع حينها طابعا انفعاليا سيخرجه عن السيطرة.

- هل تقصد أن أي هزّة قد تكون قاتلة لهذا البلد؟

- لن تكون قاتلة. فاللبناني صاحب ملكة ذات وجهين، وهي فريدة في العالم قطعا: الإصرار واللامبالاة. ولهذا سأضيف لهما استعدادا للاحتفال لا مثيل له. هناك الكثير من الخصائص التي تسمح له بمواصلة الحياة والاحتفال مهما كان الحدث، كأنه لم يحدث. لذلك، أقول لكم إن الهزة لن تكون قاتلة. ستكون دموية بالطبع، ومدمرة بالتأكيد.

- وفي الجزائر؟ استفسرت زوجة «دوبري».

- الأمر جسيم بطريقة أخرى.

- لقد وصل احتلالنا إلى نهايته، بعد أن امتد طيلة مائة وثمانية وعشرين عاما. عاجلا أو آجلا، سنجبر على المغادرة.

تدخل نائب مقاطعة «أندر-إي- لوار»:

- لاشك أنك قرأت ما كتبته، منذ سنة، في صحيفتي «لوكوريي دو لاكولير»[1].

ثم استشهد من مقالته:

- «ليعلم الجزائريون جيدا أن التخلي عن السيادة الفرنسية في الجزائر يمثل فعلا غير مشروع يضع مرتكبيه، أو المتواطئين معه، خارج القانون؛ والمعترضين عليه، مهما كانت الوسيلة المستعملة، في وضعية الدفاع المشروع.» فالجزائر تشكل جزءا لا يتجزأ من فرنسا. لا تنسَ ذلك، يا صديقي.

قررت دنيا التدخل في الحديث:

- في هذه الحال، كيف تفسر جملة جنرالكم «دوغول» التي أطلقها من شرفة في الجزائر العاصمة، منذ نحو ثلاثة أشهر؟ أمر عجيب: «فهمتكم.» هل يمكن أن تفكّك رموزها؟ لمن وجّهها؟ إلى متمردي جبهة التحرير الوطني، إلى هذا الـ«بن بلة» الذي يتعفن في السجون الفرنسية منذ أن اعتقلتموه باختطاف الطائرة التي كانت تقلّه إلى تونس؟ أم إلى المعمّرين الذين يطمحون، مثلك، إلى إحكام قبضة فرنسا على الجزائر؟

قطّب «دوبري» حاجبيه:

- يجب أن نواصل القتال ضد حرب العصابات، بمساعدة الحركيين. لا يجدر بنا أن نترك أناسا تجذروا هنا من قرون يواجهون مصيرهم وحدهم. هذا غير وارد.

نظر إليه «لوفون» بعين ناقدة.

- ستقاتلون؟ هل بالتحكم ثانية في السكان وحرمان جبهة التحرير الوطنية من الوسائل اللوجيستيكية التي ستحصل عليها في

---

(١) Le Courrier de la colère (بريد/ رسالة الغضب)

جميع الأحوال بالقوة أو بالتراضي من السكان أو من عبد الناصر؟ لقد زرت أشهر «المناطق الممنوعة». إذ جُمِّع السكان الذين يعيشون فيها، والمطرودين من مساكنهم، في مخيمات تحت مراقبة الجيش. وأفرغت القرى من سكانها، ودمرت أحيانا حتى لا تستعملها جبهة التحرير الوطني. وبات هؤلاء البؤساء، الذين أبعدوا عن فدادينهم حتى لا يزرعوها وحرموا من مواشيهم، تحت رحمة الإدارة، التي تحدد لهم وجبات غذائية لا تكفيهم في الغالب، مما يؤدي إلى إصابتهم بأمراض نقص التغذية.

سكت لحظة قبل أن يسأل:

- يا «ميشيل»، هل تعتقد فعلا أن يكون هذا هو الحلّ؟

لم يجب «دوبري». أعلن «بيير لومير»:

- إذا كنت تريد رأيي، فإن الجنرال قد قذف بهذه الجملة، مثلما يرمى العظم. سألفت نظرك إلى أنه كان حريصا جدا على ألا يقدّم للمعمرين أي وعد محدد أثناء الخطاب، وأنه لم يعد في أي لحظة إلى مطلبهم الأساسي بـ«الاندماج»، ولا إلى شعارهم القائل بـ«الجزائر الفرنسية».

- وما الخلاصة؟ تساءلت زوجة «دوبري».

- الخلاصة هي أن «دوغول» يستعد لمغادرة الجزائر، غدا، أو بعد سنة.. لا أدري. لكنني مقتنع أن هذا المشروع أضحى واضح المعالم في رأسه.

حدّق في «ميشيل دوبري»:

- أليس لهذا السبب انتُخب في الجمعية الوطنية بـ٣٢٩ صوت من ٥٥٣ ناخب؟

- يا عزيزي، لا أعلم الغيب، للأسف. في الوقت الراهن،

كلفني الجنرال بمهمة جسيمة تستغرق أيامي كلّها، بلا شك، وجزءا من لياليَّ؛ وهي بلورة دستور جديد. صدقوا أنه ينتظرني عمل كثير.

- وداعا، إذا، للجمهورية الرابعة، قالت رفيقة «لومير».

- بالتأكيد، يا سيدتي. لقد آن الأوان لذلك، ردّ نائب مقاطعة «أندر-إي-لوار».

(١٠)

كل شيء سرٌّ في الحب،
سهامه، وجعبته،
وجذوته، وطفولته.

لافونتين

القدس، الجزء الغربي،[1] *٢١ أغسطس/ آب ١٩٥٨*

غير بعيد عن باب دمشق، تحول حادث مشاجرة تافهة بين مارَّيْن إلى معركة ضارية. كان الرصاص يلعلع في كل مكان. مست رصاصة طائشة فكّ «أفرام برونشتاين» مسًّا خفيفا. فهل تجاوز جنود أردنيون «الخط الأخضر» حتى اندلعت الأعمال العدائية؟ لم يكن ذلك مرجحا.

ركض «أفرام» نحو طاولة توابل، ملتفا حول نفسه، ثم احتمى

(١) بعد إنشاء دولة إسرائيل وبعد الهدنة سنة ١٩٤٩، وجدت القدس نفسها مقسمة إلى جزأين، يفصل بينهما «خط أخضر». كان الجزء الشرقي من المدينة يخضع لمراقبة الأردنيين، بينما أصبح الجزء الغربي في حوزة الإسرائيليين. إذ تضم القدس الشرقية بعض المواقع المقدسة في الديانات التوحيدية الثلاث، مثل جبل الهيكل وحائط المبكى والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة.

خلف أكياس ضخمة ينبعث منها عبير حب جوز الهند، إن لم تكن رائحة الكمون.

علا الصياح والعويل. تهاوى رجل أصيب في صدره. ردّ على الهجوم رجل آخر يحمل مسدسا، ويجلس مقرفصا خلف جدار. على من؟ على ماذا؟ لا أحد يعرف. استولى الجنون والغضب على المدينة المقدسة مرة أخرى.

فجأة، ظهر طيف امرأة في الزقاق. سارت بضع خطوات، قبل أن تتجمد في مكانها. تطايرت شظايا رصاصة عند قدميها. ثم ثانية. صرخ «أفرام»:

- اهربي! اهربي!

لا يبدو أنها سمعته أو فهمته. حينها، لم يتردد كثيرا في الركض نحوها. أحكم قبضته على جيدها، وجرّها نحو الطاولة.

- اتركني! صرخت مرعوبة.

- ستُقتلين! تعاليْ! ردّ باللغة ذاتها.

استسلمت على مضض.

أجبرها على أن تقرفص خلف الأكياس، وأبقاها على هذا الوضع، وهو يحبس عنقها.

تواصل تبادل إطلاق الرصاص حتى ظهرت كتيبة من رجال القبعات الزرق. وفي لمح البصر، تفرق المتحاربون في الأزقة، متخذين مواقع هنا وهناك. تواصلت طلقات متقطعة خلال بضع دقائق، ثم حلّ الصمت، حيث لم يعد يسمع سوى هزيز الريح، يشوشه نواح ينبعث من المدينة القديمة.

حينها فقط، سمح «أفرام» للمرأة أن تظهر، قبل أن يسألها بالعبرية:

- *ما نيشما*؟ هل أنت بخير؟

تفرّست فيه، بنظرة متسائلة.

تذكر أنها تكلمت قبل قليل بالعربية، ثم سألها من جديد باللغة ذاتها.

- نعم. شكرا. هل أنت يهودي؟ عجّلت بالسؤال.

ردّ بالإيجاب.

فجأة، تراجعت إلى الوراء، كأنما تجسد الشيطان أمامها.

- انظري، قال لها بابتسامة متسامحة: أمتلك يدين، وذراعين، ووجه، وساقين، وأتكلم. أنا أيضا إنسان.

أومأت خجلة بالموافقة. بدت شابة على نحو لا يصدق.

- كم عمرك؟

- ثلاث وعشرون سنة.

ظنّ أنها أصغر من ذلك بخمس سنوات.

كانت نظراتها مدغدغة، وملامحها مشرقة، ذات نعومة لا مثيل لها. أما عيناها، فهما مذهلتان ونادرتان بالنسبة إلى امرأة عربية. كانتا زرقاوين.

- ما اسمك؟

- جمانة.

- أنا «أفرام». «أفرام برونشتاين».

كررت سؤالها كأنها تريد أن تقنع نفسها:

- أنت يهودي؟

انفجر ضاحكا.

- ماذا علّموك؟ أن اليهود يشبهون الغيلان؟

- يجب أن أعود إلى بيتي، إنني أشعر بالضيق، غمغمت قائلة.

- سأرافقك.

انقبض وجهها مثل دوري خائف.

- لا. لا داعي لذلك.

- لماذا؟ أين تسكنين؟

- في المدينة القديمة. غير بعيد من هنا.

- سأرافقك

- والداي... إذا رأيانا.

- لا تقلقي.

همس لها بنبرة كاذبة كأنه يتواطأ معها:

- اسمي محمد، وأنا فلسطيني.

- مستحيل! لا تشبه أي فلسطيني!

- ليس أكثر مما تشبهين أنت أي عربية. هيا تعالي!

وافقت على أن يمسك يدها.

صعدا خان الزيت، على حاشية الحي المسيحي. سارا نحو مائة متر، حتى أشارت الشابة إلى زقاق على اليسار. بدا المأوى النمساوي في الطرف الآخر.

- قولي لي، يا جمانة، ماذا كنت تفعلين قرب الخط الأخضر؟ استفسر «أفرام».

- الخط الأخضر، أو الخط الأحمر، هل أعرفه؟ إنه خفي، أليس كذلك؟ ولدت هنا، وكذلك أبي وجدّي، وجدّ أبي أيضا. وإلى حدود سن الثالثة عشرة، كان بوسعي أن أتجول حيثما شئت. أما اليوم، تعتبر دولتكم أعمامي وأخوالي وأبناءهم، الذين يسكنون في الجانب الغربي، مجرد مقيمين يمكن العبث بوضعهم. مقيمين غرباء! ما هذه القصة؟ يكفي أن يتغيبوا لوقت معين حتى يفقدوا الحق في

العودة إلى هنا. والحال أننا في وطننا، أليس كذلك؟[1]

لم يجب «أفرام». فقد ظل يحفظ، مثل أهله، ما قاله أبُ الأمة «بن غوريون» قبل تسعة عشر عاما: «القدس جزء لا يتجزأ من دولة إسرائيل، كما أنها جزء لا يتجزأ من التاريخ اليهودي، ومن دين إسرائيل، ومن روح شعبنا.» أقوال ردّ عليها العرب على الفور: «القدس ثالث مدينة مقدسة في الإسلام!» واحتج المسيحيون قائلين إنها «مدينة يسوع! المسيح عيسى، ابن الله!»

خطرت على باله فكرة طوباوية: «ماذا لو كانت المدينة موعودة بأن تصير يوما ما، من الناحية الرمزية، المكان المناسب لتلاقي جميع أبناء إبراهيم؟»

قالت جمانة، كابحة حلمه:

- ها قد وصلنا.

أشارت بيدها إلى بيت.

- يستحسن أن تتركني هنا.

- حسنا.

حدّقت فيه، مبتسمة ابتسامة طفولية:

- صحيح أنك تملك يدين، ويدين، ووجه، ورجلين...

ثم استطردت:

- شكرا.

---

(١) يسمح قانون «العقارات المهجورة»، الذي سنته إسرائيل سنة ١٩٤٨، بحجز ممتلكات كل شخص «متغيب». إذ يعرف «المتغيب» باعتباره كل شخص وجد خارج التراب الإسرائيلي، خلال الفترة الممتدة بين ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧ وفاتح سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨ (في نهر الأردن أو قطاع غزة أو في أي دولة عربية).

ظل هو متجمدا، يتابعها بعينيه. لم يفلح في أن يغادرها، كأن خيطا خفيا امتد بين قلبه وقلب الفلسطينية.

*

الكويت، ٣٠ أغسطس/ آب ١٩٥٨

وقف حسين وزيد أمام النافذة المنفتحة على البحر، يتأملان المشهد الممتد أمامهما في صمت. بلد غريب. لا نسمة في الجو، ولا موجة في الماء. لكن هذا البلد، الهادئ جدا من حيث الظاهر، كان بلا شك أكثر الأمكنة نشاطا. كانت أكبر الاتحادات النفطية النافذة تبني في الجوار صرحا عملاقا.

أمام أعين الفلسطينيين يمتدّ ميناء الأحمدي. كانت دزينة من ناقلات النفط تُحَمَّل بالذهب الأسود، عبر أنابيب آتية من تخوم الصحراء.

لاحظ زيد قائلا:

- عندما تفكر أن الأمير ابن سليم الصباح يتلقى يوميا مئات الآلاف من الدولارات إتاوة من شركة *النفط الكويتية*... تجد أنه مطر من ذهب يهطل من سماء صافية! مطر بفضله شرِع هذا الأمير العزيز في بناء قصر جديد، حتى لا تحتجب شمسُه خلف بذخِ أبناء عمّه.

- أعرف. لقد حدثني أصدقاؤنا الفلسطينيون عن ذلك. يصل علوّه ثلاث طوابق، وفيه تسعون غرفة مكسوة بالمرمر، وقاعة أكل معدّة لمائتي ضيف، وآرائك برونزية محلاة بالذهب، وقاعة سينما ومسبح ضخم.

- وما يثير الجنون أكثر هو أن البناة أخذوا بالحسبان ضمان تموين متواصل بواسطة شاحنات صهاريج، حتى لا يجفّ أبدا.

- من المؤكد أن إنجلترا قد قابلت هذا الهوس بابتسامة ساخرة.

كان حسين على حق.

لم يعد الإنجليز يلقون بالا لهذه الأوهام والمنافسات بين الأثرياء، ما دام الأمر يحترم قواعد اللعبة، التي ترتبت عن اتفاق حماية وُقِّع سنة ١٨٩٩، ينبغي بموجبه أن يحصل الأمير في سياسته الخارجية وتدبير أمواله على موافقة «مستشاريه البريطانيين». لم يكن سموّه يستطيع أن يتحالف مع أي دولة دون رضا «داونينغ ستريت»، كما كان ملزما بإيداع مجموع مداخيله في *بنك إنجلترا*. أما جيشه، فقد أجبر على أن يتدرب على أيدي ضباط «ساندهورست».[1] ماعدا هذا، بمقدور الأمير أن يفعل ما يشاء، بالطبع، كأن يبني قصرا باذخا.

قال زيد:

- تعال، إنهم ينتظروننا.

اتخذا مكانا في السيارة التي استعاراها من عضو متبرع من أعضاء حركة فتح، وتوجها نحو مركز المدينة.

خففا السرعة مجبرين عند مصطبة ترابية يحجب عنها الشمس ستارٌ مزدوجٌ من الأقمشة وجدران الطين. إنه سوق الصقور. ثمة مئات الكواسر، على عيونها أغطية جلدية، معروضة للبيع. جميعها تحمل أسماء شاعرية، مثل «بريق الصباح» أو «رعب الغسق». يجلس تجارها القرفصاء تحت خيامهم، على أغطية حريرية وثيرة سوداء، وجوههم ملوّحة تشبه لمحاتها منظر طيورهم على نحو غريب. يترقبون الزبناء، أمراء أو وجهاء، بصبر سكان الصحراء.

---

(١) أكاديمية عسكرية ملكية إنجليزية شهيرة، فيها يتلقى التدريبَ ضباط المشاة البريطانيين، وضباط مشاة البلدان الأجنبية التي تربطها بها اتفاقيات تعاون.

شتم حسين، الذي تولى السياقة، هؤلاء التافهين. كان يخشى أن يؤخروهما عن الموعد. ضغط على دواسة السرعة، لكنه اضطر إلى التخفيف مجددا، بعد مائة متر، حيث استسلم أمام ازدحام السيارات والشاحنات، في شارع تحفّه دكاكين ذات واجهات رخامية، تعرض خلفها ثلاجات وغسالات وأجهزة تلفزيون.

- ستون ألف كويتي أصلي، لكن هناك خمسون ألف سيارة!

أرغد زيد.

- أرى أنهم يعتبرونها رمز التقدم! تصور البارحة، بينما كنت أعمل في الميناء على جرّ بعض الصناديق، أخبرني أحد هؤلاء الشيوخ، وهو يعرض في الهواء ألماسة تتلألأ على يده، قائلا: «هل ترى هذه السفن؟ إنها مزعجة. ها هي هنا منذ يومين، دون أن تتمكن من إفراغ حمولتها، لأن الميناء مكتظ. وهذا التأخير مزعج أكثر.» سألته: «ماذا تحمل؟ هل تحتوي على أغذية؟» حدّق فيّ كأني مجنون. «أغذية؟ لا أبدا! إنها مشحونة بسيارات «كاديلاك». وهي من نماذج سنة ١٩٥٩ وصلت خمسة أشهر قبل الأوان.» حينها قلت بسذاجة: «لكن هل سيستهلكها السكان؟ هناك عدد ضخم من السيارات في هذه المدينة.» انفجر الآخر ضاحكا، ثم قال: «يا له من سؤال! عندما ستصل نماذج ١٩٥٩، لا أحد سيفكر في قيادة سيارة ١٩٥٨!»

رمق زيد صديقه.

- وبماذا أجبته؟

- «بالطبع، جيد! تغاضَ عن نزقي.»

- أما أنا، فيحق لي، عند الأمير الأنصاري الذي يشغلني، أن أبدي بعض الملاحظات المتهورة. فهو مهووس بالعطور، مثل جميع العرب، حيث يشتكي من عجزه عن أن يحصل لنسائه على عطور

«شانيل» أو «كريستيان ديور» في قوارير عشرة لترات. يقول مشتكيا: «يجب أن تفهم أن تطييب مسبحي سيكون أسهل بواسطتها! إذ يتعب خدمي وهم يصبون فيه تلك القوارير الصغيرة التي لا تفي بشيء. الأمر متعب!»

- ها نحن وصلنا، أعلن حسين. لقد حان الوقت.

*

أشار إليهما ياسر عرفات، الذي مازال يعتمر كوفيته، مرحبا بقدومهما. لاحظ زيد أنه غيّر وضعها حتى تشبه شكل فلسطين في زمن الانتداب، و«صحراء النقب» تغطي أذنه اليمنى.

لم يحلق لحيته، تماما مثل أمس وما قبله. يبدو أنه قرر العفو عنها.

منذ أن جدّد حسين وزيد الاتصال به، انقشعت بعض العتمة التي كانت تلف ماضي هذه الشخصية، إلى حدّ ما.

لم يولد في القدس، بل في القاهرة. هذا ما أسرّ به أبو جهاد، الذي يعرفه حق المعرفة، للشابّين. بلا شك، كان عرفات يودّ لو رأى النور في هذه المدينة المقدسة الملائمة لقدره؛ للأسف، لم يهبه الله هذا الاختيار. ظل والده عبد الرؤوف يتعاطى تجارة الأقمشة- والتوابل أيضا- بين مصر وفلسطين، إلى أن قتل سنة ١٩٤٩، وهو يحارب الصهاينة. أما والدته زهوة، فهي تنحدر من عائلة محترمة في القدس- تلك معلومة أكيدة على الأقل.

هذه العائلة، حسب أبو جهاد دائما، سليلة المفتى العام في القدس الحاج أمين الحسيني، الذي اتهم بالتعاون مع النازيين.

في سنة ١٩٥٢، التحق صاحب الكوفية، بعد أن أكمل دراساته في غزة، بجامعة القاهرة حيث أسس، بعد بضعة شهور، «الاتحاد العام لطلبة فلسطين»، التابع لحركة الإخوان المسلمين. وتقول بعض

الإشاعات- رفض أبو جهاد التعليق عليها مع ذلك- أن مصالح الأمن المصرية ربما جنّدت زعيم فتح سنة ١٩٥٥.

واليوم، ها هي ذي الحركة، التي وضع تصورها قبل أزيد من عام، تكافح حتى ترى النور. تنقصها الأموال، والرجال أيضا، حيث لا يزيد عددهم، في الوقت الحاضر، عن عشرين رجلا، ينتمي أغلبهم إلى البورجوازية الفلسطينية الصغيرة. وماعدا عرفات نفسه، كانت «النواة الصلبة» تضم ثلاث شخصيات: أبو إياد،[١] وأبو لطف،[٢] وبالطبع أبو جهاد، الرجل الرائد في كل شيء.

انضم حسين وزيد إلى المجموعة بعد أن اكتمل أفرادها. تناول عرفات الكلمة...

*

القاهرة، وزارة الدفاع، في اليوم ذاته

فضّ هشام الظرف الذي تسلمه من حاجب. وقد كتب عليه بخط بارز: «شخصي».

عزيزي أنت،

رغم المظاهر، لم تكن لدي أبدا النية، ولا الرغبة في إيذائك. ليس ما كنت أريد اقترافه. فقط، حدث أن طرأت على حياتي صدفة، مثل ذرة رمل، ليس بحجمها، بل بقدرتها على تعطيل آلة لم تعد كما كانت منذ سنوات. صادفت نظرتك. فأعجبتني هذه النظرة. وسرعان ما اقتحمت أفكاري. حينها، صرت أرفس، مثل كل من اقتنع بأن السعادة لم تخلق له.

---

(١) اسمه الحقيقي صلاح خلف.
(٢) اسمه الحقيقي فاروق قدومي.

أركل. وأعضّ. أهرب من سعادة جميلة وكلّية وفريدة، حتى تصير حقيقية، وحتى تدوم على الخصوص.

أعترف أنني سريعة الانفعال وذات حساسية مفرطة، لكني بلغت لحظة في حياتي قررت فيها ألا أواصل تدمير نفسي. إذ صرت أرغب أن يأخذ أحد بيدي وينقذني.

التقيت في حياتي رجالا طيبين، وآخرين دفعوني إلى المعاناة. تلك هي الحياة. فقط، تبين أن الأخير منهم دمرني شيئا فشيئا، بتردده وخوفه. ففقدت الثقة. وعندما استخففت بي في المطعم بالقول: «إذا، ستموتين»، فقد نكأت جرحا لم يندمل.

لم أُرِد أبدا أن أبدو جارحة. أتفاعل بتهور. ولهذه «الأنا» المدمرة أوجه هذه الركلات. سأفهم قطعا كيف يُنْظَر إليّ باعتباري كائنا متقلبا يخشى في كل حين أن يتأرجح خارج السفينة. إن عزمت على البقاء، فإنك ستنتحر. غير أني لست هذا الشخص. لست سوى فتاة تخشى الحب. وقد شعرت أنك كنت قادرا على أن تمنحني هذا الحب.

ليس بمقدوري أن أضيف أي شيء. كل شيء بين يديك.

لا أريد أن أفقدك.

شهيدة

حاشية: ١٠، شارع ٢٦ تموز، الزمالك.

أشعل هشام سيجارة من نوع «لاكي سترايك»، ثم شرع يقرأ الرسالة ثانية.

أخيرا، عاودته الفكرة التي خطرت على باله ليلة عشائهما في فندق «سيميراميس»: «إما أن هذه المرأة تسخر منه بالطبع، وإما أنها

خارجة عن المألوف تماما.» بعد القراءة الثانية، بدأت الفرضية الأخيرة تفرض نفسها.

شعرت أنك كنت قادرا على أن تمنحني هذا الحب.

هل كان قادرا على ذلك فعلا؟ ألا تبالغ في الأمر؟ كانت أناه مفرطة، مادامت تعيش انفعالا وحساسية مَرَضيين. حتما ستصطدم قاطرتان تندفعان نحو بعضها البعض بمنتهى السرعة.

امتلأت عيناه بشهيدة. بل ثمل بها، وهو واعٍ بغرابة هذه الثمالة. ما الذي يجعل شخصا ما يمثل السعادة الغامرة، وآخر يمثل الشر الكامل؟

لم تغادره ذكرى السورية، منذ ذلك المشهد الذي جرى بالقلعة. بقيت محفورة في ذهنه مثل سفينة ساكنة. لم تكن أي ريح كافية لطردها من ذاكرته، كانت تحتاج إلى عاصفة.. إلى إعصار. هل كانت تلك الذكرى هي الحبّ إذا؟ أهو هوس يقع في الدماغ، إن لم يكن في القلب، فيصير عصيا على العلاج؟ أم هو اليقين بعجز المحب عن العيش دون حبيبه، مع الوعي بأنه ليس نظيرا له، بل أناه الأعلى رغم ما تطرحه هذه التوأمة من مخاوف؟

كيف يمارس قنفذان الحب؟ يمارسانه بحذر شديد جدا.

ابتسم هشام، وهو يستحضر هذه الأحجية الطفولية.

سحق سيجارته. أغمض عينيه، ثم هام في تأمل عميق.

(١١)

الثورة؟ نعم! لكن اسمعوا جيدا:
ليس هناك ثورة حقيقية إلا الثورة الأخلاقية.
وكل ما تبقى بؤس، ودم مهدور، ودموع يائسة.

«جورج ديهاميل»

بغداد، فاتح سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨

- يا عزيزي فواز! لا أملك صبرك. احتج الكولونيل عارف، وهو يمسك بالنرجيلة.

أغمض عينيه، وأطلق سحابة دخان شرهة.

- «بون»! سيعينني سفيرا في «بون»!

كرّر فواز البغدادي بطريقة آلية:

- سفيرا في «بون»؟ هل أنت متأكد من أن الأمر صدر عن الجنرال قاسم نفسه؟

أطلق عارف قهقهة مدوية.

- أذكرك بأنه سيّد بغداد، والوزير الأول ووزير الدفاع و...

- وأنت نائب الوزير الأول ووزير الداخلية ورئيس القوات المسلحة. فهو لا يستطيع...

- لا شيء! لم أعد شخصا مهما. لا شيء سوى دبلوماسي سينفى مستقبلا إلى ألمانيا.

في الحقيقة، لم يُفاجأ فواز باستبعاد الكولونيل. فمنذ البداية، لم تكن آراء المحرض على انقلاب يوم ١٥ يوليو/ تموز تتفق تماما مع آراء عارف. لم يكن هذا الأخير، وهو ابن إمام تقي، سوى متحمس مخلص للإسلام، ومن ثم مؤيد للوحدة العربية. كان يحلم، هو المعجب بعبد الناصر، بعراق متحد بالجمهورية العربية الموحدة.

بينما كان قاسم، الماركسي المقتنع، يشنّع بالريس، ولم يكن ينظر سوى إلى الاتحاد السوفياتي، بلد الملحدين والهراطقة، حسب عارف.

إضافة إلى هذه الاختلافات بين العسكريين، كانت هناك مشكلة الأكراد المستعصية على الحلّ. إذ رغم أن قاسم التزم، غداة الانقلاب، بتأسيس جمهورية تضمن الحقوق الوطنية لهذه الطائفة داخل الكيان العراقي، إلا أن عمر الأخوة، التي ظهرت في حماسة الشعبين، كان قصيرا للأسف. فمنذ أن تربع الجنرال على أعلى هرم الدولة، لم يقم سوى بالمناورة قصد الحفاظ على سلامة سلطته الشخصية، محملا مسؤولية الأزمة لجميع التشكيلات السياسية، خصوصا الحزب الديمقراطي الكردستاني.

كان التوتر بين الأكراد والطاغية ينذر بالقطيعة. ولم يكن مستغربا أن يتحول الصراع السياسي، في مستقبل قريب، إلى مواجهة مسلحة. فما السبيل إلى نسيان أن هذا الوضع ما كان ليطفو على السطح أبدا لولا أن الإنجليز الأعزاء «فبركوا» خريطة العراق التي تضم بالضرورة هذا الكردستان التعيس، فقط لأن جوفه يفيض بالبترول؟ لا بد أن «جيرترود بيل»، المسؤول عن هذه الالتواءات الحدودية، يضحك في قبره ملء شدقيه.[١]

---

(١) انظر الجزء الأول.

- وماذا تنوي أن تفعل؟ سأل فواز متلهفا.

- خلعه! ردّ عارف برباطة جأش.

- أنت تمزح، طبعا!

- أكاد أفعل.

تضخمت غرغرة النرجيلة.

سحب الكولونيل نفسا جديدا، قبل أن يستأنف:

- ماذا تعتقد، يا صديقي؟ هل تعرف ما أُمثّله في نظر الشعب؟ ألست أنا من قاد الهجوم على القصر؟ أنا وجه تاريخي، يا عزيزي! أنا موجود! والشعب يعشقني. أما الجيش...

صمت لحظة.

- مثل عباد الشمس. يدور في اتجاه الشمس.

- انقلاب جديد، إذا...

- سنرى ذلك. في جميع الحالات، من العبث التفكير في أنني سأقبل منصب السفير هذا. هل أزعج السيد الجنرال؟ حسنا، لا بأس. عليه أن يتحمل وجودي في بغداد.

حلّ صمت جديد.

- لا تنس أنني لست وحيدا. لقد التقيت عبد الناصر الأسبوع الماضي. أحظى بدعمه.

هزّ فواز رأسه متأملا.

السياسة، الأحزاب.. بسببها فقدت زوجي وابني. لماذا هذا الاختيار، يا صغيري؟ لماذا؟ ابتعد عن السياسة! إنها خدعة وسمّ! فالساسة يتحركون جميعا، ورؤوسهم متخمة بالمثل التي يسارعون إلى خيانتها ما إن يتولوا السلطة.

لم تبدُ له أقوال خالته أكثر راهنية مثل اليوم. بيد أن الضرورة

تفرض الاعتراف بأن الجنرال قاسم خان روح الثورة بطريقة تثير الشفقة. لم يعد جديرا بالسلطة.

*

القاهرة، مساء اليوم ذاته

صعد هشام إلى الطابق الثاني بشارع ٢٦ يوليو. قرع باب الشقة العاشرة. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا. فتحت له الباب.

«كنت على حق»، هكذا استهل هشام الحوار.

قطبت حاجبيها، مستفهمة:

- ولد محمد علي سنة ١٧٧٠ فعلا. لقد تحققت من الأمر.

انفجرت ضاحكة. ارتمت في أحضانه. لم تتحرك، ولم تنبس ببنت شفة.

بعد لحظات، دعته للدخول.

يطلّ الصالون على شرفة بهيجة مزينة بكل أنواع النباتات: الدفلى، والأزالية، ومزيج من الورود.

- ماذا تريد أن تشرب؟ قالت مقترحة.

- «جوني والكر»، إذا كنت تتوفرين عليه.

- تريد كأسا مترعة بقطع الثلج؟

- كيف خمنت ذلك؟

حرّكت رأسها، لتبدو بمظهر خبيث.

- رأيت كأسك في فندق «سيميراميس».

بينما كانت تتجه نحو بار صغير في زاوية الصالون، أدارت رأسها إلى الخلف، وحدّقت في النجوم. *نقضي كل يوم وكل ليلة في التيه، بينما تمضي الحياة محاولة العثور علينا.*

أين قرأ هذه الجملة، إن لم يكن قد ابتدعها . . . ؟

- هل تحب الليل؟ سألته وهي تقدم له كأس ويسكي.

- لا . أشعر فيه بالوجع.

- أنت مخطئ. . . أنا كائنة ليلية. يجري شيء ما عندما تغيب الشمس. طاقة مختلفة. أتصور أن الليل هو رغبتنا، حيث يبدو كل شيء ممكنا. بينما تصير الروح فريسة الضجيج في واضحة النهار، يشوش عليها كل الحمقى.

نظر إليها، ثم قال:

- يبدو لي أنك اخترت، في رسالتك، المخاطبة بصيغة المفرد.

- تسمح الكتابة بجميع أشكال الحرية والوقاحات.

- هل أنت وقحة؟

- نعم، رغم المظاهر.

وضع كأسه، ومدّ يده إليها.

- تعالي، اقتربي.

غادرت الأريكة.

- اقتربي أكثر.

تركت نفسها تنزلق تحت ركبتي هشام.

كانت حارقة. أم تراه هو الذي كان يتلاشى؟

قال بصوت منخفض:

- افتقدتك.

كانت شفاههما تسعى إلى بعضها البعض. التقت تلقائيا، مثل البديهة.

احتضن قامتها. نبع الدفء من خارج جسديهما، ثم سرى فيهما؛ في لحمه، وفي لحم شهيدة المجنونة. شمّر تنورتها، وعرّى

فخذيها. داعبت يده بشرتها، ثم تجمدت فجأة، خشية أن يلقى عائقا ما. كانت عارية تحت الغطاء.

همست:

- أنا أنتظرك.

رفعها قليلا. دسّ راحته تحتها. بصم كلمات غير مرئية على جلدها. كانت حركته ناعمة وقوية، ومداعبته رهيفة وثابتة. سحب هشام يده، ليضعها بين فخذيها. سرعان ما رفعت تنورتها حتى الخصر، ثم باعدت بين ساقيها. حينها، أدخل أصبعه كاملا في فرجها، محرّكا كل شهوتها ببطء شديد جدا. ندّت عنها نزوة خفيفة، كادت تكون غير محسوسة. ولجها. فتحت فرجها أكثر.

فجأة، تغير كل شيء. نهضت. دفعته إلى الصالون. لم تعد شهيدة كما كانت، بل أصبحت امرأة أخرى.

حدّقت فيه، وهي واقفة وسط الصالون.

- أريد أن أتعرى.

جرّدها من ملابسها. كانت ملتهبة.

جردته من ملابسه هي الأخرى. تمدد على الأرض. جذبها نحوه، وأجلسها على شيئه. فتحقق تحول غريب. ها هي، وهي تركبه، تشيد هذا الرابط الغريب، وتحقق هذا الانسجام العنيد بين الإنسان والحيوان. تصلّب الجسدان، وتهيّجا. وتشابكت العضلات. أدرك لذته، وأحس أنها بلغت نشوتها عدة مرات. كان شعرها ذو الخصلات الذهبية يتماوج، كأن هبة خفية تحركه. فجأة، شعر كأن رَسَناً يحبس أنفاسه.

ترى كم دامت جولتهما؟ وحدها النجوم التي تسبح في سماء الشرفة تعلم ذلك.

فجأة، تدفق نور حيّ في روح هشام، بينما كان جسد شهيدة كله

متهللا تحت تأثير الرعشة التي كانت تسحقه، مثل مدّ عالٍ. تأوهت، وتقوست تماما، حتى كادت ترتفع عنه. وبعد لحظة بدت كالدهر، سقطت جنبه، لاهثة، وبطنها يتقلص ويتمدد منتشيا.

*

قدمت لنفسها كأس نبيذ، ودخنت. كانت تتأمل، وهي ممددة على أريكة من الأرائك التي تؤثث الغرفة.

- لماذا؟

أكملت سؤالها، بما أنه بدا مندهشا:

- لماذا نحن؟

- كيف لي أن أعرف؟ هو السحر؟ أو الكيمياء؟ حبذا لو كنا نعرف السبب الذي يجعل كائنين ينجذبان إلى بعضهما البعض...

- أليس هو الحب؟

- ستُفاجَئين. لا أعرف ما هو. لم أحب أبدا.

تفحصته باندهاش.

- هل تستهزئ بي؟

- أبدا. لأسباب غامضة، وفرت على نفسي معاناة الحب وفرحته؛ كأن الحب، المتأجج عند الآخرين، نسيني. بالطبع، تعرفت على بعض النساء، لكني لم أعرف الحب أبدا.

استأنف كلامه بعد أن تنفس قليلا:

- إلى يومنا هذا.

ظلت صامتة، حتى اشتد صمتها، ثم أعلنت:

- يجب أن أخبرك بمشكلتين.

انتظر البقية.

- أسأم بسرعة.

- الأمر خطير. خطير جدا. عندما يضجر الرجل، يحتاج إلى

امرأة تستثيره. لكن عندما تضجر المرأة، تحتاج إلى رجل يتمسّك بها.

- أنا وفية. كلية. لا أخدع.

سارعت إلى التأكيد، قائلة:

- طالما أحبّ.

- أشرت إلى مشكلتين. ما هي المشكلة الثانية؟

- لا أحتمل نشوتي دون بوح، وهجري بلا حدود. لا أريد أن أكون أَمَة، ولا أريد سيدا.

ضحك في سرّه.

- المهمة التي تنتظرني شاقّة.

جذبته نحوها. أحاطت عنقه بذراعيها. صارت وجها لوجه معه.

- لكن بالنسبة إليك، أنا مستعدة لأن أتغير. كتبت لك ذلك. فأنت أول من ألهمني هذه الرغبة. صدقني.

في طرفة عين، غرقت نظراتهما في بعضهما البعض. شعر مجددا بذلك الإحساس الذي انتابه في مسبح الجزيرة؛ لا ليس هو بالضبط، لأن المرء لا يشعر بالإحساس نفسه مرتين، إلا باكتمال الرغبة المشتركة.

*

حيفا، ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨

أصبح الحدث يتجاوز «أفرام». فها هو منذ أكثر من شهر يعيش حالة ثانية، كأنه مغشي عليه. كان مسكونا باسم جمانة ويديها وعينيها ووجهها. كانت تلك الصور تغدو وتروح في ذهنه، تصطدم بجدران خفية، أسماها «العقل».

في هذه اللحظة، كان ينصت إلى الحوارات بين والده وضيفه،

كأنه حلم. بين الفينة والأخرى، يتصبب جبينه عرقا، وهو يصارع هذه الكرة التي استقرت في أحشائه، وتأبى التلاشي.

توقف عن حساب الأيام التي أمضاها يترقب الفلسطينية أمام بيتها. فالشيء الوحيد الذي حفظه هو اسمها العائلي: النابلسي. جمانة النابلسي. كانت تجذبه مثل المغناطيس، حيث يحدث له أن يقضي الليل جالسا في زاوية من الزقاق، مثل متسول ينتظر. ينتظر. ينتظر ماذا؟ ما الذي يأمله؟ هي عربية، وهو يهودي. إنها صورة تاريخية ساخرة، قديمة قدم العالم. وقد أفشى أحدهم القصة بينهما. ولم تعد العائلتان تسميان «برونشتاين»، ولا النابلسي، بل «كابولي» و«مونتاغو».[1] أمر مضحك.

علت ابتسامة مريرة شفتي «أفرام»، سرعان ما انتبه إليها مخاطبه «مناحيم بيغن»، مؤسس حزب «حيروت»، الواقع على يمين الرقعة السياسية الإسرائيلية، والناهض على أنقاض حزب الإصلاح القديم المنهار.

- هل أنت بخير؟

- لم يعد يعيش بيننا، لاحظ «صامويل برونشتاين». فمنذ زمن، بات عقله خارج البيت.

عاد «أفرام» فجأة إلى أرض الواقع.

- معذرة، «مناحيم». الأمر يتعلق بصداع مؤلم. ماذا قلت؟

- لن تتوحد مختلف الحركات العربية في فلسطين أبدا، لأنها إما سورية، أو مصرية، أو بدوية، لكن لن تكون فلسطينية أبدا. وحدهم اليهود ظلوا يقولون إنهم فلسطينيون حتى سنة ١٩٤٧...

---

(١) الصورة المقصودة هنا هي صورة الصراع بين عائلتي «روميو» و«جولييت» في مسرحية شكسبير الشهيرة (المترجم).

وافق «صامويل» و«إرينا»، بينما طأطأ «أفرام» رأسه.

- ماذا تقصد؟

- تنوير عقلك. إلى حدود إنشاء دولة إسرائيل، لم يتكلم أحدا عن الفلسطينيين أبدا. هل تعرف لماذا؟ لأننا لا نتحدث عما هو غير موجود، ولا نقول أي شيء عما لم يُخلَق بعد. إذ نملك شهادات عشرات الرحالة الذين توقفوا هنا. ففي سنة ١٨٦٧، كتب الروائي الأمريكي «مارك تواين» بعد زيارته أرض إسرائيل: «لا نجد الكلمات المناسبة لوصف الخراب السائد هنا. حتى الخيال الخصب لن يقوى على إعمارها بالحياة والحيوية. وصلنا إلى جبل الطور، ولم نلتق بأي إنسان في طريقنا.»[١] وفي سنة ١٨٣٥، وصف الشاعر الفرنسي «لامارتين» الأمر على النحو ذاته: «خارج أبواب القدس، لم نلتقِ بأي إنسان، ولم نسمع أي صوت بشري.»[٢]

هزّ «أفرام» كتفيه.

- تبقى الحقيقة أنه، عندما وصلنا...

- عدنا! صححت والدته.

- عدنا، قال «أفرام» مسلما بالأمر، كان يعيش هنا أزيد من سبعمائة ألف فلسطيني.

سخر منه «مناحيم»:

- ألا ترى كيف تقع في الفخ؟ تتحدث عن الفلسطينيين. تكلم بالأحرى عن البدو، العرب، السوريين، الأتراك، المصريين... بربك أين رأيت الفلسطينيين؟ عندما دخل يسوع القدس من أجل الاحتفالات، هل ذهب إلى الكنيسة أو المسجد؟ لا، بل ذهب إلى

---

(١) «الأبرياء في الخارج».

(٢) «رحلة إلى الشرق».

الهيكل! لم يذهب إلى «جبل الكنيسة» أو «جبل المسجد»، بل إلى جبل الهيكل. «*هار ها بيت*»! جبل بيت الرب. فهذا البيت موجود منذ عدة قرون، قبل أن تسميه المسيحية أو الإسلام باسم آخر. ما الذي كان موجودا هنا؟ لا شيء، غير مستنقعات في الشمال تعيث فيها الحمى، وصحراء مهجورة في الجنوب، كأن «أدوناي» كان يرغب في أن تبقى أرض إسرائيل مخبأة في العتمة حتى يعود إليها مالكوها الشرعيون- أي نحن اليهود.

ثم أضاف:

- أرض إسرائيل هي الأرض التي أعطانا الرب. هل أذكرك بتوراتك؟

استشهد:

- «ظهر الرب لإبراهيم، وقال: سأعطي هذا البلد لذريتك.» الفصل الثاني عشر، الآية السابعة!

- نعم، يا مناحيم. غير أن الآية التي تسبقها تقول: «كان الكنعانيون حينها في البلاد.»

تحاشى رئيس «حيروت» الملاحظة، ليستأنف كلامه:

- خلال كل الاحتلالات المتعاقبة: الرومانية، والمسيحية، والعربية، والعثمانية.. طوال هذا الوقت كله، هل كنا نسمع من يتحدث عن دولة فلسطينية عاصمتها القدس؟ هل فقد أصحاب هذا المطلب، إذا، الذاكرة طيلة قرون؟ أما الأسطورة التي تدعو إلى الاعتقاد أننا سرقنا أرضهم، فهي كذبة وقحة. ذلك أن اليهود الأوائل لم يسرقوا أراضي العرب أبدا، بل اشتروها بأسعار باهظة.

- على رسلك، يا صديقي. ٥ في المائة هو الحد الأقصى، وقد باعها ملاك غائبون لم يسبق لهم، حتما، أن وضعوا أقدامهم هنا. ألا تتصور أن العرب الذين يحيطون بنا سيقررون يوما ما مهاجمتنا،

في محاولة لاسترجاع هذه الأراضي؟ فهم يحصون بالملايين. كيف سنقاومهم؟

ظل وجه «مناحيم» المقدود جامدا بلا إحساس.

- سنقاتل حتى الرمق الأخير.

قطّب «صامويل برونشتاين» حاجبيه.

- لا أفهم. ماذا تعني؟

لم يرد «أفرام» أن يقدم جوابا مباشرا:

- لا أعرف أي شيء. يبدو لي، خطأ أو صوابا، أن هذه الأرض لا يمكن أن تكون ملك جماعة من الناس باسم مرسوم إلهي ما، مع إقصاء جزء من السكان الذين عاشوا ويعيشون فيها. ويبدو لي أيضا أن العدالة لا يمكن أن تسري على شعب على حساب شعب آخر، باسم مبادئ دينية معينة.

استقبل الصمت أقواله. حينها، مسح العرق المتصبب على جبينه، ثم غادر المائدة.

- اسمحوا لي، يجب أن أتمدد. فهذا الصداع لا يحتمل.

آوى إلى غرفته. تهاوى على السرير. كان منهكا. كان يبحث عن السكينة والرقة، فوجدهما على نحو عابر في ذكرى جمانة.

(١٢)

استئصال الإنسان من أصوله إحباطٌ
يصيب صفاء روحه بطريقة أو بأخرى.

بابلو نيرودا

حيفا، ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٨

لم يفلح سليمان شهيد في أن يكتم الكآبة التي تسكنه منذ أسابيع. كانت روحه مسكونة بأفكار سوداء وهمّة فاترة ويأس ساحق.

لا يحفظ التاريخ، عموما، من حياة الرجال العظماء والشعوب العظمى سوى أوقات المجد أو المحن. إ يحذف الأحداث الصغيرة والظروف المعتمة التي تنضج فيها القرارات البطولية، أو تلك التي تثبط العزيمة، فتقود إلى مواقف مؤسفة.

اقتضت الضرورة التأكد من أن سليمان لم يرتكب أي فعل طوال حياته يدخل في هذا التحليل. لا أوقات مجد، ولا أحداث صغيرة.

أطرش في الزفة. هل يكفي انخراطه في الجماعات الثائرة ضد الاحتلال الصهيوني للتعبير عن مثال ما؟ ما الذي أنجزه هؤلاء التافهون؟ لا شيء. إنهم قلّة مقارنة مع التحدي الذي وجبت مواجهته منذ سنة ١٩٤٨. على كل حال، هل الخلاصة المشؤومة التي انتهى إليها تكمن في مهاجمة حافلة تذهب وتؤوب بين إيلات وتل أبيب؟

لم يسفر ذلك الهجوم سوى عن أحد عشر قتيلا.[1] يا لها من حصيلة هزيلة!

قتلت شابّة وجرح ثمانية عشر آخرون في «باتيش».[2] لم يحقق الهجوم النتيجة التي كانوا يرجونها.

وقتل عاملان يهوديان في ذاك الحقل قرب «نيفي حداسة».[3] وهي نتيجة تكاد تكون تافهة!

وأخيرا، ثمة انفجار أبريل/ نيسان الأخير في القدس، والذي شهد مقتل أربعة رجال شرطة إسرائيليين في جبل «سكوبيس». أربعة فقط، بينما كان ينبغي قتل الآلاف!

سيبلغ فواز الخامسة والخمسين. عمره أكثر من نصف قرن. لا نساء، ولا أولاد. ولا جدوى من وجوده.

إنه شاعر!

دفعته هذه الفكرة إلى إطلاق ضحكة متوترة.

يا له من حالم! ويا له من مجنون!

هل كان ممكنا أن يكون هو كاتب هذه الأبيات التي قرأتها ليلى؟ وهل كان من المعقول أن يكتب نصا ساذجا كهذا؟

أنشد بصوت مرتفع:

«قوس قزح في يدي أمضّني.
لا أطلب من الشمس إلا ليمونة
والذهب الذي يسيل من الآذان.

---

(١) ١٧ مارس/ آذار ١٩٥٤.

(٢) قرية أنشئت يوم ٣ مارس/ آذار ١٩٥٠، وهي تقع جنوب إسرائيل. وقد هوجمت يوم ٢٤ مارس/ آذار ١٩٥٤.

(٣) ٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦.

هنا، على منحدرات التلال،
أمام الغروب، قرب الضيعات في الظل المقطوع
أحتضر أملا.»

الدماء! هي كل ما سيروي عطشه. مزيد من الدماء.

فكر مجددا في الأسبوع الذي قضاه عند أقربائه في قرية برطعة، أو بالأحرى في نصف القرية. إذ قسم هذا المكان، عقب الهدنة بين إسرائيل والأردن، إلى قسمين: نصف شرقي ألحق بالأردن، وجزء اقتطعه الإسرائيليون. كانت الحدود مغلقة بإحكام، تحول دون أي اجتماع بين الأسر. فأن يعبر فواز نقاط التفتيش، فتلك معجزة.

أذرف الدموع، لكنه تمالك نفسه. فهي محرمة على المهزومين، وهو لن يعترف بالهزيمة أبدا. ليس قبل المعركة على الأقل. لكن أي معركة؟ وضد من؟ أو من يجب أن يحارب؟

أطفأ النور. أرّقه السهاد طويلا. لكن لم يراوده الشك في أن استعادة هويته هي مطلبه.

*

باريس، ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٨

- انتهى. لقد ماتت الجمهورية الرابعة، كما قال «دوبري» أثناء عشائنا، ودفنت باعتماد الدستور الجديد.

حدقت دنيا في زوجها، وقالت بنبرة غير مبالية:

- ما الذي سيتغير؟

- كل شيء! أجاب «جان فرنسوا». من الآن فصاعدا، ستُعيِّن رئيسَ الجمهورية هيأة تتكون من ثمانين ألف منتخب من الوطن وما وراء البحار. وسيكون لها الحق في حلّ الجمعية الوطنية، وفي طرح

أي مسألة متعلقة بتنظيم السلطات العمومية على الاستفتاء، وفي مزاولة صلاحيات خاصة عند الاقتضاء. وسيعود إليها أيضا تعيين الوزير الأول. أما سلطة البرلمان، فستحدَّد وتؤطَّر بشكل صارم. بات «دوغول» يملك الآن جميع المفاتيح لتسوية الأزمة الجزائرية.

- وهل سينجح في ذلك؟

- بالتأكيد. لقد انتهى عصر المستعمرات. وطويت الصفحة. أما اتفاقيات «سايكس- بيكو»[1] العبثية هذه، فقد نجت من الموت. إذ دامت أكبر كذبة في التاريخ اثنين وأربعين عاما، وخلفت آلاف الضحايا.

نهضت دنيا.

- سأهيئ الشاي. هل تريد كأسا؟

أومأ «جان فرنسوا» برأسه نافيا رغبته فيه.

قالت وهي تتجه نحو المطبخ:

- هل نحن ملزمان بالذهاب عند آل «لومير» هذا المساء؟

- لا يليق أن نلغي الزيارة في آخر لحظة، أليس كذلك؟

كان يسمع وقع خطواتها، وهي تذهب وتجيء داخل المطبخ.

- دنيا؟

ظهرت من جديد.

- أفضل الاحتفال بهذه السنة الجديدة هنا. لا أحد سوانا نحن الاثنين. لكن إذا كنت تعتقد أن...

- أظن أنها فكرة جيدة! أنا أؤيد فكرة عشاء عاشق، إذا...

---

(١) اتفاقات سرية وقعت يوم ١٦ مايو/ أيار ١٩١٦، بين فرنسا وبريطانيا العظمى (بموافقة الروس والإيطاليين)، اللتين كانتا تتخذان جميع الاحتياطات لتقسيم الشرق الأوسط بعد الحرب إلى مناطق نفوذ القوتين.

ترك جملته معلقة.

- إذا؟

- إذا كنت ما تزالين تحبينني.

- آه نعم؟ قالت مبتسمة. وإذا لم أعد أحبك؟ وإذا انتصر الوهن على الحب؟

- مستحيل! ليس نحن.

- وإذا كان الأمر كذلك؟

أتى حركة عَارضة.

- في هذه الحال، سأبذل ما في وسعي لأستردّك. إنها مسألة بديهية، أليس كذلك؟

- إنك واثق من نفسك. لكني أتفق أنك تستطيع أن تنجح في ذلك، بشرط.

توقفت لحظة، ثم قالت:

- شهر عسل.

- بعد ثلاثين سنة من الزواج؟

- ألفت انتباهك إلى أننا لم نعش هذا الشهر أبدا. أمامك فرصة للتعويض عما فات.

- ممتاز. وما هي الوجهة؟

- أترك لك الاختيار. حيث تشاء.

سارع إلى التأكيد:

- إلا الشرق الأوسط.

*

الكويت، المساء نفسه، ١٩٥٨

طلب أبو جهاد من النادل كأس شاي أخرى، واقترح على زيد وحسين بعض المازة. ثم مدّد قدميه، وهو يسند رأسه على الجدار خلفه.

وبما أنه التزم الصمت، فقد شجعه حسين على استئناف حديثه.

- هل ستلتزمان فعلا بكل ما سأقوله لكما؟

- لا غنى عن ذلك، أكد زيد.

- كان ذاك اليوم هو ٢٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٨. كانت القوات الصهيونية قد هاجمت يافا، يومين قبل ذلك. كان عمري اثنتي عشرة سنة. وقد أرسل عرب هذه المدينة بضع سيارات وشاحنات إلينا في الرملة. كانوا يلتمسون «المساعدة ليافا! المساعدة ليافا!» مازلت أرى رجال الرملة يصعدون إلى السيارات. هكذا كنا ننجد بعضنا البعض. كنا نعلم أن الصهاينة سيهاجمون الرملة واللد،[1] إذا نجحوا في الاستيلاء على يافا. وهو ما حدث فعلا. ففي ليلة واحدة، حاصروا المدينتين. وانسحب الجنود الأردنيون دون أن يخوضوا المعركة. كنا عزّلا محاصرين. لم يقوَ رجالنا على المقاومة. بِمَ كانوا سيفعلون؟ لم نكن نملك سلاحا. توجه عمدة البلدية ووفد منها إلى مسؤولين يهود. قال لهم: «حسنا، يمكنكم دخول المدينة، لكن يجب ألا تؤذوا الناس، وألا تأسروا أحدا، كما ينبغي أن تسمحوا لمن يأمل البقاء في البيوت بأن يفعل ذلك.» أجابه اليهود: «هذا غير وارد.»

- «غير وارد»؟ ردد حسين مذهولا.

- هذا بالضبط ما أعلنوه. إذ ذاك، وبعدما قررنا عدم الرحيل،

---

(١) منذ سنة ١٩٤٨، سميت المدينة «لود»، لكنها تبقى اللد في نظر الفلسطينيين.

صارت الرملة تقصف المدفعية. لا يمكن أن أنسى ما حدث. أصيب سقف بيتنا. كنا في الطابق الأرضي. سقطت قذيفة أخرى في الشارع، فتطاير باب بيتنا شظايا في كل اتجاه. آنئذ، أمر العمدة السكان باللجوء إلى المساجد والكنائس. كنا نسكن في الجزء المسيحي من الرملة، حيث فررنا إلى الكنيسة. ومكثنا فيها يومين قبل أن يدخل العدو المدينة. كنا ننام رجالا ونساء وأطفالا، ملتصقين بعضنا ببعض. كان البعض يبكون، وآخرون يصرخون: «دير *ياسين!* دير *ياسين!*» أيقنا بأننا سنذبح بدورنا.

اضطر أبو جهاد إلى أن يتوقف عن الكلام عندما جاء النادل بالشاي. انتظر حتى قدّم المازة، ثم استأنف قائلا:

- خاط لنا القس الذي كان معنا راية بيضاء. خرج للتفاوض مع الجنود، ثم عاد معهم. شرعوا في فرزنا. اقتيد الرجال الذين تراوحت أعمارهم بين أربع عشرة إلى خمس وأربعين سنة إلى السجون، ولم يبقَ سوى الأطفال والنساء والعجزة. وفي الليلة الثانية، استؤنف القصف بالمدافع وقذائف الهاون. وبما أن القصف لم يتوقف، فررنا من الكنيسة، وأخذنا نركض، نركض، ونركض حتى رام الله التي تقع على بعد عشرين كيلومترا. نصحت خالتي حينها والدتي بترك أخي وأختي: «لا تستطيعين أن تهربي بثلاثة أطفال. ستُقْتَلين. اتركي اثنين. وسنرسل من ينقذهما عندما نصل إلى رام الله.» رفضت أمي بالطبع. قالت لي: «أبو جهاد، أنت في الثانية عشرة من عمرك، ولست قويا بما يكفي، لكن هل تظن أنك تقوى على أن تحمل إحدى أختيك وتركض؟» أجبتها «نعم»، وهو ما فعلته. كيف أنسى ذلك؟

- وأين كانت القوات العربية طيلة هذا الوقت؟ لماذا لم تتحرك؟ ولماذا لم تهبّ لنجدتكم؟

ألقى الفلسطيني نظرة مريرة على رفيقيه.

- لأنه لم توجد قوات عربية في المنطقة، لا جنود نظاميين ولا متطوعين، ولا أي مسلح. كان اليهود يعرفون من نحن، وأين نوجد. كان الهجوم مقصودا ومحسوبا. كانوا يريدون أن يتأكدوا من أننا سنصل إلى رام الله في حالة ذعر وبؤس كبيرين. وكانوا يأملون أن ما سنرويه سيحمل عائلات أخرى على ترك بيوتهم ومغادرة وطننا تحت تأثير الخوف.(١)

اخترق طيف ملامح أبو جهاد.

حنى رأسه إلى الأمام، بينما تقوس كتفاه. يصدق عليه في تلك اللحظة مثل حامل همّ الدنيا.

*

القاهرة، ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٨

كان تيمور لطفي ونور يذهبان ويؤوبان بين غرفة النوم والحمام. انتهيا من حزم حقائبهما قصد الذهاب إلى ضيعتهما في طنطا بمصر السفلى بغية قضاء ليلة رأس السنة الجديدة.

كان السائق ينتظرهما في سيارة «بويك».

- أين قارورة كروم الزئبق؟ سأل تيمور، وهو واقف أمام خزانة الصيدلية.

- تكاد تكون فارغة. سنشتري واحدة في الطريق، أجابت نور.

- أين هشام؟ سنتأخر!

---

(١) هذه الشهادة (الجزئية) مأخوذة من كتاب «ألان هارت»، عرفات: *إرهابي أم صانع سلام؟* لندن، منشورات «سيدويك أند جاسون ليميتد»، ١٩٨٤، ص. ٩١ وما يليها.

- أنا هنا، يا أبي.

كان ابن تيمور واقفا على عتبة باب الغرفة.

- هل أنت جاهز؟

هزّ هشام رأسه.

- لن أذهب. أنا آسف.

- ماذا تقول؟

- لن أذهب. أخبروني للتو أنني رقيت إلى رتبة كولونيل. ولذلك، أنا...

- كولونيل؟ هتفت نور، وهي ترتمي بين أحضان هشام، وتغمره بالقبل. مبروك يا ابني، ألف مبروك!

بينما ظل تيمور ساكن الجوارح.

- وماذا إذا؟ كولونيل، أو جنرال، أو فرعون، ما الذي سيغيره هذا الأمر؟ فيمَ تمنعك هذه الترقية من الاحتفال برأس السنة مع العائلة؟ سيكون هناك أبناء وبنات أخوالك وأعمامك، اللهم إلا إذا كنا في حالة حرب!

- عندي سبب آخر.

اضطربت والدته.

- ما الذي حدث لك؟ هل أنت مريض؟

- إذا صح القول، نعم.

- هلا توقفت عن التعبير بالهيروغليفية، احتج تيمور.

- مِمَّ تعاني؟ سألت نور بانزعاج.

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتي هشام.

- هيا، هيا، دمدم تيمور. خلصنا! السائق ينتظر!

- أنا مغرم.

أطلقت نور صرخة فرح.

- مغرم؟ مغرم؟ يا لها من سعادة! إنه يوم السعد!

تقدم تيمور خطوة نحو ابنه. حدجه بنظرة ازدراء.

- هل هو السبب الذي سيجعلك تقضي عيد السنة الجديدة دون أهلك؟

- أليس سببا مقبولا؟ أنا متشبث بقضائه مع من أحب.

رمى تيمور ابنه بنظرة مشحونة بالارتياب والتمحيص في الآن ذاته.

- قل لي. أليست أرمينية، هي أيضا؟

انفجر هشام قبل أن يجيب:

- لا، يا بابا، إنها سورية.

- من عائلة ذات نسب وحسب؟ استفسرت نور.

- لا أعرف أي شيء، يا أمي!

نظر إلى ساعته.

- الآن، اركبوا. فالطريق طويلة.

- انتظر، انتظر، قالت نور. ما اسمها؟ وما عمرها؟ ومتى ستقدمها لنا؟

أمسك هشام بيد والدته، وقادها نحو المدخل.

- كل شيء في موعده. وكما قال النبي: «الصبر جميل».

عندما تحركت سيارة «بويك» وسط سحابة من الغبار، همست نور في أذن زوجها:

- إذا؟ ما رأيك؟

- لا أعرف! لقد تعبت من حمل همّ الدنيا!

عبرت السيارة نهر النيل عبر جسر قصر النيل، ذاك الأثر الباقي من الاحتلال البريطاني، واندفعت في ميدان الإسماعيلية، الذي بات

منذ الثورة يسمى بـ«ميدان التحرير». وقد دُكّت النافورة الرخامية الصغيرة البيضاء الساحرة، التي كانت تنفجر ماءً في وسطه، لتفسح المجال لمدارٍ شنيع. أدار السائق الراديو، الذي ظل يعيد الأخبار نفسها بين أغنيتين لأم كلثوم وفريد الأطرش. في النهاية، أمر تيمور بإقفاله.

لقد ضاق ذرعا بالسياسة، وعبد الناصر، والفلسطينيين، والأردنيين، والأرض برمتها. فهذا العالم لم يستنفد وقته فحسب، بل أفكاره أيضا وطاقته. منذ كم من شهر لم يعد يمارس الحب؟ فهل يصير المرء ميتا في سن الثامنة والخمسين؟ حتى عندما يقود المرء سيارته في الطريق، تهاجمه أخبار العالم العربي. لقد سلبت حياته!

ولماذا تكون هذه الأخبار مرعبة في الغالب؟ تصور مذبحة العائلة الملكية ونوري السعيد، وجثث تقدّم فريسة لدهماء تهذي... لم يكن يحمل هؤلاء العراقيين في قلبه، لكنه لم يتخيل نهايتهم المرعبة. ما كان يدهشه في هذه المأساة هو وقوف الإنجليز متفرجين، والأمريكيين بدرجة أقل. هل كانوا يرون أن الجنرال قاسم قادر وحده على تخريب بلده؟

أي شيطان مجنون ابتكر آلة الأفكار الجهنمية؟

في هذه المرّة، كان على تيمور أن يقبل أن آلته ليست أكثر جنونا من هذا الأمر: أجل، لقد سرقوا حياته. والأنكى أنه حدد هوية ذاك السارق. فهو يسمى تيمور لطفي.

لم يسمع صوت زوجته، التي كانت تسأله للمرة الثانية، إلا في لحظة لاحقة:

- هل تظن أنها من أسرة أصيلة؟

*

القاهرة، خلال الليلة ذاتها

انتهيا من ممارسة الحبّ.

التصق هشام بجسد شهيد العاري، ثم قال بصوت لم يتخلص من ارتباك نشوته:

- هل تعرفين أنك عاشقة رائعة؟ نعم، ينبغي أن أخبرك بذلك مئات المرات.

- ألف...

- ينبغي أن أجد ذات يوم إطراء أصيلا.

- قل لي إنني قبيحة ودميمة، ولا فائدة مني.

كرر كلامها، وهو يبتسم:

- أنت قبيحة ودميمة و...

ضربته بكفها على فخذه.

- أجلف!

بعد لحظة صمت قصيرة، همست مستغرقة:

- أظن أنني فرس النبي.

- لأنك تجهلين معنى فرس النبي. هل تريدين أن أشرح لك ذلك؟ هل تعلمين كيف تتغذى هذه الحشرة؟ إنها تتغذى على حشرات حيّة تصطادها بأرجلها أولا، فتشلّ حركتها، قبل أن تفترس أوعيتها الدماغية، ثم باقي جسدها حتى آخر جزء من بطنها.

قطّبت وجهها.

- بووووع!

- أي فائدة ستجنيها اليوم من أكل أوعيتي الدماغية؟ ما عدا التخمة طوال حياتك، لا أرى أي فائدة.

استوى على كوعه.

- هل قرأت مأدبة أفلاطون؟

- لا، فأنا أمّية. تصور أنه توجد كتب في سورية!

- هل تتذكرين هذا النص؟

- ليس حقا. يبدو لي أنه يعالج موضوع الحب؟

- تماما. تحاول شخصيات هذه المحاورة، بالتناوب، شرح ذاك الشعور الغريب الذي يدفع الكائنات، على نحو جارف، بعضها إلى بعض، إلى الأسوأ أو إلى الأفضل، أو إلى الاثنين أحيانا. وفي لحظة ما، تقدّم إحداها روايتها. أجدها رائعة جدا. فهي تقول إجمالا ما يلي: البعض رجال تماما، والبعض الآخر نساء تماما، والبعض الثالث رجال ونساء في الآن ذاته: خناثى. هكذا، لا يمثل هؤلاء كائنا واحدا فحسب، يفيضون بحب بعضهم بعضا، بل هم أيضا أقوياء لا تنفصم عراهم. هل تعرفين لماذا؟

حركت رأسها نافية.

- لأن الرجل يستمد قوته من صنوه الأنثوي، والعكس بالعكس. للأسف، فسرت المسألة بشكل سيء، حيث أصبح الكيان الجليل مختالا، حتى إنه حاول تسلق السماء. هكذا، عزم «جوبيتر»، ليعاقبهما، على فصلهما إلى اثنين: ذكر وأنثى. فانتهى الأمر. لم يعودا يشكلان واحدا، بل انفصلا إلى الأبد.

افتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة.

- السلام، أخيرا!

- إنما حرسا، رغم انفصالهما، على أن يظهرا من خلال الحب لبعضهما ذكرى حالتهما القديمة.

- وما الخلاصة؟

- الخلاصة: ها هو السبب الذي يجعلنا نمضي وجودنا في

محاولة إيجاد «الآخر»، ذاك الذي كان يشكل جزءا منا في الأصل. هذا الآخر «نحن».

- إنه أمر جميل، لكنه محكوم بالفشل.

حدق في وجهها. كان واجما.

- محكوم بالفشل، كما قصص الحب كلّها. ومع مرور الأيام، تصبح الخلافات الكثيرة مؤذية، والتشابهات الكثيرة أيضا. ولا مخرج من ذلك. فاللعبة خاسرة منذ البداية.

- في هذه الحالة، ماذا نفعل كلانا هنا؟

نظرت مليًّا في هشام.

- لأنك تهزني. كل ما تمثله يرجني بقوة.

- ماذا إذا؟

- إذا، أنا معذّبة. لقد بدأت أتمرد منذ وقت مبكر، في سن الرابعة عشرة تقريبا. وقد ترك هذا التمرد آثارا تُسَمِّمُ حياتي.

ثم سارعت إلى التأكيد:

- أعمل على ذلك.

همست، وهي تستأنف تأثرها الحقيقي.

- ساعدني.

أخذها بين أحضانه بطريقة عفوية. استأنفت كلامها:

- أنا أعي تماما أن ما يجري بيننا فريد. لن أقول إن ما نشعر به لا يحدث إلا مرة واحدة في الحياة. سيكون ذلك كذبا. لكني أريد، هذه المرة، أو بالأحرى لا أريد أن أدمر كل شيء مثلما كنت أفعل في الماضي. وهذا التغير في ذاتي مستعصٍ على التفسير. لكن اعلم أنك ستحتاج إلى صبر جميل، وستخفف من غلوائك كثيرا.

- ماذا تقصدين؟

- لا يفوتك أننا نتشابه كثيرا في بعض الأشياء، ولنا حساسية شديدة في كل شيء. فأنت عنيد ومزعج، ومتصلب نفسيا. أحيانا، لا أعتبر نفسي أكثر عصبية منك. وليس لدي هنا ما أضيف!

داعب وجنتها.

- أنت على حق ربما. إذا، ما دمنا نتحدث عن كل شيء، اعلمي أنه أمر لا أحتمله أبدا.

- نعم؟

- المعاناة.

- هراء! كفى. ها هي عزيمتك تفتر!

- لا، أنا أتحدث عن المعاناة العقيمة، تلك التي تولد من رحم علاقة القوة، من الغضب العبثي.

قال شارحا، بما أنها لم تتفاعل.

- لا تخيفني المعاناة. في المقابل، لا بد منها من أجل قضية حقيقية، لأنك تفتقدين إلى الآخر، ولأننا نشعر بالألم، ما دمنا نحب، لأنه كلما كان حاضرا، كلما شعرنا بالإحباط، ولأننا نرغب فيه دائما أكثر فأكثر. لا بد من المعاناة لأن الآخر يعيش محنة، فلا نستطيع تخفيف حزنه. إننا نسعد كلما عانينا أكثر. أجل. أجل مائة مرة. لكن، ليست المعاناة أن يأخذك أحدهم في نزهة ما إن يغيظه شيء ما. لا، وألف لا.

فكرت لحظة.

- يا هشام، دعك من استنتاج خلاصات خاطئة، ولا تحسب على الخصوص أني غبية، لا أبالي بأي شيء من أجل متعة اللامبالاة. فأنا أجرب، وأتعلم، تماما مثل طفل يحاول السير. أخطو بضع خطوات، ثم أسقط. غير أني لا أبقى على الأرض

دائما. أنتهي على الدوام إلى النهوض، حتى وإن كنت أترنح، وأواصل التقدم. أعرف أن أقوالي تتجاوز أحيانا فكري، لكن اعلم مع ذلك أنك آخر شخص آمل أن أكابد من أجله. ولا تنس أبدا أننا نغفر ما دمنا نحبّ.

ابتسم.

- إذا، كل شيء على ما يرام.

القسم الثاني

(١٣)

الزواج صفقة ضخمة لا نستطيع أن نصدقها (. . .)
قد يسعد بها المرء أو يأسى طيلة حياته.

موليير، *البخيل*

القاهرة، ٩ مارس/ آذار ١٩٦٣

- هذه المرة، انتهى الأمر! هتف هشام. لقد انكسرت الوحدة نهائيا بيننا وبين السوريين.

أمام أنظار والده الهادئ، تهاوى على أريكة، وأمسك رأسه بيديه. كان مظهره يوحي باليأس فعلا.

- لا أفهم كآبتك، علّق تيمور، وهو يمرر يده مرارا على خدّه. كنت أصدق المسألة التي سمعتها منذ سنتين، أليس كذلك؟ منذ انقلاب يوم ٢٨ سبتمبر/ أيلول، الذي قاده الجنرال الكزبرة الأرعن.

ابتسم هشام رغما عنه بسبب خلط والده في الأسماء.

- الكزبري. . .

- إنه اسم عصي على النطق! منذ ذلك اليوم، صرنا في «الجمهورية العربية المفككة»، أليس كذلك؟

رأى هشام أن الإجابة غير مفيدة، أو ربما لم يقوَ على ذلك، لأن والده كان يقول الحقيقة. ذلك أن الحماس الشعبي الضخم الذي

أثاره عبد الناصر في اللحظات الأولى لم يكن كافيا لتهدئة الاستياء المتزايد، أولا بين السياسيين السوريين المهمشين، ثم لدى الضباط الذين يعاملون بطريقة مهينة في الغالب على يد زملائهم المصريين. إذ انتهى هذا الاستياء إلى إيجاد سند داخل جزء من المجتمع السوري الذي كان يرى أن مصالحه تتهددها الإصلاحات «الاشتراكية» التي يريدها الريس. ومن جملة ذلك أن الإصلاح الزراعي وتأميم البنوك وشركات التأمينات والمقاولات الصناعية الكبرى أجهزت على انخراط البورجوازية الوطنية.

وفي صباح ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٦١، استولت وحدة عسكرية صغيرة على إذاعة دمشق، من أجل «تصحيح الأخطاء»، كما أكدت، مع ادعاء الحفاظ على الوحدة. فوجئ عبد الناصر، إن لم يكن قد استخف بحركة تبقى أقلية في نظره. وفي سورية، كان الجميع ينتظر تدخل الجيش المصري. لكن لم يحدث شيء.

في المقابل، شهدت الأشهر الثمانية عشر الموالية فوضى سياسية غريبة. وتتابعت حالات العصيان في ارتباك مدوخ حتى يوم الثامن مارس/ آذار ١٩٦٣.

كان هشام حينها موجودا بوزارة الدفاع، حيث وضعته ترقية جديدة في منصب كاتب الدولة. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، عندما أُخبر أن انقلابا جديدا، حرضت عليه جماعة من العسكريين والمدنيين، قد حدث في دمشق، وأن «مجلسا وطنيا لقيادة الثورة»، يتكون أساسا من بعض أعضاء حزب البعث، تولى رئاسة البلد.

إنها النهاية هذه المرة.[1]

---

(١) غير أن مصر ستبقي على تسمية الجمهورية العربية المتحدة حتى سنة ١٩٧١، حيث أصبحت تسمى جمهورية مصر العربية.

كان هشام غارقا في أفكاره. لم يسمع صوت كبير الخدم الذي ناداه للمرة الثالثة: «سيدة على الهاتف، يا باي.»

- هل أصبحت أطرش أم ماذا؟ صاح تيمور. الهاتف!

ما كاد هشام يرفع السماعة إلى أذنه، حتى تردد صوت شهيدة مفتخرا:

- ألم أقل لك إن الأمر لن يدوم!

أجاب بنبرة كئيبة:

- كنت على حق.

- أفترض أنك حزين، أليس كذلك؟

- بل يائس، لأن أمل توحيد العالم العربي صار يتهاوى، أكثر فأكثر.

- وهنا أيضا، سأذكرك بفكرة: العالم العربي غير موجود، بل هو في مرحلة القبيلة. كيف هي حالة الريس؟

- يجب أن ألتقي به بعد منتصف النهار. لكني أتصور أنه لن يستطيع فعل أي شيء. لا بد أن صديقك حافظ الأسد مبتهج بالأمر.

- كيف أعرف ذلك؟ تفيد آخر الأخبار أنه كان مسجونا في دمشق بتهمة محاولة خلع القدسي، أحد هؤلاء الكراكيز الذين مروا مرور الكرام في المجرة السورية.[1] من الناحية المبدئية، يجب أن يطلق سراحه، الآن وقد تولى أصدقاؤه البعثيون السلطة. أخيرا، أرجو ذلك.

---

(١) بفضل الانقلاب الذي قاده الجنرال الكزبري، انتخب ناظم القدسي رئيسا للجمهورية يوم ١٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦١، ثم خلع في مارس/ آذار ١٩٦٢، ليعود إلى منصبه بعد أربعة أشهر، قبل أن يخلع مجددا يوم ٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٣.

- أتصور أنك اتصلت بي قصد تذكيري بمدى عجزي؟

أقسمت.

- *Va fanculo*![1]

- الإيطالية، الآن. هذا تطور...

- أعرف...

صمتت لحظة.

- سأرحل إلى دمشق بعد ساعة.

- لست جادة فيما تقولين؟ ليس الوضع مستقرا هناك. لماذا هذا القرار؟

- دخل والدي المستشفي بسبب ذبحة. أخبرتني أختي بالأمر. يجب أن أذهب.

كانت تلك أول مرة تتحدث عن عائلتها.

- سلامتو!

تردد، قبل أن يقول:

- هل ترغبين في أن أرافقك؟

- لا داعي لذلك. نحن في الشرق، في حالة وجب أن أذكرك بذلك. وأنت لست زوجي.

- في الوقت الحالي...

- وللأبد! أتركك. يجب أن أحزم حقائبي. وداعا!

كانت قد أقفلت الخط قبل أن يجيبها.

---

(١) عبارة إيطالية وردت في النص الأصلي هكذا. وقد أحجم الكاتب عن ترجمتها إلى الفرنسية حفاظا على اللباقة والحشمة، كما قال على الهامش. لذلك، سأحجم بدوري عن ترجمتها إلى العربية، تاركا للقارئ فرصة البحث عن معناها (المترجم).

لم تكن تلك المرأة التي أحبّ، بل بركان جبل النار، إن لم تكن بركان «فيزوف».

كانت تنبعث، من مكان في الجوار، على أثير الإذاعة، أغنية قديمة لفريد الأطرش. كان يتغنى بتلك الأوقات البعيدة التي تبدو فيها الحياة تمضي قدما حتى آخر الزمن، في عذوبتها الفاترة والساخرة، التي كانتِ سرا من أسرار القاهرة. بل هي وهم، كما أسرّ هشام لنفسه.

كانت الأغنية تتواصل على مهل، قبل أن تفسح المجال للأخبار.

بصوت رتيب، تلا الصحافي أخبار العالم، وانتهى بآخر الاضطرابات التي هزت العراق يوم ٨ فبراير/ شباط، أي قبل شهر. هناك أيضا، استولى مناضلون في حزب البعث على السلطة، بعد أن خلعوا الجنرال قاسم وطغمته.[١] وختم الصحافي بالقول: «ومن بين الشخصيات التي فرّت قبل الانقلاب، علمنا بعودة الرجل الذي حاول اغتيال الجنرال قاسم سنة ١٩٥٨: صدام حسين عبد المجيد التكريتي. كان قد جرح، وحكم عليه غيابيا بالإعدام. فرّ إلى دمشق، ثم إلى القاهرة حيث شرع في دراسة القانون، مع تأطير الطلبة البعثيين هناك. ويبدو أنه كان قريبا من السلطة الجديدة، ومن الرئيس الجديد عبد السلام عارف. إذ عين كاتبا للقيادة الجهوية الجديدة في العراق.»

صدام حسين؟ من أين خرج هذا أيضا؟ تساءل هشام. صدام، «هذا الذي يصدم». حتما، لن يتوقف العالم العربي، أو علبة البندورا، عن مفاجأته.

*

(١) أعدم قاسم في اليوم التاسع من الشهر نفسه.

بغداد، ١٠ مارس/ آذار ١٩٦٣

عندما لاحظ فواز البغدادي صدام حسين واقفا أمام أعضاء الحزب المجتمعين في هذه القاعة ذات الجدران المتداعية، تخيل أنه في حضرة رجل من العوامّ إلى حد ما. استنتج من كاتب القيادة الجهوية الجديدة شيئا لا يوصف، «ذو نشاط إشعاعي»، فاسد إلى أبعد حدّ. فهو ينتمي إلى هذه الشريحة من الأفراد مرهوبي الجانب الذين نَمْقُتُهم؛ وهذه الفئة التي تحترمها الشعوب، بشكل متناقض، لأنها تشعر أنها قادرة على مكابدة الألم وإذاقته للآخرين. غير أنه بدا، لحظة دخوله، مثل شخصية مبتذلة، في سترة فضفاضة صقيلة، وربطة عنق ذات ألوان زاهية. لم يحيِّ المجلس بتلك الإشارة اليدوية الودية العزيزة على عدد من رؤساء الدول العربية، بل بتحية عسكرية طويلة مستعارة بخفة، كأنه جندي بسيط يشعر بحرج شديد في حضرة جنرالات.

غير أنه ما إن تناول الكلمة، حتى تبخر هذا الانطباع الأول. لم يكن الرجل مبتذلا في أي شيء، بل نهابا مفترسا. حمد فواز الله، لأنه مازال على قيد الحياة.

بعد انقلاب فبراير/ شباط، صار كل شيء يعاكسه مع ذلك. ألم ينضمّ مبكرا إلى أنصار الجنرال قاسم الذي التحق بعالم الأموات؟ فعلى جري العادة، كان من المفروض أن يقتل رميا بالرصاص، أو يزجّ به، في أفضل الحالات، داخل سجن، في زنزانة مظلمة، مدى الحياة.

في الحقيقة، إذا كان قد أفلت من هذه العقوبة أو تلك، فذلك بفضل الحماية التي ينعم بها في كنف عبد السلام عارف، الرجل الأقوى الآن في البلد.

ومنذ أن اعترض الكولونيل على قاسم، لم يتردد فواز ثانية واحدة في اختيار معسكره، إلى جانب حاميه.

- بون! يعينني سفيرا في بون!

- وماذا أنت فاعل؟

- إسقاطه! ردّ عارف حينها رابط الجأش.

- أنت تمزح، طبعا!

في يومه ذاك، لم يكن عارف يمزح.

بعد بضعة شهور، في شهر يوليو/ تموز ١٩٥٨، حاول تصفية خصمه. حكم عليه بالإعدام في البداية، لكن عقوبته خففت إلى السجن المؤبد. ومن باب المعجزات، حصل على العفو وأطلق سراحه سنة ١٩٦١.

هل يمتلك الطغاة روحا؟

استنتج فواز أنه إذا سعى الأقوياء إلى استمداد القوة من أنفسهم، فإن الساسة، بدورهم، سيقطفونها حيث هي. كان عارف قويا. وبالنيابة، أصبح فواز كذلك.

الآن وقد بدت الأزمة متلاشية، فإن السؤال الآخر الذي يطرح نفسه يتمحور حول صدام حسين هذا. فإلى حدود أمس، لم يكن يعرف عنه شيئا. حتى وإن أضاء له عارف جزءا من سيرته، فإن نقاط عديدة منها تبقى غامضة.

ربما كان هذا «الصدام» قد رأى النور قبل ست وعشرين سنة في قرية قرب تكريت، الواقعة على بعد مائة كيلومتر شمال بغداد، في عائلة زراعية عربية سنية. بعد وفاة والده، كفله خاله الذي جاء به ليعيش ويدرس في العاصمة. وفي وقت مبكر، شغف بالسياسة، مما يفسر بلا شك مبادرته إلى الانخراط في الفرع العراقي لحزب البعث

سنة ١٩٥٦، غداة الهجوم على مصر. كان عمره تسع عشرة سنة فقط.

لم يكد يلتحق بالحزب، حتى نحت لنفسه سمعة خاصة، وهو يغتال واحدا من أنصار الجنرال بدم بارد. وكان من الطبيعي أن تعينه القيادة العامة، فيما بعد، ضمن أعضاء الكومندو المكلف بتصفية الجنرال الخائن. خاب مسعى المحاولة. غير أن صدام أظهر شجاعة نادرة أثناء العملية، وهو يستولي على سيارة، تحت وابل من الرصاص؛[1] آمرا بإخراج رصاصة استقرت في فخذه، ثم وهو يهب ليمنع رفاقه خائري القوى من حمل عضو من الكومندو أصيب بجروح بليغة خلال محاولة الاغتيال إلى المستشفى. لا أحد يستطيع أن يصف مكره في الإفلات من هذه العملية، مخترقا حواجز الشرطة، متشردا بين البيوت والمدن، قبل أن يلجأ إلى سورية. هل كان ذلك أسطورة أم حقيقة؟ لا أحد يعلم، لكن اليقين الوحيد هو أنه ظهر، بعد انقلابه الفاشل، في القاهرة طالبا يدرس القانون. وبعدما أخفق في السنة الأخيرة، عاد إلى بغداد، حيث تسجل في جامعتها، ونجح في الحصول على شهادته. هل كان ذلك أيضا أسطورة أم حقيقة؟ لقد حضر يوم الامتحان مدججا بالسلاح، مرهبا الممتَحِنين. وفي القاهرة، طلب يد ابنة خاله ساجدة طلفاح، التي لم تملك خيارا آخر سوى القبول، حيث جرى الزفاف عند عودته إلى العراق.

عاد صوت صدام بفواز إلى الحاضر.

- إني لأرى رؤوسا قد أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فجمع عيدانها فوجدني أمرَّها

(١) عرضت السيارة المليئة بثقوب الرصاص في قصر صدام حسين.

عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي، لأنكم طالما آثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكِّلنَّ بكم في البلاد، ولأجعلنّكم مثلا في كل واد، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق، لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال، وكان ويكون. يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف، حتى يُذلَّ الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، ثم إني وجدت الصدق مع البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجَّهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن صفرة، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلا يتخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.[1]

لم يصدق فواز أذنيه. لم يكن مجردَ نهّاب، بل متنورا حقيقيا.

كاد يقفز من مكانه عندما توجه إليه كاتب القيادة الجهوية الجديد، وهو يعبر القاعة.

- السلام عليكم، يا أخي. لقد حدثني رئيسنا المحبوب عارف عنك طويلا.

---

(١) نص خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق. وقد وظفه الكاتب في هذا السياق، مترجما من كتاب برنار لويس "Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople" (الإسلام من النبي محمد إلى الاستيلاء على القسطنطينية)، منشورات جامعة أكسفورد، ١٩٨٧.

تساءل فواز: بأي سحر تعرف عليه من بين مائتي شخصية؟ هل كان صدام يقرأ الأفكار؟ استأنف قائلا:

- رأيتك في مكتب الرئيس بالقصر منذ شهر. لست من هؤلاء الرجال الذين يُنْسَوْنَ بسهولة.

سرت قشعريرة في ظهر فواز. كيف يمكنه أن يؤول هذه الملاحظة الأخيرة؟

تمتم:

- يشرفني ذلك، السيد القائد.

ابتسم صدام، ومدّ يده إليه. كانت يده ناعمة ورطبة.

*

بيروت، أغسطس/ آب ١٩٦٣

شقت ليلى خالد باحة الجامعة الأمريكية في بيروت بخطوات رشيقة، وهي تتجه إلى المدرج.

في سن التاسعة عشرة، صار قوامها ممشوقا. بدت عيناها أوسع. اكتسى وجهها سيماء شبه طفولية، ذات نعومة مدهشة. يرى كل من قابلها أن لها شبها غامضا بالممثلة «أودري هابرن».

شمس رائعة تتلألأ في السماء.

كانت ما تزال تواجه صعوبة في إقناع نفسها بما منحت من سعادة. طوال هذا الوقت، كان عليها أن تتحمل قيود العائلة، واحترام التقاليد والاستقامة، وعلى الأخص الحيف الكامن في وضعها كامرأة. تجلى ذلك بوضوح في تفضيل أخيها خالد عليها. إذ رغم أنها اجتازت امتحان الباكالوريا بامتياز، وفشل هو في إحراز الشهادة، إلا أن أسرتها سجلته في الجامعة الأمريكية في بيروت،

لتجتر المرارة وتكظم غيظها حتى سنة ١٩٦٢. وفي قرارة نفسها، كان العزم يكبر على التمرد على ذكورية المجتمع العربي وأغلاله وطقوسه البالية.

لكن وجب عليها الاعتراف بجميل أخيها محمد، الذي يعمل مهندسا في الكويت: أليس بفضل سخائه استطاعت اليوم أن تتابع دراساتها الجامعية؟

خلال السنوات الأخيرة، قرأت كثيرا، وتأملت طويلا في وضع شعبها النازح، وأصبحت تعي أصولها التاريخية يوما بعد يوم. كما تعلمت أن أشخاصا في العالم كله قاتلوا في سبيل الحرية، وضحوا بأنفسهم، فانتصروا بفضل المثابرة والعناد. شيئا فشيئا، اقتنعت بأن العمال واللاجئين والمضطهدين والمرؤوسين ومنسيي المجتمع يملكون القدرة على رفع رؤوسهم واستعادة كرامتهم شريطة أن يرغبوا في تحقيق ذلك.

كان درب التفكير بطيئا لأنها تعلمت، طوال سنوات الدراسة، أنها لا تملك تاريخا، وأنها لا شيء، وأن الشعب الفلسطيني ليس سوى نسج من الخيال، وأنه لم يوجد، ولن يوجد أبدا. لكن من حسن الحظ أنها اكتشفت، في تعطشها إلى المعرفة، وعبر قراءاتها، أن حضارة عربية كبرى كانت موجودة، وأنها نقلت للعالم إرثا ثمينا، مثل علم الجبر، وعلم الصيدلة، وعلم الخرائط، ونقلت الصفر- الذي استوردته من الهند- والطب، وعلم الفلك، وعلوما كثيرة أخرى. إذ اطمأنت إلى فكرة أنها لم تولد من رحم «لاشيء»، وأن شعبها كان جزءا لا يتجزأ من هذه الحضارة العظيمة؛ ومن هنا، كانت موجودة. فأي أهمية إذا لحملات التضليل التي يقودها الصهاينة سعيا إلى تشربها؟ كانت هي، ليلى خالد، تعرف أهميتها. فذات يوم، ستقاتل هي أيضا، على غرار الشخصيات الأسطورية

الكبرى. لن تمنعها أي قوة في العالم. أجل، ستقاتل. كان قرارا عنيدا، مثلما كان عزمها على عدم الاحتفال بعيد ميلادها أبدا. سيبقى يوم ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٤٨، أي يوم انتزاع أرضها، يوم حزن طالما بقيت على قيد الحياة.

(١٤)

المروءة هي أن تعترف بالحق، وليس أن تطالب به.

مثل صوفي

القدس، فاتح سبتمبر/ أيلول ١٩٦٣

تنهد «أفي فراينكل» تعبيرا عن يأسه.

- لن ينتهي هذا الأمر أبدا.

نظر إلى «أفرام برونشتاين» نظرة تنم عن حرج.

- هل تعلم كم تكبدنا من هجوم خلال الشهور الماضية؟ أكثر من عشرة! في الأسبوع الماضي أيضا، نتج عن هجوم بالمدفعية على «كيبوتس غونان» مقتل أحد رعاتنا، وجرح واحد وثلاثين مدنيا. لقد دخلنا في متاهة جهنمية لا أرى مخرجا منها.

رشف «أفرام» آخر جرعة من قهوته، تأمل لحظة، ثم هز رأسه.

- تعرف رأيي. وأعلم أنك لا تشاطره.

احمر وجه «أفي».

- أترغب أن نحزم حقائبنا، ونعود إلى أوربا لنتحمل المزيد من البصاق والإهانات والشتائم والمعسكرات؟ اعذرني، لكنك مجنون! اسمح لي، مع كل الصداقة التي أكنّها لك، بأن أقول لك إنني أتقيأ رأيك.

- اهدأ. لم أقترح أبدا أمرا فظيعا كهذا. لنا الحق في أرضنا، وبلدنا، واستقلالنا. لكني لا أتفق مع من يعتبرون، أمثال «مناحيم» وآخرين، أن الطبيعة تقتضي أن يحدث هذا الأمر على حساب شعب آخر، لا يتحمل أي مسؤولية عن المآسي التي ألحقها بنا العالم الغربي.

- لكن أخيرا، يا «أفرام»! ها أنت تقول شيئا لا معنى له! لقد اقترح التقسيم إلى *بلدين*، و*دولتين*، و*شعبين*. والعرب هم الذين رفضوا، وليس نحن! إنهم هم من أعلنوا الحرب، غداة إعلاننا الاستقلال. وإذا كانوا ما يزالون هنا اليوم، فما عليهم سوى أن يلوموا زعماءهم، وحكوماتهم وقادتهم البلداء المستريحين على أرائكهم، يشجعون أعمال القتل والانتحار، وفي مقدمتهم عبد الناصر!

كرر فاصلا بين الكلمات:

- لقد اقترح التقسيم!

أيده «أفرام»، لكنه قال ملاحظا:

- علينا أن نمد يدنا الآن.

- لِأي سبب، مِن فضلك؟

- حتى تحيا إسرائيل في أمن. حتى تحيا إسرائيل باختصار. في أي عالم تريد أن يكبر أولادنا؟ قل لي، يا «أفي». في الخوف، والقلق، وحالة الحصار الدائم؟

- لم تجب بعدُ عن سؤالي: لماذا علينا نحن أن نمدّ يدنا؟

- لأننا مسؤولون عن الوضع الراهن، كما أن العرب مسؤولون عن حرب الاستقلال. فإذا امتد الوضع، فإن إسرائيل ستتحول تدريجيا إلى قلعة، في حالة حصار على الدوام، تواجه في الداخل أعمال شغب، وإضرابات، وتظاهرات ثائرة. سيكون علينا أن نردّ.

أخشى بقوة حينها أن نفقد التعاطف الذي تبديه الأوطان الغربية تجاهنا.

- أنت تهذي!

- لا تنسَ أبدا أنه إذا كان العالم قد أظهر بعض العطف على شعبنا، فلأننا ظللنا ضحايا على امتداد التاريخ. فماذا سيحدث غدا، لو صرنا جلادين؟

- لكن العرب هم من يريدون خسارتنا! إنك تقلب الأدوار! فهم يريدون «رمينا في البحر»، واستئصالنا! هل سمعت خطاباتهم؟ هل قرأت صحافتهم؟ وهل اطلعت على كاريكاتيراتهم المهينة والشائنة التي تفيض بها جرائدهم؟ إنهم لا يطمحون سوى لشيء واحد، يا «أفرام»، وهو تصفيتنا. صدقني، لو استطاعوا ابتكار معسكرات القتل مرة ثانية، لما ترددوا في ذلك ثانية واحدة!

- دعني أنهي كلامي، من فضلك. يكمن الحلّ الوحيد في أن ينأى الطرفان المتواجهان، أي الفلسطينيون ونحن، عن مطالبتهم بمجموع تراب البلد. أعترف أنها خطوة موجعة جدا، لأن كل طائفة من الطائفتين مقتنعة اقتناعا راسخا أن هذه الأرض هي أرضها على نحو مشروع. غير أني أظل مقتنعا أن هذه الخطوة تمثل ضرورة مطلقة، إذا أردنا أن ننهي المتاهة الجهنمية التي تحدثت عنها، وإذا أردنا أن نتفادى مأساة ستقع عاجلا أو آجلا.

صمت لحظة قبل أن يختم قائلا:

- هذا رأيي.

اعتصم «أفي فراينكل» بالصمت لحظة، ثم قال:

- يجب أن تشرح كل ما قلته للتو ببلاغتك الجميلة للفتاة التي حاولت البارحة وضع قنبلة في فندق «سافوي» في تل أبيب. لو لم ينذر عملاؤنا بذلك، لحصلت مذبحة.

قطّب «أفرام» حاجبيه.

- فتاة؟ ومن هي؟

- شابة في الثامنة والعشرين، تنحدر من المدينة القديمة. يا لها من مجنونة! ويا له من أمر مؤسف بالنسبة لها. إنها امرأة فاتنة، ذات عينين زرقاوين. كان يمكن أن تزعم أنها أشكنازية.

- عربية ذات عينين زرقاوين؟

- أجل... هذا مدهش، أليس كذلك؟

أصاب دوار «أفرام» فجأة. ماذا لو...؟

- ما اسمها؟ سأله متشوقا.

- اسمها؟ فيم يعنيك ذلك؟

- قل لي.

- كيف تريدني أن أتذكره؟ إننا نعتقل العشرات من الأفراد مثلها كل أسبوع.

- جمانة؟

منح «فراينكل» نفسه بضع دقائق من التفكير.

- لا يعني لي هذا الاسم شيئا.

- النابلسي؟

- النابلسي...

اخترق بريق عيني «أفي».

- النابلسي. فعلا، اسمها جمانة النابلسي. أنا...

- أين أخذتموها؟

- إلى السجن المركزي في الرملة. لماذا؟

انتابت عميل الموساد حالة ذعر.

- لا تقل لي إن...

- لا شيء مما تتصور. التقيت بها، مرة هنا في القدس، منذ خمس سنوات. كادت تُقتَل. وقد أنقذتها. ولا شيء غير ذلك.

- لقد تصورت ما هو أسوأ.

- تصورتَ خطأ.

بعد برهة، طلب «أفرام»:

- أريد أن أراها. هل يمكن أن تتدبر لي إذنا بزيارتها؟

- أن تراها؟ لكنها إرهابية! ثم إنك أخبرتني أنك لا تعرفها في الواقع!

- من فضلك، يا «أفي»، كُفّ عن سؤالي. نعم أو لا؟

- نعم، إذا كانت تلك رغبتك.

- متى؟

- آه! اهدأ! أمهلني ثمان وأربعين ساعة. لقد انتظرت خمس سنوات، ويمكنك أن تنتظر يومين إضافيين!

- ثمان وأربعون ساعة...

*

باريس، ٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٣

عبر النافذة الزجاجية الضخمة في مطعم «تور دارجون»، يظهر صولجان كاتدرائية «نوتردام» الهائل يتلألأ في الليل. وحتى المزاريب كانت عابسة بسبب الريح الثلجية، رغم أن الشتاء لا يزال بعيدا.

رفعت دنيا كأسها نحو «جان فرنسوا»، ثم قالت بنبرة مفخمة:

- أشرب نخبك ونخب هذا الـ«روماني كونتي»[١] الرفيع.

---

(١) نوع من النبيذ.

- أنا سعيد بأنك تذوقته، أنت التي لا تستطيبين النبيذ كثيرا.
- صحيح. لكن كيف لا أبالي به هنا؟
نظرت إلى القنينة بعين الإعجاب.
- ١٩٤٤ . . . نحو عشرين سنة من العمر.
- عمرنا نحن.
- عمرك. أما أنا، فلم أعد سوى عروس عجوز كثيرة التجاعيد.
- إذا، يجب أن أدرك قيمة العرائس العجائز خصوصا.
تناول هو الآخر كأسه، وقرع كأس دنيا بلطف.
- نخبك، يا حبيبتي. نخبنا.
رشفا جرعة باحترام، كأنهما يشربان ماءا مباركا. استأنفت دنيا كلامها قائلة:
- هل تعلم أن شهر عسلنا مازال ماثلا بين عيني؟ لقد أحببت اليونان، ومناظرها التي تجمع بين القسوة والعذوبة، بين الجدب والخصوبة، وبين البحر والسماء. لا بد أن نعود إليها يوما ما.
- إن شاء الله!
- ما لم تكن مكلفا بمهمة.
أردفت، وهي تبتسم:
- لم تعد مكلفا إلا بي.
- أنت على حق. انتهى الشرق. ولى عهد المستعمرات. أضحت الجزائر مستقلة و. . .
- أجل، مستقلة. لكن بأي ثمن! كم من دماء سفكت! واليوم، ماذا عن جميع هذه الأقدام السوداء[1] المستأصلة، لا هي بقيت في

(١) عبارة تطلق على المستوطنين الأوربيين الذين سكنوا الجزائر أو ولدوا فيها خلال الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠- ١٩٦٢) (المترجم).

وطنها، ولا هي عادت إلى هنا، وستبقى طوال حياتها تحلم بعذوبة الأيام الخوالي؟ إنه أمر محزن.

- أعرف. لم يوجد منفى جميل أبدا. كل منفى يمثل معاناة.

غاص «جان فرنسوا» بنظراته في عيني دنيا، ثم استأنف:

- أحب أن أخبرك بشيء مهم.

أمعنت النظر إليه، مندهشة من نبرته المفخمة.

- ها قد مضت ثلاثون سنة منذ أن تزوجنا. إنه عمر. ليس عمرا طويلا في نظري، لكن نهايته مازالت بعيدة. سنحيا بضعة قرون أخرى، إن شاء الله. لقد أحببت كل ثانية. وتلذذت بكل يوم وليلة من أيامنا المشتركة. لن أستطيع أبدا أن أشكرك على كل لحظات السعادة التي عشتها بفضلك.

سكت. طأطأ رأسه، كأنه خجل من بوحه ذاك.

أمسكت يده بعفوية، واحتضنتها بقوة.

- أنت جميل، يا «جان فرنسوا». آه! ليس جسديا فقط. لا. أنت جميل في الداخل. روحك جميلة. لهذا أحببتك. لأحبك... أكثر.

عضّت على شفتها السفلى، واستدارت بوجهها نحو أرصفة نهر السين حتى لا يرى الدموع المترقرقة في عينيها.

- حبيبتي...

بقيت جامدة.

- أنا...

استدارت نحوه، كأنه أنهى جملته.

فجأة، سمعت صرخة. أم أنها هي التي صرخت؟

انهار «جان فرنسوا»، وتدلت رأسه.

- «جان فرنسوا»!

استدار الزبناء المندهشون بنظراتهم نحو الزوجين. اقترب منهما رئيس الفندق.

- سيدتي...

- بسرعة! اطلبوا النجدة! بسرعة!

علا الهرج والمرج. جرى شباب في كل الاتجاهات.

- «جان فرنسوا»... قالت دنيا شاهقة.

رمش، وحاول أن يبتسم، لكنه لم ينجح. رفع يده اليمنى، وأمسك بذراع زوجته.

إنه يغرق، ويتدفق، هكذا ظنت والخوف ينتابها.

- حبيبتي... أنا...

كانت تلك كلماته الأخيرة.

اضطرمت شمس الشرق كلها في قلبها دفعة واحدة.

*

القاهرة، في اللحظة ذاتها

انتهت الوجبة. نهض الضيوف، وانتقلوا إلى الصالون. قدم كبير الخدم المرطبات والقهوة، قبل أن ينسحب. حينها طلبت شهيدة إضافة نسغ من «دجين» في مشروبها الغازي؛ في حين، قدّم هشام كأس «جوني والكر» مثلج لأنور السادات، ولنفسه كأسا أخرى.

لم تقوَ شهيدة على أن تمنع ابتسامتها. كانت تعرف أن رئيس مجلس الأمة عاشق كبير للحشيش، وليس لـ«سكوتش».

تبادلت نظرة متواطئة مع هشام. كان سعيدا بحضورها هذا المساء. كان يخشى، إلى حدود الدقيقة الأخيرة، أن تغير رأيها. لم تكن تحبّ كثيرا هذه الأمسيات المتصنعة حيث يتظاهر كل واحد بقبول الآخر، بينما هو يضمر شيئا آخر.

عادت إلى القاهرة ما إن غادر والدها المستشفى، واطمأنت إلى أنه تجاوز مرحلة الخطر. عند عودتها، كان لقاؤها بهشام كما يجب أن يكون: قويا، وحارقا، وعاصفا. خلال السنوات الخمس الأخيرة، ومثلما كان متوقعا، انقطع الوصال بينهما مرات عديدة، وصفا بعضهما بكل أسماء الطيور، وأقسما ألا يلتقيا أبدا، لكن لم ينجحا في الانفصال فعلا. حتما، كانت هناك قوة خفية تقود أحدهما نحو الثاني. هددته دائما باتخاذ عشيق آخر، لكنه ظل يرفض أن يصدقها، ليس ادّعاء، بل وفاءً. لا يتصورها بين أحضان شخص آخر، سيفقد عقله. لم يكن هاجسه أن تمنحه جسدها. لا. إذ كان مقتنعا- ربما خطأ- أن شخصيتها تجعلها عاجزة عن أن تمنح ذاتها، وتقدم جسدها فعلا، وكلية، مثلما تفعل معه. لذلك، سيدق اليوم الذي ستخطو فيه خطوتها ناقوس نهاية حبها له. كان عاجزا عن إدراك هذه الحقيقة بالذات.

كانت شهيدة موزعة، منذ ذلك الحين، بين دمشق والقاهرة. رغم أن والدها نجا من الموت، إلا أنه ظل هشا. أما هي، فلا تقوى أن تفارقه أكثر من أسبوعين. كان صديقا وأخا وزوجا. يمثل عند شهيدة هؤلاء كلهم في الآن ذاته. ذات مساء، بينما لان طبعها أكثر من العادة، اعترفت لهشام بقوة تعلقها به. لم يندهش هو بذلك بتاتا. إذ لا يمكن لشخصية عنتر المالكي- وكان هذا اسمه- سوى أن توحي بهذا النوع من الشعور. في البداية، كانت متكتمة، لكنها بدأت ترفع الستار، شيئا فشيئا، عن حياتها العائلية. فآل المالكي من أعرق العائلات الدمشقية. فهي تنتمي إلى تلك الأسر التي تمتلك السلطة، أو الثروة، أو المعرفة، والقادرة على التأثير المؤقت أو الدائم في مجتمعاتها. ولد سنة ١٨٩٦، وهو خريج جامعة دمشق، وحامل لشهادة الدكتوراه في القانون الدولي. أشرف عنتر على الوفد السوري

المكلف بالتفاوض حول إنهاء الانتداب وتعويضه بـ«بروتوكول تحالف» بين فرنسا وسورية. بعد ذلك، واصل العمل بحماسة حتى تحقيق الاستقلال النهائي سنة ١٩٤٦ . ومنذ ذلك التاريخ، اعتزل الرجل السياسة. هل كان متعبا؟ لا شك في ذلك. أم كان سعيدا بالنجاح أخيرا في تحقيق الهدف الأسمى؟ كانت شهيدة ترى أن الفرضيتين غير منسجمتين. ومهما كان السبب، فإن عنتر لن يكرس حياته، من اليوم فصاعدا، سوى للكتابة، جامعا بين المقالات الفلسفية والقصائد بموهبة متساوية.

- يزعم الأمريكيون أنهم حلفاؤنا، لكنهم إجمالا أكثر وحشية من الإنجليز!

غطى صوت أنور السادات على النقاشات الجارية. استأنف كلامه قائلا:

- أجل، فهم لا يعرفون أي شيء عن الشرق. يظنون أنهم سيكونون على حق دائما، لأنهم أقوياء. يجب ألا ننسى أبدا أنهم هم من حرضوا على تأميم قناة السويس. فعندما رفضوا طلب عبد الناصر تمويل السدّ العالي، قرر أن يستولي على مداخيل القناة، فأدى ذلك إلى العدوان الإنجليزي- الفرنسي. ثقوا بهم: فحيث تدخلوا، سيبثون الفوضى!

- في رأيك، من هم أكبر أعداء عبد الناصر؟ سأل هشام، مبتهجا بنبرة رئيس مجلس الأمة.

- سؤال جيد، يا صديقي. هناك أربعة. العدو الأول هو إسرائيل، والثاني هو البترول، والثالث هو الخصومات بين البلدان العربية، والرابع هو نفسه، وهو العدو الأسوأ.

كرع هشام جرعة ويسكي.

- لست متفائلا.

- لا أرى علاقة لذلك، يا عزيزي، لم أفعل سوى أن أجبت على سؤالك. للرئيس كامل ثقتي، مثلما يشرفني بثقته.

افتر ثغر هشام عن ابتسامة.

لقد ولى ذلك الزمان الذي كان ينادى فيه باسم «فون» السادات، حتى إنه أصبح يتحدث باللغة الألمانية. صحيح أن دبابات الماريشال «روميل» كانت تعسكر في تلك الفترة على بعد بضع ساعات من أبواب القاهرة. كما ولى ذلك الزمان الذي كان يستغل فيه الراقصة الشهيرة حكمت فهمي، التي كانت تعيره بين الفينة والأخرى ذهبيتها[1] على النيل بغية تنظيم سهرات تستدعى لها عاهرات لهن علاقات ببعض الضباط الإنجليز. كان يصيخ السمع ويلتقط المعلومات المفيدة في نظره، حتى ينقلها إلى الألمان فيما بعد.

لاحظت شهيدة قائلة:

- في كل الأحوال، اسمح لي السيد الرئيس، أخشى أن يكون الريّس في ورطة.

رماها السادات، الذي كان بصدد إشعال غليونه، بنظرة متحفظة.

- ماذا تقصدين يا سيدتي؟

- أعني أن القرارات التي اتخذها مؤخرا قد تعصف بكل الاقتصاد في بلدك.

- بلدي؟ أليس بلدك أيضا؟

- أنا سورية، يا سيدي الرئيس.

- آه...

- كنت أقول إذا إن الريس يلعب بالنار.

---

(١) سفن مصرية خاصة تكون أحيانا بمثابة «بيوت عائمة».

- هل توضحين فكرتك أكثر، من فضلك؟

- سيتبين أن هذه اللجنة، التي أنشأها باسم «تصفية الفيودالية»، مجرد آلة جهنمية. إذ طرد أربعون ربّ أسرة عنوة من بيوتهم، ورُمُوا في السجن. قيل لي إن ضباطا حضروا إلى الجيزة، إلى قصر سرسق، قصد إيقاف مالكه. عندما أيقنوا أنه غير موجود، انقضوا على شقيقه وأركبوه سيارتهم. بعد ذلك، منحوا العائلة بضع ساعات حتى يحزموا حقائبهم، ثم أخلوا المكان. ها هي إقامة فاخرة تصادر، دون أي تعويض.[1]

سحب السادات نفسا من سيجارته، ثم أجاب ببرود:

- ماذا تريدين؟ يكلف نجاح الثورة هذا الثمن. نحن نوزع الثروة بإنصاف ونزاهة على المعوزين.

كانت تهم بالردّ، لكنها تراجعت بعد إشارة خفية من هشام.

ومع ذلك، لم تكن مخطئة. لكن كان ينقصها الكثير.

منذ بضعة أسابيع، تشهد مصر سلسلة فريدة من أحداث مصادرة الممتلكات دون أي تعويض، ولو مجرد معاش «غذائي» رمزي، وفي غياب أي حكم، وببذاءة تعود إلى أيام ستالين الأكثر سوادا.

«ماذا؟ صرخ أحد ضحايا هذا السطو، إنهم يريدون أن أتلقى معاشا غذائيا مثل امرأة مطلقة!»

ضربوا جميع العائلات المرموقة في المحافظات، محافظة بعد أخرى. وصادروا الممتلكات وقاموا باحتجازات عمياء. وأذلّوا نحو ستمائة عائلة «رأسمالية رجعية»، وهي العائلات المصرية التقليدية الكبرى، تلك التي لطالما عملت لنجاح البلاد، بل أذلّوا حتى هؤلاء المسيحيين واليهود والمسلمين الذين يمثلون جزءا لا يتجزأ من

---

(١) حولت منذ ذلك الحين إلى فندق.

التراث الإنساني المصري. ولم يسلم أي إجراء من التغيير، حيث حددت نسبة الضريبة التصاعدية في ٩٠ في المائة بالنسبة إلى المداخيل التي تزيد عن ١٠ آلاف جنيه سنويا. وارتفعت الضريبة على إنشاء البنايات الفاخرة، وأُمِّمَت البنوك وشركات التأمين والشركات المجهولة، وشركات الملاحة، والصناعات الثقيلة والخفيفة والمتوسطة، والصناعات النسيجية؛ ومنحت امتيازات لشركة الغاز «لوبون»، وألغيت شركة ترامواي القاهرة، حيث حولت إلى مؤسسة عمومية؛ ولم يسمح لأي وزارة، أو أي قطاع خاص أو عام، أن يباشر أي خطوة تروم الحصول على قروض من الخارج، إلا بإذن مسبق من وزارتي الاقتصاد والخزينة.

- ماذا قلت، سيدتي؟ استأنف السادات بهدوء دائما.

هذه المرة، لم تقوَ شهيدة على المقاومة.

- مجنون.

- معذرة؟

كان تشديد النطق بالكلمات على الطريقة الأنجلوساكسونية جزءا من نزوات رئيس مجلس الأمة.

- هذا الرجل مجنون! لم يستأصل الإنتلجنسيا فحسب، بل قضى أيضا على هذا التمازج الإثني الذي يمثل كل الثروة والغنى الثقافي في مصر.

كررت كلامها قائلة: *مجنون!*

حملق أنور فيها. دمدم:

- أنت...

تناولت حقيبتها، ثم غادرت الصالون.

*

القدس، ٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٣

كانت ردهة السجن المركزي خضراء تميل إلى الزرقة، مثل الجو. لم تعد جمانة هي جمانة النابلسي، بل هي الرقم ٨٨٧٨٩.

ألقت على وجه «أفرام» نظرة قاسية وباردة تتعارض وتعبير الدوري الخائف الذي ظهر على وجهها قبل خمس سنوات. حينها، لم تكن تجرؤ على الحركة. كانت فرائصها ترتعد خوفا من طلقات الرصاص المتبادلة. كان ثمة شيء من الخيال في ذلك التحول. إذ تبدل وجه الفتاة إلى وجه امرأة. وفقدت حدقتاها الزرقاوان الناصعتان بريقهما.

سأل «أفرام»، محترسا مثل جندي يتقدم في حقل للألغام:

- هل تحتاجين إلى شيء ما؟

قالت بعد صمت بدا سرمديا:

- لماذا؟

رماها بنظرة استفهامية، ثم أضافت:

- لماذا أنت هنا؟

- لا أدري.

- اذهب، إذا!

- لا.

- لا أتكلم مع اليهود.

- أنا مجرد صدفة، مثلك. وأنت لا تدركين ذلك.

تعمد أن يسكت لحظة قبل أن يتابع كلامه:

- نولد مسيحيين، أو يهودا، أو مسلمين، لأن آباءنا كذلك. إنها الصدفة. دحرجة نرد. يانصيب. فالحديث عن الصدفة لا يحمل أي نتيجة.

- لا أستوعب أي شيء مما تقول! أنا عربية ومسلمة! أجب! لماذا أنت هنا؟

- لأنني أنقذت حياتك. هل نسيت ذلك؟

خفضت عينيها.

- أتيت لأنني أريد أن أفهم. هذا كل شيء. لماذا ارتكبت هذا الفعل المجنون؟ لماذا وضعت قنبلة في بهو فندق؟ لقتل الأبرياء؟ وفيم سيخدمك هؤلاء الأبرياء؟ وكيف سيسيرون بقضيتك إلى الأمام؟

- فيم؟ فيم يخدمكم احتقارنا؟ وفيم يخدمكم الاستيلاء على بيوتنا؟ وفيم يخدمكم السعي إلى ترحيلنا؟

سكتت، ثم قالت بصوت أجشّ:

- قتل أهلك أخي البكر.

حاول أن يحافظ على رباطة جأشه.

- بدون سبب؟ لسنا قتلة. هناك دائما سبب ما. علينا أيضا أن نحمي أسرنا وأبناءنا.

خلف الجدار الزجاجي الفاصل، امتقع لون جمانة، وبدأت شفتاها ترتجفان.

- لقد قتلوه! لقد اغتالوا فوزي. لم يفعل أي شيء! لا شيء!

أراد أن يمد يده إليها، كما يرغب المرء دائما في أن يمدها بين قضبان قفص كي يداعب حيوانا بريا. لكنه اكتفى بالقول:

- مستحيل. لسنا قتلة. اشرحي لي ما حدث بالضبط. قولي لي.

شعر أن معركة من التناقضات تحتدم في روح الشابة.

- ذهب في ذلك المساء رفقة صديق له إلى سينما صهيون.

- في القدس الغربية؟

رمقته بنظرة حادة:

- في القدس!

ثم استأنفت كلامها:

- عندما بدأ الفيلم. حسب أقوال الشهود، دخلت امرأتان، إحداهما ملونة، القاعة ووضعتا حقيبة أسفل مقعد. كانت تحتوي على قنبلة. في منتصف الفيلم، غادرت المرأتان القاعة. نهض مشاهد فضولي، ليجلس مكانهما. أبصر الحقيبة المتروكة. حملها إلى مكتب الاستقبال، لتنفجر في تلك اللحظة. فعمّ الهلع والذعر. اندفع المشاهدون نحو المخرج. وكان بينهم أخي وصديقه. وعندما خرجا، ترددا بين العودة إلى البيت، مما يقتضي المرور عبر الخط الأخضر والخضوع للتفتيش بكل ما يكتنف ذلك من مخاطر، أو الاختباء في انتظار أن يهدأ الوضع. اختارا الحلّ الثاني.

تنفست نفسا قصيرا، ثم تابعت:

- سرعان ما أطلقت قوات الأمن عملية تمشيط واسعة، قصد العثور على «المرأة الملونة». اعتقلت كل السود في القدس.[١] اقتربت دورية من المكان الذي لجأ إليه فوزي وصديقه، خلف براميل قمامة في ساحة صغيرة. لمحهما شرطي. انتاب الذعر صديق فوزي. كان مسلحا. لم يكن أخي يعرف بالأمر. استل سلاحه، وشرع يطلق النار على الشرطة. قام هؤلاء بهجوم مضاد. أصيب فوزي أولا، قبل أن يفارق الحياة على الفور. ثم سقط صديقه بعيد ذلك.

صرخت:

- قتلة! اليهود قتلة!

---

(١) تسمى فاطمة برناوي. تنحدر من نيجيريا، لكنها ولدت في القدس. كانت أول امرأة فلسطينية تنفذ هجوما. اعتقلت وحوكمت وأدينت بالسجن المؤبد، وأطلق سراحها بعد عشر سنوات لأسباب صحية.

ظل هادئ الأعصاب.

- لسنا قتلة، يا جمانة. ما وصفته للتو ليس اغتيالا، بل دفاعا مشروعا.

- اسكت!

- لا! يجب أن تفهمي! لا بد من *ذلك*! أنتم تهاجموننا، ونحن ندافع عن أنفسنا. تسعون إلى الانتقام لأنفسكم من أبرياء- مثل أخيك-، ونحن لا نملك خيارا آخر غير الردّ بالسلاح. فالنار تؤجج النار، والدم يستدعي الدم. هل يمكنك أن تتخيلي، ولو للحظة، المذبحة التي قد تخلفها هذه القنبلة لو انفجرت داخل السينما؟

- كفى!

- لا، يا جمانة! أنصتي. لنا الحق في الحياة مثل الفلسطينيين. يجب أن توقفوا أعمال الرعب هذه. لن تقودكم إلى أي شيء. كانت إسرائيل موجودة، وستبقى كذلك. إننا لا نعيد التاريخ. ويتوقف ميلاد فلسطين أيضا عليكم. لكنكم لن تنجحوا أبدا عبر المذابح والدموع. أعرف أن ألمك يمنعك من قبول كلماتي، غير أن...

تشنج جسد المرأة، وهي تهوي بقبضتيها على الجدار الفاصل.

أسرع حارسان إليها، وكبحا جماحها.

- لا تلحقا بها ضررا! صاح «أفرام».

- سنقودها إلى المصحة.

صرخت مرة ثانية:

- قتلة!

القسم الثالث

(١٥)

الكآبة كرب الروح.

مجهول

باريس، ٢ فبراير/ شباط ١٩٦٦

مضت ثلاث سنوات منذ وفاة «جان فرنسوا». بدا أن دنيا قررت أن تلبس الحداد إلى الأبد، في ملابسها وقلبها.

فتحت الشبابيك. بدت السماء رمادية بمحاذاة السقوف. كان المارة غير مكترثين في ذهابهم وإيابهم. لم تكن تريد لهم، رغما عنها، أن يشاطروها شقاءها. لماذا لم تفتأ تكرر، منذ رحيل زوجها، القول إن لحظات السعادة ليست في النهاية سوى صمت التعاسة؟

عندما عادت إلى الأريكة، لمحت انعكاس طيفها على المرآة المعلقة على الحائط. رباه، كم شاخت! كم صارت ذابلة. كانت خائرة القوى. هل كانت إذا نظرات «جان فرنسوا» إليها هي التي أبقتها شابة؟ بالتأكيد. فالمرء لا يكون جميلا إلا بما يستثيره عند الآخر. يحيا فعلا لأن المحبوب يجعله حيًّا. ماذا يتبقى إذا انطفأت جذوة الحب؟ غرفة معتمة، وبعض أثاث، وصحراء.

مازلت أحبك...

كم تخونها الكلمات! كم يخونها كل شيء! يداها، وصوتها، ونفسها، ونوبات غضبها، ويقينياتها الطفولية، وأسئلتها.

الموت رحمة.

تهاوت بين الوسائد. أغلقت عينيها، تاركة الصمت يسود زمنا طويلا. انتزعها جرس الباب من سباتها.

فتحت الباب. سلمها حارس العمارة البريد. شكرته، ثم عادت لتجلس. وضعت الرسائل على الطاولة الواطئة دون اهتمام. فيم يفيد فضّها، طالما لا تحتوي على رسالة من «جان فرنسوا»؟

انزوت في ركن الأريكة، ثم عادت السكينة. كم ستبقى هكذا خائرة؟

عندما قررت أن تنهض، كانت الساعة الموضوعة فوق سقف المدخنة تشير إلى الثانية عشرة والنصف زوالا. لن تتأخر الخادمة أكثر. نهضت دنيا. ظنت أن جرعة من مشروب «براندي» قد يستنهض همتها.

حينها فقط انتبهت إلى رسالة من الرسائل المتراكمة فوق الطاولة. لم تكن الكتابة ما استرعى انتباهها، بل الطابع البريدي الملصق في الزاوية اليمنى للظرف. إنه طابع عراقي.

من سيراسلها من هناك؟ فهي لم تعد تعرف أحدا هناك. إنها تحيا في المنفى منذ نصف قرن. من يكون إذا؟

تناولت الرسالة. فضّتها. في أعلاها، قرأت اسما وعنوانا: «فواز البغدادي. حي أبو نواس. الشارع ٦٢. البيت ٨. ص. ب. ٣٢٠. بغداد.»

فواز البغدادي؟ لم تتذكر قريبا أو صديقا يحمل هذا الاسم.

وضعت نظارتها.

بغداد، ٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٦٦

سيدتي العزيزة،

أتجاسر على مناداتك (على الأقل) بخالتي العزيزة،

وأتصور اندهاشك وأنت تقرئين رسالتي، واسمحي لي أيضا أن أعرف بنفسي: اسمي فواز البغدادي.

سلمى، أرملة المرحوم أخيك، هي أخت فاروق البغدادي. وهو أبي. أنت إذا خالتي أيضا بالمصاهرة. رغم أنك غادرت العراق منذ زمن طويل، اعلمي أن ذكراك حاضرة على الدوام وسط العائلة. إذ يثار اسمك دائما بمحبة واحترام.

أعيش في بغداد، حيث تزوجت بامرأة رائعة أنجبت مني- ولله الحمد- طفلين هما موضوع كل رعايتنا. البكر اسمه عادل، عمره ثماني سنوات. والأصغر غسان، عمره خمس سنوات. أعمل مهندسا بتروليا، وأشغل منصبا مهما نسبيا. لكن لم يكن بوسعي، خاصة مع وجود عمّ مثل نضال، سوى أن أنخرط في الحياة السياسية، بمساوئها ومحاسنها.

إنني عضو في حزب البعث، وصديق مقرب من المرحوم الماريشال عبد السلام عارف. أقول «المرحوم»، لأن المسكين مات يوم ١٣ أبريل/ نيسان من هذه السنة،[1] في حادثة مروحية مروعة، وهو يدير دفة بلادنا منذ ثلاث سنوات.

لقد كرس الماريشال، وهو القومي المتحمس، كل جهوده لجمع كل القطع المكسورة من عالمنا العربي الفقير، داعيا إلى الوحدة. وفي الآن ذاته، نجح- ولم تكن مهمته سهلة البتة- في

---

(١) ملاحظة: أود التنبيه إلى أن الكاتب لم يحسن هنا التقدير في مسألة توقيت الرسالة، لأنها موقعة بتاريخ يناير/ كانون الثاني ١٩٦٦، في وقت مازال فيه الرئيس العراقي على قيد الحياة. وهو يأتي هنا على ذكر وفاته. أكتفي في هذا الهامش بهذا التوضيح للقارئ، دون تدخل في النص الأصلي (المترجم).

إيجاد أرضية تفاهم مع الأكراد الذين يوجدون في حالة تمرد مزمنة شمال البلاد.

يجب أن أعترف لك إن صداقة هذا الرجل العظيم تشرفني. عندما أتذكر أن البعض لا يألون جهدا في التخلص منه، أشعر بالمرارة بين شفتي.

تخيلي أنه منذ نحو سنتين، خلال شهر أغسطس/ آب ١٩٦٤، عزم شخص مشؤوم، يدعى صدام حسين، على اغتياله. لم ينقصه سوى القليل كي ينجح في عمله. ذلك أن شرطة اليقظة اكتشفت الهجوم، الذي كان متوقعا يوم ٥ سبتمبر/ أيلول. إنها معجزة. اعتقل هذا الشخص الحقير، وهو يقبع اليوم في السجن رفقة المتواطئين معه.

منذ وفاة الرئيس عارف، يحكم شقيقه الجنرال عبد الرحمان بلدنا. يقوم بذلك على نحو يستحق الثناء مثل الرئيس الراحل. وهو مدافع صلب عن الوحدة العربية، ومقرب من عبد الناصر الذي يحبه. ولا أحد يلومه على كونه مترددا إلى حدّ ما، وعلى افتقاده إلى الثقة بالنفس. أنا أعترف بذلك. يبقى أن الرجل يتمتع بنزاهة مثالية. وهي خصلة نادرة جدا في بلدنا.

لكني لا أريد أن أضجرك بكل هذه الأخبار التي لم تعد ربما تعنيك، وقد صرت تعيشين بعيدا جدا عن هذه المنطقة. سآتي إذا على السبب الحقيقي وراء بعث رسالتي.

من المحتمل أن آتي إلى باريس رفقة زوجتي مجيدة في غضون شهر سبتمبر/ أيلول. لقد مضى زمن طويل، وهي تحلم باكتشاف مدينة الأنوار، حيث التزمت بتحقيق هذا الحلم. إذا كان جدولك الزمني يسمح، اعلمي أنك ستغدقين علينا بقبول ما أسميه بـ«لمّ الشمل».

بلغي تحياتي إلى السيد «لوفون». إنه يظل في نظر عائلتي رجلا عادلا صاحب رؤى.

في انتظار جوابك، عزيزتي دنيا.

فواز.

طوت دنيا الرسالة. أصابها الدوار. رفعت يدها إلى جبينها. رباه، ما لهذه الكلمات تعود بها نحو ماضٍ ظنّته نسيا منسيا. تعود بها إلى بغداد، المدينة الدائرة، إلى العراق البعيد جدا، وإلى حياة أخرى. عندما كان «جان فرنسوا» على قيد الحياة، ظل رابط ما، حتى وإن كان غير مباشر، قائما بين دنيا والشرق. ويا للمفارقة، فقد كان أكثر تجذرا منها في هذه الأرض المليئة بالرمال والزوابع. وعندما رحل، حمل الذكريات الأخيرة التي كانت تغفو في ذهن دنيا. لكن قلبها ما يزال ينبض عندما تستعيد تلك الذكريات.

توجهت نحو المكتب. تناولت ورقة، ثم جلست. أخذت قلما. انزعجت عندما أدركت أن يدها ترتجف قليلا. لكنها كتبت الجواب بحروف ثابتة.

*

الكويت، ١٠ أبريل/ نيسان ١٩٦٦

ظن حسين وزيد، عندما تعرفا عليها، أنهما راحا ضحية وهم. هل هو وهم امرأة؟ امرأة انخرطت في حركة فتح؟ لكن سرعان ما أدركا أن ليلى خالد لم تكن سرابا.

عندما لم تجد سبيلا إلى تمويل دراساتها في الجامعة الأمريكية في بيروت، سافرت إلى الكويت منذ ثلاث سنوات. انخرطت في فتح بمجرد وصولها إلى هناك، وأصبحت تعمل أستاذة.

في الأيام الأولى، لم ترق الشابّين، بالأحرى، تصرفاتُها الرجالية. يحدث أن يلتقيا بها أثناء اجتماعات فتح، لكن لقاءاتهم تقتصر على أحاديث مجاملة، بل تكون متحفظة. ظل الوضع هكذا حتى كشف زيد عن اسمه العائلي: «القسام»، حيث لم تتردد الشابة في معانقته بحرارة.

- القسام؟ هل أنت ابن عز الدين القسام؟

أكد زيد ذلك.

كان يودّ أن يعلن أنه المهدي نفسه لولا أن غير رأيه.

- لا تتصور ما كان يمثله، ومازال في عيني! قالت. إنه مثالي. وهو أعظم شخصية في تاريخ شعبنا. لطالما وددت أن أتعرف عليه!

أمسكت بذراع زيد.

- من فضلك، هل يمكن أن نلتقي مجددا؟ أن نحتسي قهوة؟ أريد أن تحدثني عنه. أريد أن أعرف كل شيء عنه.

- بالطبع!

منذ ذلك اليوم، صار الثلاثة يلتقون بانتظام. صاروا ملتحمين مثل أصابع اليد.

في ذلك المساء، اجتمعوا في غرفة حسين حول بعض الأطباق التي أعدتها ليلى استثناء، برهانا على الصداقة، لأنها تكره الطبخ.

كانوا في المقهى، عندما علّق حسين بإعجاب:

- إذا، في النهاية، تحفظين القرآن عن ظهر قلب؟

- تقريبا. ذلك أمر عادي خاصة أن من علمتني امرأة إنجيلية متدينة لم تكن مواظبة فحسب، بل مهمومة بأن تنقل لنا غنى الكتاب المقدس. وقد علمتنا في الآن ذاته أصول الأبجدية- كان عمرنا

خمس أو ست سنوات، لم أعد أذكر- كانت تجعلنا نقرأ يوميا آيات، وبعد ذلك، علينا أن نستظهرها عن ظهر قلب.

ابتسمت الشابة ابتسامة ماكرة.

- لا فائدة في أن أقول إن السور التي تأسرني هي تلك التي تحكي فرار العائلة المقدسة إلى مصر للإفلات من عقاب الملك «هيرودس»، وكذا الفقرات التي تتحدث عن الفريسيين، النموذج المثالي لأحفادهم الصهاينة.

انفجر زيد وحسين ضحكا. لم يظنا أبدا حتى تلك اللحظة أن يحصل هذا التقارب بينهم.

تابعت ليلى كلامها:

- وعندما يحدث أن أحصل على نقاط ممتازة، أعود مثل المجنونة إلى البيت لإخبار والدتي. بعد ذلك، أترقب الجائزة الكبرى: القطايف[1] التي أعشقها! لسوء الحظ، كان عليّ، في أغلب الأحيان، أن أكتفي ببضع حبات منها. كانت القطايف ترفا غالبا ما لا نستطيع أن نقدمه لأنفسنا، وبدرجة أقل فساتين جديدة أو حذاء جديد. ومع ذلك، لم أكن أمنع نفسي، وأنا الغضوبة على نحو لا يطاق، من أن أثير زوبعة غضب، وأصرخ حتى أخرس برج الشمالي.

- على نحو لا يطاق، فعلا، سخر حسين.

- أجل، لكني كسبت مالي الأول على كل حال في سن السادسة!

---

(١) نوع من الفطائر التي تتخذ شكل قدح صغير، تُحشى بقشدة الحليب، وتعطر بماء زهر الليمون، وتزين بالفستق المدقوق وبضع تويجات الورد المخللة. ويغطى الكل بالشروب.

- سن السادسة؟

- أعترف أن الأمر حدث بالصدفة إلى حد ما. ناداني عمي محمود، الذي علم أنني نجحت في استظهار سور بكاملها، ليتحقق من أن أبويّ لا يتبجحان بالأمر. طلب مني أن أقرأ بعض الآيات التي اختارها بتلقائية. وهو ما فعلته. أعجب بذلك، فأخرج من جيبه ليرة لبنانية.. ليرة كاملة! وأعطانيها. عدت إلى البيت، ورويت القصة لأمي. بعد ذلك، وبما أنني لم أعرف ماذا أفعل بهذا الكنز، قررت أن أمنحه إياها. رفضت ذلك قطعا. قالت لي: «إنها لك. وقد كسبتها.»

- وكيف أنفقتها؟ اندهش زيد. اشتريت بعض القطايف، كما أتصور.

- لا. بل اشتريت هدية لأمي. لم أعد أذكر ما هي.

أجابت بنبرة هادئة. لا كبرياء فيها ولا تفاخر.

تناول حسين فنجان القهوة، قبل أن يسأل:

- هناك شيء ما لم تحدثينا عنه أبدا: في أي وقت بدأ اهتمامك بالسياسة؟

طأطأت ليلى رأسها، مستغرقة في أفكارها.

- يوم شهدت نقاشا حاميا بين أخي البكر وأبي. كان عمري حينها سبع سنوات. لقد أثارا الطريقة التي مكنت الضباط المصريين من قلب الملكية وطرد الملك فاروق. كنت مأخوذة بشجاعة هؤلاء الرجال. ويا للمفارقة، لم يكن والدي يشاطرني دهشتي. لم يكن يرى في هؤلاء الثوار سوى عصبة من الغافلين، من الفتية الذين يفتقدون إلى التجربة والانضباط. في الحقيقة، كان يدافع عن الملك خصوصا، لأن هذا الأخير لم يتردد في أن يسارع إلى إنقاذ شعبنا سنة ١٩٤٨، إلى جانب بلدان عربية أخرى.

- وأخوك؟

- كان أخي يتهم الملك بكونه شخصا فاسدا وضعيفا وجبانا، عجز عن الصمود في وجه المحتلِ الإنجليزي. كان أفراد عائلتي المجتمعون يحسبون النقاط المكتسبة، مشجعين أخي على الخصوص. في النهاية، وبعدما أدلى بعدد من الحجج، وأمام تعنت والدي، ذهب محمد يبحث عن «روز اليوسف»، وهي صحيفة مصرية ساخرة، ثم قرأ بصوت مرتفع سيرة محررة بالزرنيخ عن الملك فاروق. وأخيرا، تبين أن أخي هو أكثرنا إلماما بالسياسة. كان معلمي، وأنا ممتنة له بذلك. في أوائل الستينات، كان أول منخرط في الحركة القومية العربية، وسارت على خطاه أخواتي الثلاث زكية ونوال ورحاب. بل إنني، أيضا، اقتفيت أثرهن عندما بلغت سن السادسة عشرة.

باعدت ليلى بين ذراعيها مبتسمة. ثم ختمت كلامها:

- هكذا أصبت بالفيروس!

- وهل كنت منخرطة عندما كنت في بيروت؟

- آه، إلى حد ما! كنت أمضي وقتي في توزيع المناشير وتنظيم الاجتماعات في الجامعة التي كنت أرتجل بها خطابات تتحدث كلها، بالطبع، عن فلسطيننا المفقودة. إنني أنقل إليكم المتاعب التي كان علي أن أواجهها. كانت إدارة الجامعة تنظر إلى أعمالي نظرة سيئة جدا.

انتصب فجأة، ثم قالت:

- لقد أكلت كثيرا. ما رأيكما في أن نتمشى قليلا على شاطئ البحر؟ هل تعرفان رأسَ كاظمة؟

- لكنها توجد على بعد أربعين كيلومترا! صاح حسين.

- وماذا إذا؟ هل تخيفك أربعون كيلومترا؟ هناك ألف ومائتان وخمسة وأربعون من هنا حتى القدس!

*

القاهرة، ١٥ مايو/ أيار ١٩٦٦

- سيدي الرئيس، ماذا يجري؟ هل أنت بخير؟

رفع عبد الناصر عينيه نحو هشام باندهاش.

- لماذا هذا السؤال؟

- لأكن صادقا، إنني قلق. قلق جدا. أشعر أن شيئا ما يزعجك.

دعا عبد الناصر ضيفه إلى الجلوس، ثم ظل لحظة تائها في أفكاره قبل أن يهمس:

- أنت صاحب فطنة، يا هشام. بالفعل، أنا منشغل جدا. أدركت أنني أواجه حقيقة مؤلمة: البلد تحكمه عصبة من اللصوص، والمراوغين، وتجار النفوذ.

وافق هشام على قوله مؤكدا:

- لقد ظهرت لي هذه الحقيقة، سيدي الرئيس، منذ شهور.

- لا يمكن أن يدوم هذا الوضع! لا يمكن أن أبقى متربعا على قمة الدولة، وأظل متهما خطأ بكل هذه المظالم والانحرافات. بينما...

سكت البكباشي لحظة قبل أن يقول:

- بينما في الواقع هذا العزيز عبد الحكيم عامر هو الذي يحكم، ولا يعمل سوى على هواه. لقد خلصت إلى أنه يجدر بي أن أستقيل، وأن أكرس نفسي لمهمة رئيس الوحدة الاشتراكية العربية وحدها. فأنا

راغب تماما في التخلي عن الرئاسة لصالح عامر، ومستعد للردّ على كل ما يسبق رحيلي.

التزم هشام لطفي الصمت. كان يعرف وضع البلاد، ويعلم تصرفات رئيس الأركان. إذ أصبح عامر أشبه بمستبدّ في العتمة، وسيدا على القوة الوحيدة القادرة على إسقاط السلطة؛ أي الجيش. جيش تخلى عنه، ومنحه جميع الامتيازات، حتى أكثرها فحشا. كما لاحظ هشام السلوك الطائش لما يعرف بـ«لجنة تصفية الفيودالية»، التي لطالما استنكرتها شهيدة، وكذا وحشية الرجال الذي يحيطون بها. وكان شاهدا كذلك على قمع الحريات المتزايد.

خلال الشهور الأخيرة، قررت المصالح السرّية، التي يسيرها زكرياء محيي الدين، أن تمتلك جميعها أجهزة تنصت متقدمة، هي «ساعات التسجيل» الشهيرة. يتعلق الأمر بمسجلات توضع في جيب السترة الداخلي، وتوصل بساعة يدوية. كانت هذه الساعات تستعمل بكثرة من طرف خدم الفنادق الكبرى والنوادي التي تتردد عليها البورجوازية القاهرية، وكذا العديد من المدنيين العاملين في بعض المعامل والإدارات والجامعات.

كان التنصت عبر الهواتف أمرا مألوفا. وزراء، وموظفون سامون في الجيش، وصحافيون، وأساتذة جامعيون، ونقابيون، الجميع كان تحت عين المخابرات. لم يتردد محيي الدين، قصد إرساء شبكته، في تحويل- عبر استخدام المال طبعا- بعض السائقين، وماسحي الأحذية، وندل المقاهي، وخدم الفنادق، والبوابين بالطبع، والسفرجية، وخدم البيوت، إلى مخبرين. حتى النساء اللواتي سرن على هذا النهج وُظِّفن في هذه العملية الضخمة.

تنحنح قبل أن يستكمل كلامه:

- سيدي الرئيس، اسمح لي، لكني أعتقد أنه من الخطأ أن

تستقيل. سيكون الأمر جنونا! إن تصرفت هكذا، ستخلي الساحة أمام عامر وأتباعه الذين سيحكمون قبضتهم على مصر. لا يخفى عليك أن «ماريشالنا» موهوب في سوء اختيار المتعاونين معه. فهؤلاء الأشخاص مسؤولون، بشكل غير مباشر، عن فشل وحدتنا مع سورية. ومع ذلك، يواصل الماريشال دعمهم بشكل أعمى، سأقول بطريقة «قبلية». هل تعلم جوابه عندما أخبرناه أنه من المستحب أن يعزل قائد القوات الجوية صدقي محمود؟ صرخ: «لن يحصل عزل محمود سوى على جثتي!»

أخذ هشام نفسا قصيرا.

- أعتقد جازما أنه من الأجدر أن تستدعيه، وتحاوره على انفراد. حينها قد تتمكن من إيجاد حلّ ما.

هزّ عبد الناصر رأسه، وقال كأنما يحدث نفسه:

- يسير كل شيء بشكل سيء... يا هشام. أشعر أننا نسير نحو الكارثة.

*

بعد بضعة أيام

عاد هشام ليرى الريس. «لا يمكن أن تتركه يفقد السيطرة على نفسه»، قالت له شهيدة، مناشدة إياه زيارته. ثم أضافت: «لا أبدي تعاطفا كبيرا معه، أنت تعرف ذلك، لكنه يبقى رجلا عظيما، بمحاسنه ومساوئه. له الفضل في النضال من أجل القومية العربية. لقد وقف ندًّا لهؤلاء المتخلفين الأمريكيين. أقنعه بعزل عامر. يجب أن تفعل!»

هذه المرة، ظل ينتظر، بعد أن استقبل الرئيس زائرا. ولم يره إلا بعد مرور عشرين دقيقة.

- هل تعرف من غادر توا؟ سأل عبد الناصر، والتوتر بادٍ في

صوته. وزيرنا في الحرب. السيد شمس بدران نفسه! هل تذكر حوارنا الأخير في ذلك اليوم، عندما أخبرتك أن البلد يحكمه رجال العصابات؟

- بالطبع.

- حسنا، لقد بلغ السيل الزبى. لقد جاء شمس بدران ليقدّم لي عريضة رسمية مصدرها عبد الحكيم عامر نفسه.

- وماذا إذا؟

- إذا يا عزيزي هشام، يطلب عامر أن يعين وزيرا أول، لا أقل ولا أكثر. هل تعلم لماذا؟ انتبه جيدا: لأنه سئم من شكوى الجميع! يا لها من سخرية! هل بات أعمى حتى صار لا يدرك أننا صرنا على هذه الحال بسببه، هو وحده، بسبب سلوكه هو ورجاله؟ أم ينبغي أن أقول بسبب سلوك العبيد الذين يخدمونه عن طيب خاطر.

- وماذا أجبت شمس؟

- أجبته أنني لا أرى أي اعتراض على تعيين الماريشال في منصب الوزير الأول، لكن شريطة أن يتخلى عن منصبه على رأس القوات المسلحة.

قطب هشام حاجبيه.

- كل هذا عبث! إننا نسبح في بحر من الجنون التام. مازلت أعتقد أنه يجب أن تحسم وتوضح الأشياء بشكل نهائي. يجب أن تفقأ هذه الدّمّلة. وإذا صدر ذلك منك، فإن عامر سيقبل بما هو غير مقبول.

حلّ صمت طويل، ثم قال عبد الناصر:

- لا. كل هذا بدأ بشكل خاطئ. وكل شيء يسير في الاتجاه الخاطئ.

كان البكباشي يجهل في تلك اللحظة كم كان صائبا في قوله.

(١٦)

اخترع الناس القدر، حتى يلصقوا به
اختلالات الكون التي من واجبهم أن
يدبروها.

رومان رولان

إسرائيل، ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٦٦ ، السجن المركزي في الرملة

تفاقم تدهور جسد جمانة الذي اعتلّ غداة اعتقالها. فقد صار عمرها، اليوم بعد أن قضت ثلاث سنوات خلف القضبان، ألف سنة بينما هي في الثامنة والعشرين.

وقد ظل «أفرام»، الذي يزروها في كل شهر، يشهد هذه الشيخوخة السابقة لأوانها، بعجز يضاعفه انهيار أخلاقي. طوال هذه الفترة، كافح من أجل تخفيف عقوبتها، مقتنعا أن الفلسطينية لن تقاوم عشرين سنة من السجن، حيث ستموت قبل حلول ذلك الأوان بكثير، ليس نتيجة المرض أو المعاملات السيئة، بل بسبب اليأس. لسوء الحظ، لم ترغب أي سلطة مسؤولة في الإنصات إلى نداءاته. ففي نظر الدولة، ارتكبت السجينة رقم ٨٨٧٨٩ فعلا إرهابيا، ورغم أنه لم يخلف ضحايا، فإن ذلك لا يبرر بتاتا خطوتها القاتلة.

- حملت لك بعض الكتب، قال «أفرام». وقد عهدت بها للحارس. سيسلمها لك بعد التحقق من غرض استعمالها.

شكرته الفلسطينية بحركة من رأسها.

- أشكرك. إنني أتعلم بفضلك. أتعلم ما لم أتعلمه في المدرسة أبدا.

سألته:

- هل تمكنت من رؤية أبي؟

- ليس بعد. فهو يرفض استقبالي بعناد.

استغرقت لحظة. استغل الفرصة ليقول ملاحظا:

- تبدو طلعتك أفضل مما كانت عليه آخر مرة. هذا أمر جيد.

- هذا ممكن. خلال الأيام الماضية، بقيت في الساحة خلال ساعة التجول، ونمت تحت أشعة الشمس. وهو ما يفسر ربما...

ابتسم.

أنت مجنون، يا «أفرام»! ستبلغ سن الثلاثين، ومازلت تتصرف مثل فتى أرعن! تعشق امرأة فلسطينية مسلمة ستمضي السنوات العشرين المقبلة في السجن. فما هي لعبتك؟ يجب أن تزور طبيبا.

لم يكن لاحتجاجات «أفي فراينكل» أدنى أثر فيه أبدا. أما هو، فيكتفي بالإجابة: «لا يوجد علاج لهذا النوع من المرض.»

رفع يده، ووضعها على الجدار الزجاجي الفاصل. فعلت جمانة مثله. صارا كفّاهما متقابلين، لكنهما منفصلين.

- أحبك... همس «أفرام».

هزّت رأسها عدة مرات، فتراقصت خصلاتها الكستنائية.

- كيف ذلك؟ كيف يكون ذلك ممكنا؟

- كم وددت أن أملك الجواب! أعرف فقط أن هذا الشعور

متجذر فيّ، ولا أستطيع شيئا. إنه أمر عبثي وشاذ. فالأحكام الأكثر تطرفا تقبل التطبيق. لكني لا أستطيع شيئا.

- ومع ذلك، لطالما تحدثنا عن الأمر، يا «أفرام». حتى لو كنت حرة، فلا شيء يجمع بيننا. أنا مسلمة، وأنت يهودي؛ وأنا فلسطينية، وأنت إسرائيلي.

إنها سخرية التاريخ، قديمة قدم الكون. وقد سرد أحدهم حكاياته.

- تذكري ما قلته لك يوم التقينا أول مرة. نولد مسيحيين، أو يهودا، أو مسلمين، لأن آباءنا ولدوا كذلك. نحن ضحايا الصدفة.

- أجل، يا «أفرام». لكن هذا الواقع يمثل حاجزا لا يمكن تجاوزه. فضلا عن ذلك...

علت عتمة ملامحها، ثم نظرت إلى الأرض.

- أين سنكون بعد عشر سنوات؟ سأصبح عجوزا لا أصلح لشيء. بل إنني لن أكون قادرة على أن أنجب لك أطفالا.

رفعت رأسها، ثم تابعت كلامها:

- بينما كل شيء ممكن بالنسبة إليك. على الرجل أن يبني أسرة...

- للرجل الاختيار على الخصوص. عليه أن يترك الحياة تجري كيفما شاءت. فهي أفضل من يعرف ما يناسبنا.

- ماذا تقصد؟

- أنا مقتنع أن لقاءنا يكتسي معنى ما. لم أتمكن من تأويله، لكن ثمة معنى ما.

ثم أضاف:

- لنترك الحياة تجري.

ضحكت ضحكة صغيرة.

- على كل حال، لا أبالي، لأنك لن تنتظرني سبعة عشر عاما. إذ لا يمكن لأحد، مهما كان عاشقا، أن ينتظر مدة طويلة! فضلا عن ذلك، لا تستحق أي امرأة ذلك.

نهض.

- آن الأوان. أنت على حق. لا تستحق أي امرأة ذلك، إلا واحدة: أنت، يا جمانة.

*

كان «فراينكل» ينتظره خارج السجن. كان يتصبب عرقا بغزارة، داخل سيارته التي تفتقر إلى مكيف هواء.

- حان الوقت، قال مدمدما، لو تأخرت عشر دَقائق أخرى، ما وجدتني.

أقلعت السيارة وسلكت طريق القدس.

- كيف حالها؟

- إنها تضعف. لكني لن أفقد أمل إخراجها من هناك.

تنهد عميل الموساد.

- بالتأكيد...

قاطعه «أفرام» محركا يده.

- من فضلك، اجتنب الكلام المتكرر.

سخر من صديقه قائلا:

- لم تنل سوى ما تستحق. فهي إرهابية. لتحمد السماء لأنها مازالت على قيد الحياة. إنها...

انفجر «أفي»:

- أجل! لتحمد السماء! كان بإمكاننا أن نشنقها، مثلما يفعل

العرب عندما يعتقلون واحدا منا! انظر كيف عامل السوريون هذا التعيس «إيلي كوهن»! هل تظن أنهم أشفقوا عليه عندما شنقوه بحبل؟

ظل «أفرام» صامتا. إنها حالة مظلمة.

«إيلي كوهن» يهودي رأى النور في سورية، تقرّب منه الموساد سنة ١٩٦٠. بعد مرور سنة، وبعد تدريب مكثف، جنّده رسميا «حاييم هيرزوغ»، الذي كان حينها رئيس المصالح السرّية، ثم أرسله إلى الأرجنتين قصد إكمال عملية إخفاء هويته، حيث صار تاجرا عربيا سوريا ثريا يحمل اسم كمال ثابت. ما إن حلّ في بوينس أيريس، حتى نجح في خلق عدد من العلاقات مع دبلوماسيين سوريين، من بينهم العقيد أمين الحافظ، وهو عضو بارز في حزب البعث.

في سنة ١٩٦٢، استقر في دمشق، حيث كسب تدريجيا ثقة العديد من الشخصيات- وليس أقلها- شخصيات في الحكومة السورية.

هكذا تمكن على الخصوص من الولوج إلى حصون تقع على مرتفعات الجولان. واستطاع أن يراقب مواقع المخابئ ومجموع الدفاعات السورية. ويروى أنه اقترح على الضباط السوريين غرس أشجار حول المخابئ بدعوى أنها قد تكون وقاء طبيعيا للمراكز المتقدمة.[(١)] وقد عمل الجيش السوري بنصائحه. كما حصل الموساد على كل المعلومات المجمعة، وكذا هويات العديد من الطيارين السوريين.

---

(١) مما سيسمح لجنود «تساحال» بتحديد أفضل للمخابئ السورية أثناء قصفها خلال حرب الأيام الستة.

للأسف، بدأ «كوهن»، الذي وثق من نفسه، يرتكب بعض الأخطاء، وهو يغير إيقاع إرسال معلوماته، الذي لم يعد أسبوعيا، بل يوميا، وأحيانا مرتين في اليوم الواحد- والأخطر من ذلك- في ساعة محددة.

لم يدم الأمر طويلا حتى اكتشف أمره متخصصون في محاربة التجسس على الاتحاد السوفياتي. اعتقل وحوكم وأعدم شنقا، رغم تدخل العديد من رؤساء الدول، كما أشار «أفي».[1]

تساءل «أفرام»:

- ماذا تنتظر حتى تقلع؟

- أن تهبط على الأرض ثانية؟

حدّق «أفي» في صديقه، قبل أن يتابع كلامه:

- عد إلى الأرض. أرجوك. تخيل رد فعل أبويك عندما يعلمان أنك تزور فلسطينية، وإرهابية علاوة على ذلك. والموساد. هل فكرت في الموساد؟

- هل هو تحذير أم تهديد؟

- لا هذا، ولا ذاك. إنه مجرد التماس. إنه أمر خطير يا «أفرام». خطيرا جدا.

ظل صديقه صامتا. سأل «أفرام»:

- هل فقدت لسانك؟

- لا، لا. أنا هنا. كنت أفكر في قصة «كوهن».

- وماذا؟

---

(١) كان ذلك يوم ١٨ مايو/ أيار ١٩٦٥.

- لا شيء. أو بالأحرى نعم. إنهم همج. لكن هل ينبغي أن نرد على الهمجية بالهمجية؟ ألا نستحق ما هو أفضل؟

احمرّ وجه «فراينكل».

- هل تعرف، يا «أفرام برونشتاين»؟ عليك اللعنة!

*

باريس، ٢٨ سبتمبر/ *أيلول* ١٩٦٦

اقترحت دنيا على مجيدة فنجان شاي آخر. قبلت العراقية، ثم ارتبكت وهي تعبر عن شكرها.

- وأنت، سيدي البغدادي؟

- أشكرك، يا سيدتي. لا أحتمل الشاي بعد الساعة الخامسة مساء، يصيبني بالأرق.

- هل تعتقد أنه من المفيد أن ننام؟ ألا ترى أننا نمضي ثلث حياتنا مستغرقين في النوم؟ ففي سن الستين، نكون قد نمنا عشرين عاما! هل تعي هذا العبث؟ عمري الآن ثمانية وسبعون عاما. ولتحصِ عدد الساعات التي ضاعت إلى الأبد...

تبادل فواز نظرة مازحة مع زوجته.

- مازلتما شابين. انتهزا الفرصة! فالحياة قصيرة، مثل رمشة جفن.

تناولت دنيا معكرونة، ثم استأنفت:

- لكننا لسنا هنا لنتفلسف. كم أنجبتما؟ طفلين؟

أكدت مجيدة ذلك:

- نعم. طفلين: عادل وغسان.

- جيد. بل ممتاز. عليكما أن تنجبا طفلة. فهذا أفضل، لأن الفتيات أكثر موهبة من الفتيان.

- بالتأكيد، يا سيدتي! قالت مجيدة موافقة.

- دنيا. فهذا أسهل، أليس كذلك؟ فضلا عن ذلك، لم أحبذ أبدا أن ينادى عليّ بـ«سيدتي». فقد شاخت هذه الكلمة.

- بينما كنت في العشرين، يا دنيا، قال فواز مبتسما.

- بالطبع!

لامست جبهتها.

- هنا في الداخل على كل حال! إذ لا تفلح الميكانيكا فيما يعتمل في الخفاء. لذلك نتساءل لماذا يلبسنا الخالق إياه. فبعد أن يمضي بعض من العمر، ينهار كل شيء. أو بعض منه! سترد علي بالقول إن كل شيء يعتمد على الناس. لقد حافظ «جان فرنسوا»، على ريعانه أكثر مني.

طفا طيف كئيب على حدقتيها. همست قائلة بالكاد:

- أفتقده.

- أتصور ذلك. إذا صدق كل ما أخبرني الناس عنه، فإنه كان رجلا طيبا. كان يحبنا.

- عندما تقول «يحبنا»، هل تقصد الحديث عن العرب عموما، كما أفترض؟

- بالطبع.

- صحيح. أعتقد فعلا أنه كان يحبنا، دون أحكام مسبقة أو تمييز. آه! اطمئن! يحدث له ألا يكون رهيفا، خاصة عندما يتحدث عن أمرائنا، وملوكنا، ورؤسائنا، وميلهم المعلن إلى الدكتاتورية. اذكر لي وطنا عربيا ديمقراطيا واحدا؟ لن تجد واحدا! هذا مع الاعتقاد أن شعوبنا لا تعوزهم الشجاعة.

- ماذا تقصدين؟ أجاب فواز بنبرة مستكينة للقدر. مكتوب.

استشاطت دنيا غضبا.

- هذه الكلمة... هذه الكلمة ستوقع على هلاك العرب. لا شيء مكتوب، صديقي العزيز. لا شيء! أم سنوقعه بأيدينا إذا. لنتوقف عن الاعتقاد أن الله يدبر مصائرنا، كأنه لا شيء يشغله. إن له اهتمامات أخرى بالغة الأهمية!

ثم ختمت قائلة:

- لقد أدرك الرومان كل شيء.

اندهش فواز.

- معذرة؟

- بالتأكيد. اقرأ التاريخ من جديد إذا. خلافا لأغلب الدكتاتوريات، فإن دكتاتورية الرومان لا تعلن عن نفسها إلا أمام خطر محدق، وخاصة عندما يهدد هذا الخطر توازن الإمبراطورية. كان هذا النظام محددا في ستة أشهر، وهي المدة التي تسمح للسلطة باتخاذ الإجراءات الضرورية تحية للجمهور. هذا شكل من أشكال الدكتاتورية التي وجب أن يستلهمها العالم، والعرب خصوصا.

بقي العراقي صامتا. هل قالت إنها في الثامنة والسبعين؟ ليته يبلغ هذه السنّ بهذا الصفاء الذي تمتلكه هذه المرأة.

- متى ستعودان؟ استفسرت دنيا.

- غدا، للأسف. كنا ننوي أن نبقى مدة طويلة، لكني علمت أن رئيسنا الجنرال عبد الرحمان عارف منحني منصب مستشار في وزارة الأشغال العمومية.

- هنيئا! لكن من المؤسف مع ذلك أن تكون إقامتكما قصيرة. لاحظا أنني عشت نوعا ما هذا الوضع مع «جان فرنسوا». اليوم هنا، وغدا هناك.

أومأ فواز برأسه.

- علاوة على ذلك، يبقى الوضع عندنا هشا جدا. إذ مازالت الحكومة تحت رحمة محاولة انقلاب جديدة. ولا ينقصنا أعداء السلطة. هل تذكرين ذلك الرجل الذي ذكرت اسمه في رسالتي؟

أجابت بالنفي.

- صدام حسين، قال فواز مذكرا إياها. لقد حاول اغتيال شقيق الرئيس الحالي. وقد اعتقل في اللحظة الأخيرة، وزُجّ به في السجن.

- أجل، لقد تذكرت ذلك. وماذا إذا؟

- إذا، تخيلي أنه فرّ من السجن.[1]

*

حيفا، فاتح يناير/ كانون الثاني ١٩٦٧

لم يكن الضابط الإسرائيلي يعرف كيف يتصرف، ويتمالك نفسه أمام الزوجين، حيث ظل جامدا ومائلا، خافضا وجهه، بينما يعيد مراد قراءة الرسالة، ويده ترتجف، كأنما ليقتنع بمضمونها. كانت منى تبكي في صمت.

- يا له من مجنون! دمدم مراد. يا له من مجنون!

طوى الرسالة تدريجيا، ثم وضعها بعنف في الظرف.

هكذا، لم يفهم سليمان أي شيء.

كيف يقتل زوجين بريئين، أمام أنظار الشرطة الإسرائيلية فوق ذلك؟ كان عليه أن يعرف أنه لن يفلت بفعلته. إنها طريقة من طرق الانتحار، حيث خرّ صريعا برصاصة وسط الرأس. كم كان أرعن! لماذا يا ربّ؟ لماذا؟

---

(١) حدث ذلك يوم ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٦٦، خلال عملية نقل السجناء بين سجنين.

- اسمحوا لي، يجب أن أذهب.

حدق مراد في الضابط بذهول.

- السلام، همهم. أعانك الله.

- شالوم، ردّ الرجل. تعازي الحارة.

عندما رحل، جثا مراد على ركبتيه، وأطلق العنان لحزنه.

القسم الرابع

(١٧)

لم تكن هناك، أبدا، إطلاقا، بدايةٌ جد جميلة كهذه،
في وقت وجيز، حدث حادثٌ جد حزين.

موليير، *الطائش*

القاهرة، ١٨ مايو/ أيار ١٩٦٧

أمسك هشام يد شهيدة، واحتضنها كأنه يحافظ على توازنه على حافة وادٍ.

- اهدأ، يا قلبي. لن يفيدك في شيء أن تكون في هذه الحالة.

- ما هو آتٍ خطير. لن تتصوري مدى خطورته.

- كُفّ عن اعتباري غبيّة! فأنا أرى الوضع. لكن ما العمل؟ تجري الأحداث بسرعة الضوء، فتسرع الآلة حركتها. لقد باتوا جميعا مرضى.

ثم كررت:

- ما العمل؟

لم تجد شهيدة عبارة أفضل، عندما تحدثت عن الآلة السريعة.

قبل ستة أشهر، كان الفدائيون قد قتلوا ثلاثة جنود إسرائيليين قرب الحدود السورية، فحبس الشرق الأوسط كلّه أنفاسه. كيف

ستتصرف إسرائيل؟ لقد اختار «ليفي إشكول»، الذي خلف «بن غوريون» في منصب الوزير الأول، أن يرد على الهجوم حيث لا يتوقعه أحد. إذ شنّ حملة على قرية السموع الأردنية، خلفت ثمانية عشر قتيلا وأربعة وثلاثين جريحا. لم يعترض عبد الناصر. استشاط الملك حسين حينها غضبا، وأعلن جهارا أن «زعماء القومية العربية المزعومين» التزموا الصمت، إثر الهجوم على بلده. لم ينخدع أحد، في القاهرة، ولا في العواصم العربية الأخرى. فقد كان يلمح إلى عبد الناصر، الذي تحمل الأمر، وكظم غيظه. ربما أرشده حدسه إلى تفادي النفخ في جمر الخوف حتى لا تلتهمه ألسنة ناره.

وفي يوم ٦ أبريل/ نيسان، أسقطت ست طائرات «ميغ» سورية في اشتباك جوي فوق دمشق. في هذه المرّة أيضا، لم يبد عبد الناصر أي رد فعل، ولو بكلمة.

في هذه الفترة ذاتها جُنّت الآلة الجهنمية التي أشارت إليها شهيدة. ففي يوم ١٨ مايو/ أيار، بلغ هشامَ خبرٌ قادم من دمشق ينذر بأن القيادة العامة الإسرائيلية توشك أن تهجم على سورية. ففي يوم ١٢، قرأ في جريدة «نيويورك *تايمز*»: «قرر بعض القادة الإسرائيليين ضرب سورية قصد قطع دابر الإرهاب الذي يهدد بلدهم يوميا.» وفي هذا اليوم ذاته، أسرّ الجنرال إسحاق رابين لجريدة بريطانية: «لا يخفى على بلدي أن سورية تقف وراء كل أعمال التخريب. سنردّ بحزم أكبر إذا استمر الإرهاب، حينها سيكون ردنا مختلفا عن التدابير الانتقامية التي اتخذت في الماضي ضد الأردن.» ثم أضاف: «ما لم تسقط الحكومة السورية، لن يشعر أي نظام في الشرق الأوسط بالأمان.»

وما شغل باله أيضا أن وكالة «تاس» نشرت يوم ١٣ مايو/ أيار مذكرة تفيد أن موسكو علمت من مصدر موثوق أن إسرائيل خططت لمهاجمة سورية يوم ١٧ مايو/ أيار.

لاحظت شهيدة:

- لقد رأيت أنه لم يحدث شيء البارحة، ١٧ مايو/ أيار. لم تتحرك إسرائيل. ولم تكن الحدود بين البلدين أكثر هدوءا أبدا مثلما كانت أمس. فهذه الأخبار الواردة من مصادر شبه أكيدة ليست سوى هراء!

استعاد هشام رباطة جأشه.

- لم يجرِ أي شيء. كيف تنظرين إلى القرار الذي اتخذه عبد الناصر مساء البارحة؟ لقد طالب ببساطة بانسحاب القوات الأممية المتمركزة على حدود سيناء منذ سنة ١٩٥٦. إذ شرح أن طلبه يتوخى «أن تكون بلاده قادرة على التصرف ضد إسرائيل في حال شنت عدوانا على أي بلد عربي.» في صباح البارحة، قال الأمين العام «يو ثانت»، بصراحة فاجأت الجميع، إنه لا يسعه سوى أن يستجيب لمطالب الريّس. ومنذ اليوم الموالي، تحركت القوات المصرية نحو المناطق التي أخلتها قوات القبعات الزرق.

انزوت المرأة في صمتها. يبدو أنها كانت تجهل هذا التطور الأخير. واصل هشام قائلا:

- يا حبيبتي، إنك لا تتصورين الضغط الهائل الذي يمارسه العالم العربي على الرئيس. ليس العالم العربي وحده، بل موسكو أيضا. لقد اتصل «بريجنيف» شخصيا بالريس، وقال له إن من مصلحة مصر ألا تضعف هيبتها، وأن إطاحة الإسرائيليين بالحكومة السورية لن تشكل هزيمة لها فحسب، بل للاتحاد السوفياتي كذلك.

- اللعنة على الروس! دمدمت شهيدة. إنهم يتلاعبون بكم! فهم ليسوا أفضل من الأمريكيين.

- دعيني أنهي كلامي، من فضلك. هنا، داخل الجيش نفسه، لم يفتأ وزيرنا في الدفاع شمس بدران، الذي طلب من عبد الناصر

تعيين الماريشال عامر في منصب الوزير الأول، يحرض عبد الناصر على أن يكون سباقا إلى الهجوم. في رأيه، وفي نظر صديقنا الماريشال، بات جيشنا أكثر استعدادا للقتال.. لن يقهر!

توجهت شهيدة للجلوس على أريكة، ثم أشعلت سيجارة. فجأة، تجسدت أمامها كلمة «الحرب»، التي ظلت متوارية حتى تلك اللحظة. هل من المعقول أن يكون هناك أموات آخرون؟ هل سيبقى الجرح مفتوحا إذا أكثر من أي وقت مضى، بعد نحو عشرين سنة من إنشاء إسرائيل؟ بل هل سيندمل ذات يوم؟

نفثت خيوط دخان زرقاء رقيقة، بقيت معلقة في نور الغرفة الساطع.

*

القدس، ١٩ مايو/ أيار ١٩٦٧

كان وجه «إرينا» شاحبا، بل يكاد يشوهه القلق. لم تفارقه بعينيها، تراقب كل حركة من حركاته، وهو يزرر زيّه العسكري. كانت تحصي كل زرّ في ذهنها، كأنها تنخرط في عدّ تنازلي. يتعلق الأمر فعلا بعد تنازلي، لأنها ترى ابنها الوحيد يغادر البيت دون أن تعرف ما إذا كان سيعود.

هل ذلك معقول؟ أن يكون هناك أموات آخرون؟

هل يمكن أن تتصور أنها تتشاطر فكرة امرأة أخرى، امرأة سورية توجد على بعد بضع مئات من الكيلومترات من هنا؟

بدا «صامويل» هادئا هو الآخر. بل ظهرت ملامح الفخر على وجهه، لأن ابنه سيذهب للقتال في سبيل بلده، من أجل بقاء إسرائيل ونسائها وأبنائها الذين لا يطلبون سوى أن يقبل بهم جيرانهم. هل يرغب العرب في شن الحرب مرة أخرى؟ سيكون لهم ذلك،

وسينتصر جيش تساحال، ليس لأنه لا يقهر، بل لأن جنوده يعرفون لماذا يقاتلون. كانوا يعرفون أن كل شبر ضائع من الأرض قد تترتب عنه نتائج وخيمة. أما العرب، فهم يمتلكون الأرض، حيث لا يعرض التراجع مستقبلهم للخطر؛ وفي أسوأ الحالات، سيفقدون بعض الأقاليم. لا ينطبق هذا الأمر على إسرائيل، التي يبدو حجمها مثل منديل. لا مجال للانسحاب.

- سأغادر، قال «أفرام».

- منذ الآن؟ احتجت «إرينا». بالكاد تشير الساعة إلى العاشرة!

- نعم. لكن علي أن أقوم بزيارة أحدهم قبل ذلك.

- زيارة؟

لم يجب «أفرام». فمن غير الوارد أن يلتحق بالجبهة دون أن يخبر جمانة بذلك، ودون أن يودعها. لم يكونا أكثر اقترابا من بعضهما مثل اليوم. كانت هادئة، حيث أدركت في النهاية أن شقيقها مات عرَضا، وأنه لو لم يحدث الهجوم على «سينما صهيون»، لكان ما يزال على قيد الحياة. فهو لم يرح ضحية رجال الشرطة الإسرائيلية، بل ضحية تلك المرأة التي ارتكبت هذا العمل الشنيع.

توجه «أفرام» نحو والدته، واحتضنها. بقيت جالسة. إذ لم تقوَ قدماها على حملها.

- لا تقلقي، «يما». كل شيء سيكون على ما يرام. انتبهي لنفسكِ.

بدت ضئيلة بين أحضانه. لم تعد تلك المرأة الستينية، بل مجرد طفلة.

- هيا! هيا! هتف «صامويل». إنه على صواب. تشجعي! سيوشحنا بالنياشين والأوسمة بعد عودته عما قريب.

لم يكن «صامويل برونشتاين»، طوال حياته، أقرب إلى الحقيقة مثلما هو اليوم.

*

الكويت، ٢٠ مايو/ أيار ١٩٦٧

- لو رغبت في شرب الكحول، صرخ حسين، لكنت فتحت قنينة شمبانيا!

- ولأذنبت معك، أكد زيد. ستقطع مصر وسورية هؤلاء الإسرائيليين الملاعين إرباً! الحرب ستقع. هذا أكيد.

- لا أفهمك، قالت ليلى خالد بنبرة ساخرة. أنت فخور بنفسك إذاً؟ مسترخٍ ومبتهج هنا؟

نظر إليها الرجلان نظرة مستفهمة.

- ألا تفهمان؟ نحن الفلسطينيون هم المعنيون بما يُطبخ. نحن من يجب أن يكون في الخطوط الأمامية! ما عدا ذلك، سنكون مجرد متفرجين عاجزين.

احتج حسين.

- كيف تريدين أن نتصرف؟ لا نملك أسلحة، ولو القليل منها. ولا تضم حركة فتح سوى ثلاثمائة عضو أو أقلّ! متناثرين في المنطقة كلها. ولا يسمح بتوزيع جريدتنا «حركة تحرير *فلسطين*» إلا في بلدان الخليج ولبنان. إذ ينظر إليها، داخل مصر وسورية، كأنها منشور سرّي هدّام. يتكلف عرفات نفسه بنقل الأعداد إلى بيروت قصد توزيعها. بل إن بعض القراء يتساءلون عن حقيقة حركتنا وجديتها: «من هو السيد فتح؟» هكذا سألني أحدهم. يبدو بن بلة الشخصية السياسية الوحيدة المستعدة لأن تقدم لنا يد العون. لقد وعد عرفات بأن يساعدنا على تعزيز الثورة. لكن وعده مازال، حتى الآن، مجرد كلمات.

اعترض زيد:

- على كل حال، لقد سمح بفتح مكتب رسمي لحركة فتح في الجزائر، وهو أمر ليس بالهين. كما يبدو أنك تتجاهل تماما أنه توجد حركة رسمية منذ ثلاثة أشهر هي: منظمة التحرير الفلسطينية.[١] وهي تدافع عن مصالحنا، طالما أنها توصي، في ميثاقها، بمحو إسرائيل وإنشاء دولة فلسطينية. فضلا عن ذلك، تعترف بها حركة فتح باعتبارها جزءا لا يتجزأ منها.

هزّت ليلى كتفيها باستخفاف.

- هي حبة رز. مجرد هبة ريح! وما دمتما تتحدثان عن الجزائر، فما جرى هنا يمثل الدليل القاطع على أن كل شيء ممكن. في البداية، تشكلت جبهة التحرير الوطني من بضعة مقاومين. انظرا اليوم إلى النتيجة: الجزائر مستقلة!

ارتفعت نبرة صوتها.

- لا! أتفق مع ما قاله أبو جهاد: العمل العسكري وحده الفعال. أما الخُطب، فلا تفيد في شيء. والعرب مفتونون بها. وها نحن نرى أين انتهت.

تناولت بحركة منفعلة علبة «روثمان»، نوع سجائرها المفضلة.

- هل عند أحدكما ولاعة؟

*

القاهرة، المساء نفسه

ها قد مضت ساعة منذ أن تحلّق أربعة مسؤولين سامين في اللجنة التنفيذية العليا حول عبد الناصر في قاعة الاجتماعات بقصر

---

(١) تأسست في مصر سنة ١٩٦٤ بدعم من جمال عبد الناصر، وبإيعاز من أحمد الشقيري، السياسي الفلسطيني، الذي عين رئيسا للحركة ما إن نشأت.

القبة. كانوا ستّة: زكرياء محي الدين، وحسين الشافعي، وعلي صبري، وصدقي سليمان، والوزير الأول الحالي أنور السادات، ومن يدعوه الكلّ باسم «روبنسون»،[1] رئيس أركان الجيش: عبد الحكيم عامر. قال هشام في قرارة نفسه، وهو يتابعهم، إن وجوده بين هذه الشخصيات لا معنى له البتة، حيث لم يكن سوى شخص طارئ على المكان. لكن عبد الناصر طلب منه أن يشهد الاجتماع- لأسباب لم يشرحها.

بعد بضع كلمات موجزة جدا، خلص الرئيس إلى وصف الوضع بقوله:

- الآن وقد حلّت قواتنا محل قوات الأمم المتحدة، وباتت منتشرة في سيناء، هناك احتمال بنسبة ٥٠ في المائة أن تشتعل حرب ما. من ناحية أخرى، إذا أمرت، كما فعلت سنة ١٩٥٦، بإغلاق مضيق تيران[2] في وجه الملاحة الإسرائيلية، فإن الحرب ستقع بالتأكيد.

صمت، وغاص بنظره في عيني الماريشال عامر، ثم تساءل:

- إذا اتخذت هذا القرار، فهل ستكون قواتنا المسلحة قادرة على مواجهة هجوم إسرائيلي؟

تظاهر عامر بأنه يملك الكلمة الفصل:

- آخذ على عاتقي الإجابة! كل شيء جاهز تماما، حيث لم نكن أبدا كذلك كما نحن اليوم.

تفحص عبد الناصر الوجوه حوله، ثم كرر سؤاله. أجمعوا جميعا على نفس الجواب الذي قدمه القائد الأعلى.

---

(١) بسبب شغفه بالمحكيات الرحلية.

(٢) مضيق يقع بين مصر والعربية السعودية. وهو يصل خليج العقبة بباقي البحر الأحمر.

- جاهزون.

تأمل عبد الناصر لحظة. توجه هذه المرة بسؤاله إلى الجميع:

- هل لأحدكم رأي في مسألة مضيق تيران؟ هل نجازف بإغلاقه؟

ردّوا جميعا بالإيجاب ما عدا الوزير الأول صدقي سليمان.

- أفصح، قال عبد الناصر. لماذا تعارض هذه الخطوة؟

- لأنها خطيرة، سيدي الرئيس، بل لأنها لم تنضج بعد. ووضعنا الاقتصادي سيء فضلا عن ذلك، حيث ستوجه له حرب جديدة ضربةً قاضية. لقد توقفت المشاريع الصناعية الكبرى بسبب غياب الوسائل. وتقلصت المساعدات السوفياتية بشكل كبير. صدقوني، أرى صراحة أن الحكمة تقتضي تأجيل إغلاق المضيق إلى وقت لاحق. إنكم تظنون أن إغلاقه لن يدفع الإسرائيليين إلى الردّ بعنف أكبر مما ارتكبه الفرنسيون والبريطانيون سنة ١٩٥٦.

طأطأ الريس رأسه، مستغرقا في التفكير.

استغل هشام الفرصة ليومئ بعينيه موافقا على رأي صدقي. كان الوزير ينطق بصوت العقل، لكن هل يسمعه الرئيس؟ لأن العالم العربي يقف على أبواب مصر، يترقب تحركا قويا، وتأكيد السيادة أمام الإسرائيليين. بدورهم، يطلب الفلسطينيون من بطل القومية العربية أن ينتزعهم من غيتوهاتهم ويستعيد حقوقهم. بينما كان أعداء الريس على أهبة إشهار سهام نقدهم. فإذا أصرّ عبد الناصر على جموده، سيوجهون له أصابع الاتهام، ويصفونه بالجبان. بل إن بعض الأصوات في الأوساط السياسية العربية تعالت رافعة شعارات جارحة: «انتهى الريس، انتهى.» وحده الشعب المصري لم يكن، بلا شك، ينتظر أي شيء. لكنه رضخ للواقع بعد أن بات منهكا وتعبا وبئيسا. ففي كل الأحوال، هذا الواقع قائم منذ ألفي سنة، هكذا...

كان الكل يعرف أن عبد الناصر متفوق في الفشل. ظنّ هشام، الذي أمعن النظر إليه، أنه كان يستطلع أفكاره: «ما العمل؟ هل يحرّك جنوده، أم يبقى متحصنا داخل قلعته؟»

في سريرة نفسه، لم يعد هشام يوهم نفسه بأي شيء. ففي هذه اللحظة التاريخية بالذات، أصبح عبد الناصر ألعوبة في يد الأحداث التي كانت منفلتة تماما من قبضته. لقد ارتقى، طوال السنوات الماضية، إلى مرتبة الرمز المطلق في العالم العربي. وبصفته تلك، ينتظر منه أن يقاتل كل «قوى الشر» لصالح القومية العربية. لكن الريس لم يعد سوى أسد مقيّد بالسلاسل.

بعد يومين، أي يوم ٢٢ مايو/ أيار، أعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران.

سافر الأمين العام للأمم المتحدة إلى القاهرة لمحاولة ثنيه عن قراره. ناقشا الأمر معا. تنازل عبد الناصر عن قراره. قال إنه موافق، في انتظار تسوية المسألة وديا مع الإسرائيليين، وإنه سيسمح بمرور الحمولات المتجهة نحو إيلات، شريطة ألا تنقل السفن الأسلحة أو أي مواد استراتيجية.

لكن سرعان ما احتج الوزير الأول الإسرائيلي قائلا: «هذا غير وارد. فهذا الحصار يخرق القواعد الدولية، ويمثل عدوانا على إسرائيل!» على الفور، نقل الرئيس «جونسون» احتجاجه.

لاحظ كل من احتك بعبد الناصر، في تلك الساعات الحبلى بالتوتر، عصبيته المفرطة. ربما كانت تتراءى له الهاوية. هل يتراجع عن قراره ويعيد السيف إلى غمده؟ أم يناور حتى النهاية؟

سيناور. أجل. هل سيعتمد حينها على نجمته جالبة الحظ؟ تلك التي سطعت فوق رأسه سنة ١٩٤٨، عندما خاض الحرب في فلسطين

في بلدة الفالوجة. كان الموقع التي اتخذه على مشارف المدينة مكشوفا. ذات صباح، تقدم ملازم إسرائيلي نحو خطوط الدفاع المصري، وطلب التحدث إليه، حيث قال له: «أنتم محاصرون. سأنتقل إلى الهجوم غدا. يجدر بك أن تستسلم، بدل أن تدفع رجالك للهلاك من أجل لا شيء.» ردّ حينها عبد الناصر بنبرة غير واعية تماما: «أنصحكم ألا تهجموا، وإلا سترتكبون حماقة، لأنني محظوظ على نحو لا يصدق. وستعضون الأصابع ندما.» طبعا، لم يمنع الملازم الإسرائيلي نفسه من الضحك على حجة واهية مثل هذه. في الفجر، انتقل إلى الهجوم. حدثت المعجزة بعد ذلك، حيث سارت الأمور، كما تمنى عبد الناصر. لكنه لم يشرح أبدا كيف نجحت قواته في أن تصدّ الإسرائيليين وتكبدهم خسائر فادحة. وفي اليوم الموالي، عبر الملازم عن أمنيته في استعادة قتلى جيشه في المنطقة المحرمة التي تفصلهما. وافق عبد الناصر. حينها قال له الملازم الإسرائيلي: «كان علي أن أنصت إليك. فأنت رجل محظوظ! لم تكن تملك أي فرصة للانسحاب.»

ربما كان عبد الناصر يحلم في نهاية العام تلك بنجمة الفالوجة؟

في يوم ٢٨ مايو/ أيار ١٩٦٧، عقد ندوة صحافية أمام مئات الصحافيين. بدا كأنه تقدم في العمر مائة عام. كان صوته أجش. بدت ابتسامته المشرقة في العادة أشبه بتكشيرة. وفي يوم ٣٠ مايو/ أيار، هبط الملك حسين في مطار القاهرة، كما فعل الرئيس السوري نور الدين الأتاسي، ووقع اتفاق الدفاع مع الريس.

وفي اليوم الموالي، دخل «موشي ديان» و«مناحيم بيغن» مقر الحكومة في القدس.

*

القاهرة، مطلع يونيو/ حزيران ١٩٦٧

- إنه أمر سخيف، قال هشام. كل شيء سخيف.

أراد والده أن يطمئنه.

- لا يكون الأسوأ مؤكدا أبدا، يا ابني!

- ربما لست على علم بما يجري. إذا، أخبرك أن شخصا جديدا دخل الحكومة الإسرائيلية، اسمه «مناحيم بيغن».

- لا أعرفه.

- إنه من الصقور. متطرف شرير، وإرهابي سابق! لقد طلب الإنجليز رأسه بأي ثمن خلال الانتداب. فهو الذي قاد الهجوم- إلى جانب أشياء أخرى- على فندق الملك داوود في القدس، والذي خلف مائة قتيل والعديد من الجرحى. وفي الآونة الأخيرة، اشتبه في محاولته اغتيال «كونراد أديناور».[(١)]

- المستشار الألماني؟ لماذا بحق السماء؟

- لأنه يعترض على اتفاق تعويض ضحايا المحرقة التي تفاوض «بن غوريون» و«أديناور» بشأنه. إذ يراه غير كاف. فضلا عن ذلك، ظل «بن غوريون» يمقته، مثلما يمقت جماعة «إرغون» المسؤولة عن عدد من الفظاعات التي قادها «بيغن». يقال إنه يحتقره إلى درجة أنه يرفض أن يناديه باسمه. إذ يستعمل، في الكنيست، عبارات تورية مثل: «الرجل الجالس على يمين النائب الفلاني.» هكذا، تتصور أن هذا الصهيوني سيبذل قصارى جهده ليحرض إسرائيل على دخول الحرب. تجري الجريمة في دمه!

صمت هشام، قبل أن يستأنف:

---

(١) «فرانكفورتر ألجيماين تسايتونغ» في عددها الصادر يوم ١٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦، و«صانداي تايمز» في عددا الصادر يوم ١٤ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦.

- هناك ما هو أخطر. فوجئت البارحة بسرّ. فالرئيس مصاب بمرض خطير، هو داء السكري. وهو يعرف ذلك منذ سنوات.

- داء السكري! أنا أيضا مصاب به! لكني مازلت حيًّا!

- نعم. لكنك لا تدخن ثمانين سيجارة من نوع «كرافن أ» يوميا. في حالة عبد الناصر، بلغ المرض مرحلة متقدمة جدا. إذ كشف فحص أجراه في عيادة بموسكو تصلبا حادا في أوردة الفخذين، حيث تنتظر الريس أزمة قلبية عاجلا أو آجلا.

تنهد تيمور لطفي.

فجأة، هاج ذهن العجوز بأشباح متنكرة في صور سحرة ماكرين. ذات يوم، أخرجت العفريت من المصباح، كما فعل علاء الدين. ومنذ ذلك الحين، لم يستطع أحد أن يعيده إلى الداخل.

(١٨)

أيتها السماء! أغضبني همجي حتى في طريقة
عقابه لي! لقد أنزل بي هذا العقاب بكل مهانة.

مونتيسكيو، *رسائل فارسية*

القاهرة، ٢ يونيو/ حزيران ١٩٦٧

خرج عبد الناصر من مقر القوات الجوية حيث تداول مع رئيسها صدقي محمود. حذره قائلا: «في حالة هجوم إسرائيل، اعلم أن الطيران هو من سيتلقى الضربة الأولى.» طمأنه صدقي بجرأة: «لا تخشى أي شيء، لن تتجاوز خسائرنا ١٠ في المائة.»

مع ذلك، حذره البكباشي ثانية. خاطب هذه المرة الماريشال عامر: «سيهاجموننا يوم ٤ أو ٥ يونيو/ حزيران. كن جاهزا.»

لم يكن أحد منهم يعلم أن طائرات «أواكس» الأمريكية كانت حينها، هناك في مكان ما في أعلى سماء شبه جزيرة سيناء، ترصد مواقع الوحدات المصرية، وأنها نقلت المعلومات إلى الإسرائيليين صباح يوم ٣ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، في نحو الساعة العاشرة.

وفي يوم ٤، وحدهم بعض المفرطين في التفاؤل كانوا يظنون أن السلام مازال ممكنا.

وفي يوم ٥ يونيو/ حزيران، نحو الساعة الرابعة والنصف، قرر

الماريشال عامر، الملقب بـ«روبينسون»، فجأة أن يبدأ جولة جوية تفقدية فوق سيناء. أصدر حينها الأمر لجميع منظومات الدفاع الجوي «سام» بالتزام اليقظة.

وفي الساعة الخامسة، كان الهجوم الإسرائيلي قد بدأ. كان عامر لا يزال محلقا في الأجواء.

وضعت الصواريخ في منصاتها.

*

القاهرة، ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧

علم هشام وشهيدة انطلاق العدوان عبر الأثير. قال لها:

- أنا واثق من أننا سنلقنهم درسا لن ينسوه أبدا، خصوصا أننا لسنا وحدنا. يساندنا الأردنيون، وخصوصا أنتم السوريون. أتصور، مع وجود رفيقك القديم حافظ الأسد رئيس القوات الجوية، أننا سنكون في موقع قوة، أليس كذلك؟ سنسحقهم.

وافقت شهيدة، لكن بفتور.

طبعا، كان صديقها الأسد يغازل النجوم. فمنذ شهر فبراير/ شباط، بات الجناح الموالي للاتحاد السوفياتي في حزب البعث، بعد الانقلاب الألف، يتولى زمام البلاد، حيث طرد مؤسسي الحركة، وأشهرهم ميشيل عفلق. وتفيد آخر الأخبار أنه فرّ ربما إلى البرازيل، مفسحا المجال أمام حافظ الأسد الذي بات الآن وجها من الوجوه السياسية المهيمنة في البلد.

سنسحقهم!

كيف يتسرب الشك إلى ذلك؟ كان مخطط عبد الناصر فعالا، ظاهريا على الأقل، والعتاد كافٍ وأكثر. كانت مصر، من بين الدول

العربية كلّها، تتوفر على أكبر قوة جوية. وكل طائراتها حديثة. فكيف تتوقع الهزيمة؟

قبل الذهاب إلى المقر الرئيسي، استغرق هشام الوقت الكافي لحلق لحيته وتناول فطوره. عندما كان يهمّ بالمغادرة، همست شهيدة في أذنه:

- *Fuck them all!*[1]

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا.

عندما وصل إلى القلعة، لاحظ مغادرة سيارة السفير الروسي. أمر غريب. *ماذا كان يفعل هنا؟*

دخل قاعة العمليات، وسأل الضباط الحاضرين: «ما الأخبار؟»

لم يتلقّ أي جواب.

لاحظ وجود السادات وعامر. حيّاهما. بدا كأن عامر لم يسمعه. كرر السؤال. لكن لا جواب.

في تلك اللحظة ظهر عبد الناصر. بدا مضطربا، في غاية التوتر. سأل رئيس القيادة العامة على الفور:

- إذا؟ أين نحن؟

ساد الصمت، ثم سقط الاعتراف الذي لم يخطر على بال:

- إنها النكبة، تلعثم الماريشال.

ثم انخرط في خطاب غامض حول تدخل الطيران الأمريكي. بين لعثماته، علم الجميع أنه استدعى السفير الروسي، ساعة بعد اندلاع العدوان- وهذا يفسر حضوره قبل لحظات- ليطلب منه وقفا فوريا لإطلاق النار.

(١) «اسحقهم جميعا!»

امتقع وجه عبد الناصر. صدّ عامر بحركة غاضبة من يده، وطلب التقارير الأولى. كانت مريعة وكارثية.

في الساعة التي تلت الهجوم الإسرائيلي، دمر الطيران وسوي بالأرض وتلاشى. ودكّت أرتال الدبابات، التي وجدت نفسها محرومة من التغطية الجوية، بدون رحمة أو شفقة. فضلا عن ذلك، أمر الماريشال بخوض المعركة في حالة تراجع. كان أمرا أرعن ومرتجلا، وصفه جميع الخبراء بأنه انتحاري.

في شوارع القاهرة، كانت الألسن تلوك كلمة واحدة: «النصر!»

ذهبت شهيدة، التي أعياها الشعور بعدم الجدوى، إلى الصليب الأحمر، لتعرض خدماتها. عندما عادت إلى البيت منتصف النهار، وجدت هشام جالسا على أريكة الصالون، بيده كأس «جوني والكر».

- ماذا تفعل هنا؟ تساءلت مندهشة.

ظل صامتا.

أصرت على السؤال ثانية:

- ماذا يجري؟ أجب!

أخيرا، ردّ هشام بصوت أجش:

- انتهى كل شيء. لقد خسرنا الحرب...

- كيف خسرتم الحرب، وهي بالكاد بدأت؟

كان وجهه مضطربا عندما نظر إليها.

- انتهى كل شيء، يا قلبي. لم نعد نملك طيرانا. وقد دخلت الدبابات الإسرائيلية مدينة العريش. وجنودنا يهربون حفاة أمام تقدمهم. سيذبحون. كل هذا بسبب هذا الأحمق عامر. لم يأخذ الخطة المتفق عليها بعين الاعتبار.

بينما كان يتابع كلامه، كانت تنبعث من النافذة صرخات فرح: «سنقاتل! سنموت في سبيل الوطن!»

طفح الكيل. انفجرت باكية هي التي لم تبكِ أبدا.

*

وفي يوم ٦ يونيو/ حزيران، استولت الدبابات الإسرائيلية، بقيادة الجنرال إسحاق رابين، على قطاع غزة. وفي اليوم الموالي، لم يكن يفصلها عن قناة السويس سوى أربعون كيلومترا.

وفي الآن ذاته، شنّ «تساحال» الحرب على الأردنيين في القدس القديمة. وفي يوم ٨، سقط الجزء العربي منها في أيدي الإسرائيليين. وكما في لعبة البولينغ، أجبر الملك الصغير حسين على وقف القتال في ضواحي أريحا أولا، ثم في الضفة الغربية.

وفي يوم ٨ أيضا، زحف الإسرائيليون على سورية.

عندما توقفت المواجهات، كانت إسرائيل تسيطر على شبه جزيرة سيناء كلها حتى قناة السويس، وعل قطاع غزة والضفة الغربية والقدس كلها والموقع الاستراتيجي في هضاب الجولان بسورية.

كانت الأجراس تقرع للريس...

*

القدس، ٩ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، منتصف النهار

كانت «إرينا» تبكي فرحا. أما «صامويل»، فقد أشهر علما تتوسطه نجمة داود، وكان يحرّكه بجنون عبر النافذة.

في الشارع، كان الناس يهنئون بعضهم بعضا، ويرقصون، بينما كانت تتردد في كل مكان أغاني طرب. والأطفال يدندنون، متحلقين في دوائر. وتقابل البعض الآخر فيما بينهم، وشرعوا يقرؤون آيات من المزمور ١١٨: «من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا.»

في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، هاجم «تساحال» القدس القديمة بالمدافع عبر باب الأُسُود. ونزل المظليون في حائط البراق،

الذي منع على المؤمنين اليهود منذ تسعة عشر عاما. أذرف الجنود الدموع. وفي الساعات الموالية، التحق بهم الوزير الأول «ليفي إشكول» ووزير الدفاع «موشي ديان» ورئيس الأركان العامة «إسحاق رابين». وترنم لواء «نشال» والمغنية «نعومي شيمر» بأغنية «أورشليم من الذهب»، التي تردد صداها في الفضاء.

لقد نجت إسرائيل.

*

حيفا، في اللحظة ذاتها

من الشرفة كان مراد يتابع تظاهرات الفرح غير مصدّق. لم تعد منى قادرة على أن تذرف دموعا.

همس بصوت كئيب:

- كان ينبغي أن أبلغ الثامنة والستين كي أشهد هذا الاحتفال.

احتضن كريم ابنيه مبروك وفيروز. أما آخر العنقود، عمر البالغ من العمر تسع سنوات، فكان يغط في النوم في حضن أمه، مسندا رأسه إلى صدرها.

- إننا نعيش كابوسا. بعد النكبة، ها هي النكسة. فكيف سيكون مآلنا؟

- نحن أحياء، قال كريم. نحن هنا، وسنبقى. إننا متجذرون هنا، مثل الزعتر والزيتون.

- إنك تهذي، يا ابني، دمدمت منى. متجذرون؟ فيمَ؟ لم نعد نملك أرضا. لا شيء.

- وماذا تريدين أن نفعل؟ أن نهرب؟ نهرب مثل الذين رحلوا سنة ١٩٤٨ ويعانون اليوم في المخيمات؟ هل سنحيا مثل المشردين؟

- ابنك على صواب، أكدت ليلى. هنا، على الأقل، سنحفظ

كرامتنا. لا أريد أن يكبر أبنائي مهانين في أحياء القصدير، محرومين من كل شيء. لا نملك خيارا آخر.

- أجل. يجب أن تتحرر من الوهم.

حدق الزوجان في مراد.

- اشرح، يا أبي.

- لنا أقارب في القاهرة. سيأووننا الوقت اللازم.

- هل تقصد تيمور، شقيق أمي؟

- تماما. رغم التأميم، مازال يتوفر على بعض الموارد. ولن يتردد في استقبالنا بالأحضان. هناك...

أغلق كريم أذنيه.

- توقف، يا أبي! لا أريد أن أسمع أي كلمة إضافية!

- أمنعك من أن ترفع صوتك! البقاء يعني الانتحار! الآن وقد صار الصهاينة أسياد البلد المطلقين، هل تعتقد أنهم سيتركوننا نعيش؟ أنت مجنون ومستهتر! لن نسترجع مدننا بالكفاح المسلح، بل بالمعارك السياسية! علينا أن نحزم حقائبنا، وأن نرحل...

- اسكت يا أبي! صرخ كريم.

- لا! ستنصت إليّ حتى النهاية!

استعاد مراد أنفاسه.

- سيدمرون جميع البلدات تدريجيا، وسيعوضونها بالمستوطنات اليهودية. لا يا ابني، لا يا ليلى، يجب ألا يراودكما أدنى وهم في ذلك. ستعيشون هنا في المهانة. هنا سيكبر أبناؤكما في الذلّ. هل تتحدثان عن الكرامة؟ أفضل أن أموت في مخيّم على أن أعيش راكعا هنا.

- سنعيد بناء القرى المدمرة، لبنة لبنة! قال كريم معاندا.

- أنت مجرد حالم! لن يسمحوا لكم ببلدة واحدة، ولا قرية واحدة. هل تعرف لماذا؟ لأن الأمر يتعلق ببقاء اليهود!

- وماذا عن بقائنا نحن إذا؟ ماذا تقول عنه؟

حلّ الصمت.

- يا ابني، لقد متنا، قالت منى بنبرة مرهقة.

- ممتاز. افعلوا ما ترونه جيدا. نحن لن نرحل أبدا! لكن اسمحا لي أن أقول لكما إنكما جبانان.

- ماذا؟

مثل حيوان ضارٍ، وثب مراد على ابنه، وأمسكه من ياقة قميصه. ورغم أنه بلغ السبعين، إلا أن قبضة يده بقيت قوية محكمة.

- هلا كررت كلامك؟ تصفني أنا، والدك، بالجبان؟

- أنا...

سارعت منى محاولة فضّ اشتباكهما.

- أنا؟ كرر مراد بنبرة متذبذبة. اعلم أيها الجاهل أنني اخترت، منذ نصف قرن، اختيارا لا أحد يجرؤ على فعله. لقد تركت ما قدمه لي صهري من رخاء ورغد عيش، قصد أن أعيش هنا. في فلسطين. قاومت كل توسلاته، ورفضت كل الجواهر التي كان يرمي بها عند قدمي.[1] اخترت بوعي تام أن أعود إلى فلسطين، حتى تولد أنت في فلسطين. اخترت فلسطين، لأبقى متجذرا فيها مثل الزعتر والزيتون- كما قالت زوجتك! وقع اختياري على ذلك. ولطالما اعتقدت أن العنف وحده سينتصر على العنف. كنت مخطئا. وكان أخي سليمان، بدوره، يعتقد الأمر ذاته. مات مقتنعا بذلك. أما اليوم، فلم يتبقّ من عمري سوى وقت قصير. هكذا، أريد أن أموت واقفا، مرفوع

---

(١) انظر الجزء الأول.

الرأس. أنت حرّ في البقاء. فالشباب يحتمل المواجهة، لكن الشيخوخة لا تملك الوسائل لذلك!

عندما ترك الشرفة، امتلأ المكان بلون الشفق.

في الأيام الموالية، التحق الزوجان بأفواج اللاجئين المتدفقة بلا انقطاع. كانوا نحو ثلاثمائة ألف يسيرون على طريق المنفى. بعضهم سار نحو الأردن، وآخرون نحو البلدان المجاورة. تدريجيا، فرغت منطقة هضبة نهر الأردن عمليا من جميع سكانها، بينما فرّ خمسون ألف سوري من مرتفعات الجولان بحثا عن مأوى في سورية.

بات عدد اللاجئين الإجمالي يقترب الآن من أربعة ملايين.[1]

*

القاهرة، المساء نفسه

كان صوت عبد الناصر، الذي يتردد عبر أثير الإذاعة في البلد كله، ناصعا لا تشوبه شائبة.

- لا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة... وأقول لكم إنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر.. فلقد كلفت زميلي وصديقي وأخي، زكريا محيي الدين، بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية، وأضع كل ما عندي تحت طلبه.[2]

---

(١) أونروا.

(٢) مقتطف من خطاب تنحي عبد الناصر سنة ١٩٦٧ (المترجم).

سكت عبد الناصر.

تسمر المصريون في أمكنتهم.

حل الصمت. صمت أسطوري.

ثم، سمع همس ما، يكاد يكون وشوشة. تحول الهمس إلى إشاعة، والإشاعة إلى جلبة. ارتفعت الجلبة تصمّ الآذان فوق هضبة النيل.

فجأة، اندفع موج بشري في شوارع القاهرة. هرع الناس إلى بنايات الإذاعة والتلفزة، محاولين منع الاستقالة. سرعان ما تجمع آلاف الأشخاص في الشوارع والساحات، يهتفون باسم رئيسهم: «عبد الناصر! نحن معك! لا تتركنا!»

حوصر بيت البكباشي. كانوا مائتي ألف، نصف مليون شخص يصرخون بخيبة أمل. ونساء كنّ يملن إلى الموكب الذي يطوف الشوارع.

«لا تتركنا، يا جمال! ابقَ! ابق! نحن في حاجة إليك!»

من شرفة شقة الزمالك، كان هشام وشهيدة يتابعان هذه الأمواج البشرية المتلاطمة غير مصدقين.

- هذا أمر خارق، علقت شهيدة. إنها معجزة شعبية حوّلت النكسة إلى نصر.

(١٩)

لا تطلع غيرك على آلامك، فإن الباز والنسر
يقتتلان على الجريح الذي يشتكي.

مثل عربي

الكويت، ١٠ يوليو/ تموز ١٩٦٧

كان ياسر عرفات يدحرج حبات سبحته بين أصابعه، وهو يصغي بانتباه إلى ما تقوله ليلى خالد. عندما ختمت كلامها، ابتسم الفلسطيني.

- العمل العسكري، قال بروية. لست أنا من كان يعترض عليك، وأنت تعرفين هذا. فضلا عن ذلك، يصرح ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، التي انضمت إليها فتح، بوضوح باستئصال إسرائيل. لن يتحقق هذا الهدف بدون عمل عسكري. هكذا، لا أستطيع أن أوافقك الرأي. هل تعلمين ما قلته لعبد الناصر عبر الهاتف الشهر الماضي؟ «يجب أن نشعل الحرب مجددا، ولو بأعواد ثقاب!»

- أنت توافقني الرأي، يا أبا عمار،[١] لكن فريقك يتبرم من تدريبي. فهو يرفض أن أتدرب مع رفاقي الذكور. لماذا؟

---

(١) هو اللقب الذي تبناه رئيس حركة فتح منذ وقت قصير.

- لأن روح فتح ترفض أن تجازف المرأة بحياتها. فهي ثمينة في نظرنا.

انفجرت ليلى.

- كيف تكون حياتي أثمن من حياة رجل! نحن متساوون جميعا أمام الموت.

ابتسم عرفات.

- هل تستعجلين الموت إذا؟

- في سبيل بلدي، بدون شك.

أدار رئيس فتح سبحته حول سبابته عدة مرات، قبل أن يضعها فوق الطاولة المهترئة التي تفصله عن محاورته.

- يجب أن أشرح لك بعض المعطيات التي تجهلينها. يظهر الكفاح المسلح أكثر صعوبة مما نتوقعه، خاصة منذ النكسة التي أصابتنا مؤخرا. ليست فلسطين غابة فيتنام، حيث لم تعد الجغرافيا تسهل العمليات. فضلا عن ذلك، الآن وقد احتل الجيش الإسرائيلي البلد كلّه، وما وراء حدوده أيضا، أصبح قادرا على مراقبة الطرق وعزل المدن والبلدات، ومن ثم الحد من عملياتنا بشكل كبير. أنت لا تعرفين أن قوات الأمن الإسرائيلية فككت العديد من الشبكات السرية التي أنشأناها هناك بسهولة أكبر حتى إنها صارت تملك الورقة الرابحة منذ الهزيمة.

قطبت ليلى حاجبيها.

- وضعت المخابرات الصهيونية، بعد احتلال قطاع غزة والضفة الغربية، يدها على لوائح المقاتلين التي ظلت تحفظها بعناية المصالح السرية المصرية والأردنية، التي كانت تدير هذه الأقاليم.

- إنه أمر مخيف!

- أجل، كارثة. تلتها موجة اعتقالات فقدنا خلالها خيرة

عناصرنا. أما فيما يتعلق بالأسلحة (وبدأ يضحك)، فنحن لا نتوفر سوى على بنادق «كارلو» تشيكية قديمة استعملها الجيش المصري سنة ١٩٥٦! ومنذ فترة قصيرة، وافق الصينيون على مدّنا- مجانا، وأنا أقدر ذلك- بأسلحة خفيفة. وصلت الشحنة الأولى منذ شهر إلى دمشق، عبر الجزائر.

سكت رئيس فتح بضع لحظات، قبل أن يكمل:

- هل أدركت الآن مدى صعوبة مهمتنا؟

- وهذا لا يشرح بتاتا لِمَ أُحرَم مما هو متاح لرفاقي الذكور.

- يمكنك أن تخدمي القضية بطريقة أخرى.

- كيف؟

- المخابرات. لقد اكتشفنا أن الإسرائيليين يستخدمون شبابا فلسطينيين يدسونهم في صفوفنا. هم خونة! إذ عثرنا عند أحد من هؤلاء، مما كشفنا قناعهم، جهاز إرسال متطور جدا. كان يستعمله من أجل إخبار الموساد. لقد أصبحت المخابرات أساسية إذا. يمكننا أن ندربك في الأردن، بعمّان، على هذا الشكل الآخر من الحرب. الحرب السرّية. ما رأيك؟

أطرقت ليلى لحظة، لكن ملامح وجهها الحادة كانت تشي أن الفكرة لم تستهوها.

- اسمع، يا أبا عمار. لقد شاركت في سن الرابعة عشرة في توزيع المناشير أمام أعين الجنود اللبنانيين. حملت الغذاء إلى إخوتي وأخواتي المحاصرين داخل مدينة صور العتيقة. وفي عزّ التفجيرات، واصلت التنقل، أحمل صينية فوق رأسي. وعندما كنت في مدرسة الإنجيليين، دعوت التلاميذ الآخرين إلى الإضراب عن الدروس، و...

أوقفها عرفات بإشارة من يده.

- أعرف مسارك. فهو مجيد. لكن لا تصرّي. أأبى على نفسي أن تجازف امرأة بنفسها.

تأملت ليلى رئيس فتح طويلا.

- إذا لم تكن تريدني، سأذهب حيث سيسعدون باستقبالي.

- ألديك فكرة أخرى؟

- أجل. الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.[1]

- هذه الجماعة الماركسية؟ هل تمزحين؟

- لا مطلقا. فهم يجندون الشباب حاليا. وهم لا يميزون بين مقاتل ومقاتلة.

- هل تعلمين أن حبش ينادي بفلسطين تساوي بين اليهود والعرب؟

- فلسطين جزء من الوطن العربي. وهو ما يغير كل شيء.

استأنف عرفات تحريك حبات سبحته، بنظرة قاتمة.

- أنت حرّة. افعلي ما يمليه عليك قلبك.

دفعت ليلى الكرسي.

- لكن سنلتقي، يا أبا عمار. حتما سنلتقي.

*

بغداد، اليوم ذاته،

كان فواز ومجيدة ينظران بشغف إلى عادل ابنهما البكر، بينما هو يملأ رئتيه بالهواء، استعداد لإطفاء شموعه العشر. كانت كعكة عيد ميلاده تتكون من خمس طبقات، يلمعها السكر وتتوجها الشوكولاطة. بجانبه، بدأ شقيقه غسان، الذي يصغره بعامين،

---

(١) أسسها جورج حبش وأحمد جبريل سنة ١٩٦٧.

يتململ بعد أن نفد صبره. ولعابه يسيل منذ ربع ساعة أمام هذه الحلوى اللذيذة، وبيده شوكة وسكين.

همس في أذن عادل:

- هل تطفئها أو أطفئها بدلا عنك؟

- افعل!

نفخ عادل. ظلت شمعة مشتعلة. لكنها لم تقاوم طويلا، بعد أن نفخ عليها غسان.

تعالت التصفيقات.

- ليس من حقك أن تفعل، دمدم عادل. إنه عيد ميلادي!

- وهي معدتي!

- هيا، اهدآ أيها الولدان! تدخلت مجيدة.

- إذا، يا صديقي، كيف حالك؟ تناهى صوتٌ من خلف كتفي فواز.

استدار العراقي.

- أحمد! قال مندهشا. وزيرنا الأول شخصيا! يا لها من مفاجأة، ويا له من شرف!

- لا يحتفل صديق بعيد ميلاد ابنه كل يوم. سأكون مقصرا إن لم أحضر..

أشار أحمد حسن البكر إلى الرجل الواقف بجانبه.

- أقدم لك قريبي صدام حسين التكريتي.

أُخِذ فواز على حين غرة، فاستغرق بعض الوقت قبل أن يردّ. ذلك أنه لم تَرُجْ عنه أي معلومات منذ فراره.

- أهلا وسهلا.

- السلام عليكم يا أخي.

نزع صدام السيجار المحشور بين شفتيه.

- سبق أن التقينا، السيد البغدادي وأنا.

- فعلا، أكد فواز. كان ذلك منذ خمس سنوات في مقر الحزب. كان السيد التكريتيَ قد عين حينها كاتبا للقيادة الجهوية.

- دعونا من الكلام المهذب. أنت صديق قريبي، وبذلك أنت جزء من عائلتي. ادعني إذا صدام. تتمتع بذاكرة جيدة! كما تعلم، اتهمت ظلما بمحاولة اغتيال شقيق الرئيس الحالي، ورموني في السجن كمجرم جِلف!

افتر ثغر التكريتي عن ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه المصفرة بالتبغ.

- لكني تركتهم بلا استئذان!

تظاهر فواز بالإعجاب، ثم قال:

- لم أكن أعلم أنكما قريبان.

- ابن خال بعيد، صحح الوزير الأول.

- هيا بنا إلى الشرفة. ماذا تشربان؟

- لا شيء، أجاب البكر. أشكرك. للأسف، لا نستطيع البقاء مدة أطول. إننا نغرق في بحر هائل من المشاكل.

قال صدام بحزم:

- لقد دمرتنا هذه الحرب الأخيرة ضد إسرائيل. فقدنا العديد من الجنود، دون اعتبار الخسائر المادية. أحيانا، أقول إننا سنستيقظ، فلا يكون الأمر سوى كابوس! لكنه الواقع. تصور أن مساحة الدولة الصهيونية انتقلت في بضعة أيام فقط من ٢١ ألف كيلومتر إلى ١٠٢ ألف كيلومتر مربع.

وافق الوزير الأول على قوله.

- ماذا عن الرئيس عارف؟ كيف يعيش هذا الوضع؟

- عارف؟ إنه مترنح مثلنا جميعا. لم يبق لنا سوى أن نأمل تصويتا إيجابيا في الأمم المتحدة يقضي بانسحاب القوات الإسرائيلية.

قال صدام ساخرا:

- قريبي متفائل عنيد. حتى وإن تم التصويت على قرار ما، فإن اليهود لن يرضخوا له. لا أخفيكما، فإنهم سيكونون مجانين لو فعلوا. كيف سينسحبون من هذه الأقاليم، بينما باتوا سادة اللعبة المطلقين، بعدما حققوا جميع أهدافهم، بل وأكثر؟ لا. بصدق، لا أرى سببا لقبولهم الانسحاب.

- اسمح لي سيدي. هذه برقية إليك.

فضّ فواز الظرف الذي قدمه له الخادم.

يؤسفنا أن نخبركم بوفاة السيدة دنيا لوفون. اتصلوا فورا بأوديون ١٤-١٥. جيروم بيار موثق.

- يا إلهي، المسكينة. قال مهمهماً.

- ماذا يجري؟ سأل أحمد حسن البكر.

- صديقة. رحلت عنا صديقة.

- الموت علينا حق. تعازي الحارة، قال صدام متصنعا.

- مكتوب، قال البكر.

- توقع هذه *الكلمة على موت العرب*. لا شيء مكتوب، يا صديقي. لا *شيء! بل* هو مكتوب *بأيدينا*.

تساءل فواز، وهو يفكر ثانية في أقوال دنيا، ما إذا كانت الراحلة صائبة.

خاطب التكريتي:

- ما هي مشاريعك، الآن وقد صرت رجلا حرّا؟

- مشاريعي؟ لا أملك سوى واحد، هو أن أخدم بلدي حتى أهرق دمي في سبيله.

كانت نبرته مفخمة حتى إن قشعريرة سرت في جسد فواز.

*

سجن الرملة، ١٢ يوليو/ تموز ١٩٦٧

- أعتقد أنني سأنجح، أكّد «أفرام» وهو يداعب يد جمانة. ثقي بي، أرجوك. ستغادرين هذا المكان.

سعت الفلسطينية جاهدة إلى الابتسام.

- هل تعرف عمري منذ البارحة؟ تسعة وعشرون عاما. قضيت أربعة منها بين هذه الجدران. وشبابي هو الذي مات.

ظل «أفرام» يمسك بيد المرأة. لقد بات قادرا على أن يلمسها منذ أن منحا حق اللقاء بعيدا عن ذاك الجدار الزجاجي الفاصل الرهيب، وأن يمنحها دفئا وطاقة رائعة.

- أكد لي المحامي أننا نملك حظوظا. كوني واثقة.

أومأت بالموافقة، لكن دون اقتناع.

- لابد أنكم سعداء.

- سعداء؟

- ألستم أكبر المنتصرين؟ يبدو أنكم بلغتم القاهرة، وطرقتم أبواب دمشق وعمان.

- إلى حد ما. لن أفاجئك إذا قلت إنني لست سعيدا بذلك، يا جمانة، لأن هذا الانتصار، رغم شموليته، لا يسوّي أي شيء. ومادام السلام لم يترسخ بعد، فإن حروبا أخرى ستنشب، ولن تنتهي إلى أي شيء.

ران الصمت.

- وما الفائدة في قتل الرجال؟ تساءلت فجأة.

- لا فائدة عندما لا ننظر في عيون أعدائنا. بل نغرق في ضرب من ضروب اللاواقعية. هناك مجهولون يواجهون مجهولين. يصعب علي أن أشرح ذلك.

- ماذا ستفعلون بكل هذه الأقاليم؟ من الآن فصاعدا، يجب عليكم أن تحكموا شعبا لا يشعر سوى بالحنق عليكم. لن يكون الأمر سهلا.

- لست سياسيا، يا جمانة. أنا جندي فقط. تعرفين أيضا أنني أؤيد قيام دولتين. غير أن اليد الواحدة لا تصفق،[1] كما يقول الإنجليز.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن قرارا بهذه الأهمية لا يمكن أن يكون أحادي الجانب. تقتضي الضرورة أيضا أن يقبل العرب بذلك. عشية الحرب، قال الرئيس العراقي: «ها هي فرصتنا لمحو الخزي الذي أصابنا سنة ١٩٤٨. هدفنا واضح، وهو أن نشطب على إسرائيل من الخريطة.» لم يكن الزعيم العربي الوحيد الذي صرح بهذا النوع من الكلام. فهم يريدون استئصالنا. بلغ بهم الأمر إلى حد الهوس.

رفعت رأسها ببطء. اخترقت نظرتها «أفرام» كأنه لم يكن يراها، لكنها لاحظت شيئا خفيا وراءه، كان بعيدا جدا.

همست قائلة:

- أحب الله الطيور، فخلق الأشجار. وأحب الإنسان الطيور، فابتكر الأقفاص.

*

(١) المثل كما ورد في النص الأصلي: It takes two to tango.

القاهرة، ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧

أعاد الطبيب يعقوب سماعته إلى حقيبته، ثم قال بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق يا لطفي باي، فالأمر يتعلق فقط بالتهاب حاد. غير أني أنصحك بطلب العلاج في المستشفى من باب الاحتياط.

انتصب تيمور في سريره غاضبا.

- لا داعي لذلك! أمقت المستشفيات والطب والأطباء!

- هذا جميل. لكن يجب أن تدخل المستشفى، شئت أم أبيت.

- يا روحي، أنصت إلى ما يقوله الطبيب، تدخلت نور. إنها مسألة أيام فقط. وأنت...

- قلت: لا داعي لذلك! فهو...

ظهرت مخاطات دموية على طرفي شفتيه نتيجة نوبة سعال متقطعة.

- ها أنت ترى! ترى أن الأمر ليس معقولا. هيا استرخِ، أرجوك، وكُفَّ عن التحرك.

استخرجت زوجته منديلا من علبة، ونظفت فم زوجها بعناية.

- سأهتم بأمر حجز غرفة، أعلن الطبيب. في انتظار ذلك، استرح قليلا.

دمدم المريض، وأغمض عينيه. بدا في غاية الإنهاك.

تساءلت نور بصوت خفيض، وهي ترافق الطبيب إلى بوابة الفيلا:

- أخبرني بالحقيقة، يا دكتور. لا تخفِ عني أي شيء. ماذا هناك؟

- وحدها نتائج التحليلات ستؤكد الأمر، لكني أخشى أن يكون

وضعه سيئا، السيدة لطفي. فهذا السعال لا يريحني. ثم هناك عامل السن. سبعون سنة.

- سبع وستون سنة، صححت نور.

- سن الهشاشة على كل حال. لهذا ينبغي أن يدخل المستشفى. يجب أن تقنعيه بقبول ذلك.

- لا تقلق، يا دكتور يعقوب. سأقنعه، حتى وإن جررته بنفسي إلى المستشفى.

ما إن رحل الطبيب، حتى توجهت إلى الصالون.

وقف مراد ومنى على الفور. كانا قد وصلا إلى القاهرة قبل ثلاثة أشهر، وبدآ يستعيدان أنفاسهما.

- ماذا إذا؟ تساءل مراد.

- يظن أن الأمر خطير. يجب أن نقنعه بالذهاب إلى المستشفى.

- هل يرفض ذلك؟ هتفت منى.

- تعرفين أخاك. عنيد كعادته. لا يريد أن يعرف أي شيء.

- سأكلمه في الأمر. أعرف كيف أقنعه. سيصغي إليّ.

نظرت نور إلى أخت زوجها نظرة حانية. لم تكن تتخيلها رقيقة هكذا، وعذبة. لم تكن تريد أن يستبد بها الحماس والانفعال، عندما أخبرها تيمور بمجيء منى ومراد. قال لها حينها: «إنها عائلتي! رغم أن الحياة فرّقتنا طوال هذه السنوات، فهي تبقى أختي. فضلا عن ذلك، إنهما منفيان. لقد فقدا كل شيء. إذا، لنبرهن عن تعاطفنا.»

عانقت منى.

- ستكلمينه. أجل. يجب أن أخبر هشام كذلك.

❋

صرخت شهيدة لحظة حصول متعتها. اهتز جسدها في نشوة أخيرة. تنهدت وأفردت يديها على السرير كأنها مصلوبة.

- لحظات مثل هذه تجعلك تتصالح مع الحياة.

انقضّت على علبة سيجارتها. فجأة، وككل مرة بعد الحب، تغيب، تتسلل إلى الخارج، تغوص في أفكارها، وتتحرر من كل شيء، حتى من هشام نفسه.

تداعى بجانبها. كان يتصبب عرقا. قال وهو ينظر إلى النافذة التي تطل على نهر النيل.

- أمر غريب. أحيانا، أشعر أننا نشكل زوجا رائعا، وأحيانا...

- أحيانا ماذا؟ استشاطت شهيدة غضبا. لا تحبني. قلها!

- أترين كيف تغضبين بسرعة؟

- لا أغضب، بل إنك لا تعبر عن أفكارك بوضوح.

أخذ نفسا عميقا.

- جيد. سأحاول إذا أن أوضح أكثر. هناك لحظات أشعر فيها أنك رقيقة وعاشقة وحاضرة بقوة، وفجأة تتبدلين، وتتحولين، وتصبحين شخصا آخر، و...

- دكتور «جيكيل» والمستر «هايد»؟

- لن أذهب إلى ذاك الحد. لا أتصور أنك تتناولين المخدرات فتتحولين إلى قاتلة بالتسلسل خلال الليل. غير أنني أرى دائما أن جزءا منك يغيب، ليترك مكانه لجزء آخر.

حاول أن يمزح، عندما استشعر هبوب عاصفتها:

- هناك ملاحظة. لم يعد الأمر سيئا. وهو ما يجعلني أتفادى الزواج باثنتين، أو حتى أربع نساء.

ألقت عليه نظرة قاسية.

- ألا يمكنك أن تتجنب انتقادي؟ ألا تستطيع ذلك أبدا؟ إذا كنت لا أعجبك، لماذا أنت باقٍ؟ ما عليك سوى الرحيل.

أغمض عينيه. سرح بخياله. كانت عاصفة جديدة تدوي. كان هشام يعلم يقينا أنها سرعان ما ستتحول إلى إعصار. بذل جهدا كبيرا لكي يلطف الجو.

- لماذا أنا باقٍ؟ لأنني أحبك. أمر غريب. فضلا عن ذلك، لم أكن أنتقدك، بل أبدي ملاحظة بسيطة.

قفزت من السرير، ثم شرعت ترتدي ملابسها.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- سأتزوج.

- هل أنت جادة؟

- آه، أجل! لم أعد أحتمل أن أُفحص وأحُلّل وأُشرّح وأُعرَض عارية. على كل حال، دامت قصتنا طويلا. تسع سنوات! لم يسبق لي أبدا أن عشت رفقة رجل مدة طويلة مثل هذه. لقد طفح الكيل!

غادر السرير بدوره.

- اهدئي يا شهيدة. إنه نقاش عقيم. هل وجب أن أذكرك بكلماتك؟

- لا! لا يهم ذلك!

- قلت لي ذات يوم: «قل لي دائما فيما تفكر بصراحة، سأكون مستعدة لأسمع كل شيء، وآخذ في الحسبان كل أفكارك، وأحاول التكيف في حال كان هناك ما يقلقك.»

- لأنك تكيفت؟

- قلت لي أيضا: «كُفّ عن الاعتقاد بأنني هذه المجنونة الهائجة

التي ستستشيط غضبا لأبسط كلمة قد تغيظني. أريد أن أتغير، ولا أريدك أن تتراجع.» هل تذكرين؟

غاصت بعينيها السوداوين الفحميتين في عيني هشام.

- هل تعرف مشكلتك؟ تريدني أن أكون غير ما أنا. وهذا مستحيل، يا صديقي. لا نستطيع أن نغير الناس بعد أن تنقضي أربعون سنة من أعمارهم. حظ سعيد!

- لم تفهمي. أنا...

- ستظل تتعقب عيوبي طيلة حياتي؟ حاولت مرارا أن أفهمك أنني أفتقد إلى الطمأنينة على نحو مرعب. ليس دورك أن تدبر الأمر، إنما أطلب فقط أن تكون بجانبي كلما كنت بصدد تدبيرها.

هذه المرّة، انفجر هشام غاضبا.

- الأمر سهل جدا! سهل للغاية، يا عزيزتي!

تابعت بنبرة ساخرة:

- أنا حقل ألغام، يا سيدي، سأنفجر في وجهك يوما ما. متى؟ لا أعرف. لكن عليك بالصبر. اصبر فيما سأحاول إزالة الألغام! في انتظار ذلك، احتمل في صمت. ليس من حقك سوى أن تسكت وتصلي!

حدقت فيه باحتقار.

- تعرف، يا هشام، أن أنانيتك ستخنقك! وداعا!

صفقت الباب بقوة. جاش قلب هشام. ظل جامدا. شعر أن الأرض تنسل من تحت قدميه. شهد طيف المعاناة يطفو من جديد. كانا يعشقان بعضهما، لكنها ربما كانت على صواب عندما أشارت إلى أنهما على طرفي نقيض. وربما كان مخطئا وهو يصر على أن يرى فيها شهيدة *أخرى*، حتى يشعر بالطمأنينة، أو يعيش الوهم.

طيلة لحظات، راوح مكانه داخل الشقة مثل حيوان يعاني من الظلمة. أشعل تلقائيا التلفزيون حتى يبدد الصمت.

أعلن صوت:

«انتحر عبد الحكيم عامر البارحة في الفيلا حيث وضع تحت الإقامة الجبرية. وربما أصيب الماريشال بنوبة ما قبل أن ينهار. وقد عثر الأطباء الشرعيون، بعد فحصه، على أقراص مثبتة بضمادة في أعلى فخذه الأيسر. وتفيد بعض المصادر أنه مات بسبب سم زعاف. وسيوارى جثمان الماريشال الثرى في مسقط رأسه بقرية أسطال في مصر العليا. إنه...»

أغلق هشام التلفزيون.

لم يكن الخبر ليفاجئه. فمنذ مدة، بلغ التوتر والعداء بين عبد الناصر ورفيقه القديم في السلاح ذروتهما في مطلع شهر أغسطس/ آب. إذ حذر المندوب السوفياتي في مجلس الأمن، أثناء مروره بالقاهرة، البكباشي من تحضير عامر نفسه لقيادة انقلاب عسكري، بحسب المعلومات التي جمعتها حكومة بلاده.

لم يعد عبد الناصر قادرا على التراجع. إذ اعتقل الماريشال يوم ١٤ أغسطس/ آب، وزجّ به خلف القضبان.

هل مات عامر؟

لم يكن هشام متوهما حول إجباره على الانتحار.(١)

---

(١) لم يحضر أي مسؤول مراسيم دفنه.

(٢٠)

الطريقة التي بها يفرض عالم المظاهر نفسه
علينا، والتي بها نحاول أن نفرض تأويلنا الخاص
على العالم، هي ما يجعل من حياتنا مأساة.

أندري جيد، *مزيفو النقود*

القدس، ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧

إن مجلس الأمن،

إذ يعرب عن قلقه المستمر بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط،

وإذ يؤكد عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمان،

وإذ يؤكد أيضا أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة، قد التزمت بالعمل وفقا للمادة الثانية من الميثاق،

١ - يؤكد أن تطبيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلي المبدأين التاليين:

أ- انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها في النزاع الأخير،

ب- إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب، واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة، واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها، حرة من التهديد بالقوة أو استعمالها.

٢- يؤكد أيضا الحاجة إلى:

أ - ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة،

ب - تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين،

ج - ضمان حرمة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات من بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح.

٣- يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص ليتوجه إلى الشرق الأوسط كي يجري اتصالات بالدول المعنية ويستمر فيها بغية إيجاد اتفاق، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لأحكام هذا القرار ومبادئه.

٤- يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريرا إلى مجلس الأمن بشأن تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن.

اعتمد بالإجماع خلال الجلسة رقم ١٣٨٢ .

طوى «صامويل برونشتاين» جريدة «جيروزاليم بوست». على وجهه كان القلق باديا. أطلق تنهيدة، ثم وضع الجريدة فوق المائدة.

رفعت «إرينا»، التي انشغلت برتق سترة، عينيها إلى زوجها.

- هل هناك أخبار سيئة؟

لم يجب «صامويل»:

هكذا، كانت منظمة الأمم المتحدة قد صوتت على الانسحاب من مجموع الأراضي المحتلة خلال هذه الحرب الخاطفة. هل من الممكن أن تتخلى إسرائيل عن كل شبر انتزعته مقابل أرواح بشرية؟ هل يمكن أن يعاد الفيلم إلى بدايته كأن شيئا لم يحدث؟ هذا ما لا يقبله العقل! وما لا يتصوره العقل أكثر هو أن إسرائيل لم تقم سوى بحماية نفسها من معتدين، والردّ على سلسلة متصاعدة من التهديدات المستفزة. بالطبع، هناك قضية اللاجئين. ثم ماذا؟ أين تكمن مشكلتهم؟ ألم يشهد التاريخ في الماضي تبادلا كبيرا للسكان؟ ألم يطرد ملايين الألمان، بعد الحرب العالمية الثانية، نحو الغرب نتيجة رسم الحدود الجديدة؟ ألم يلتق ملايين الأشخاص على الطريق أثناء تقسيم الهند ونشأة باكستان سنة ١٩٤٧؟ لِمَ ستصير الأمور مختلفة بالنسبة للفلسطينيين؟ هل لأن الدول العربية ترفض إدماجهم؟ في هذه الحالة، لن تكون إسرائيل معنية بهذا الأمر. لِيُصَفِّ العرب حساباتهم فيما بينهم.

انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها في النزاع الأخير.

إنه أمر شاذّ! فضلا عن ذلك، ليس للنص الإنجليزي المعنى ذاته، كما أشارت إلى ذلك «غولدا ماير» على نحو صائب: «*انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها في النزاع الأخير.*»[١]

---

(١) هذه المرة، أورد الكاتب النص الإنجليزي: "Withdrawal of Israel armed forces from 'territories' occupied in the recent conflict." (المترجم).

أراضٍ، إذاً. لا «جميع» الأراضي. ما سيعني التنازل، عند الاقتضاء، عن بضع رقع، وليس بأي ثمن، بل لقاء سلام حقيقي ودائم، وإلا ستكون صفقة مغبونة.

- إذاً، أصرت «إرينا»، هل يمكن أن تخبرني بما يجري؟

- هل قرأت صحيفة *«جيروزاليم بوست»*؟

- يجب أن تتذكر أنني لا أقرأ الجرائد أبدا.

- حسنا، أنت مخطئة. اعلمي إذاً أن الأمم المتحدة صوتت أمس على قرار يقضي بأن نخلي سيناء وجميع المناطق الأخرى التي غزوناها. فضلا عن ذلك، حدت أمريكا حدو الدول الأخرى في التصويت. لم أقدر أبدا هذا الـ«ليندون جونسون». إنه منافق.

لم يظهر أن «إرينا» تأثرت بهذا الخبر.

- وماذا في المقابل؟ تساءلت. إذ أتصور أن هناك تعويضا عن ذلك.

- أي شيء كان...

- وماذا عدا ذلك؟

استعاد «صامويل» الجريدة، ثم قرأ:

- سيعترف جيراننا بدولتنا. هذا كل شيء.

- لكن هذا عظيم! لماذا تدمدم؟ ننسحب من الأراضي، وننعم في المقابل بالسلام أخيرا. هذا أمر مثالي، أليس كذلك؟

- هل تمزحين؟ ننسحب من الأراضي، لنجد أنفسنا في قدس مقسمة إلى مدينتين، بينما نجحنا في الولوج إلى أماكننا المقدسة، إلى حائط المبكى، بعد ألفي سنة من النفي؟ هذا غير معقول.

- ألم نجبر هؤلاء العرب على الرحيل؟ نحن...

- كُفّي عن التفوّه بهذه التفاهات، يا «إرينا». لم نجبر أحدا

أبدا! لسنا مسؤولين عن فرارهم. خلال حرب الاستقلال، رجاهم جيرانهم اليهود وجماعة الهاغانا، والتمسوا منهم البقاء، لكنهم فضلوا الإذعان لأوامر المفتي الأكبر رفيق هتلر، ولجؤوا إلى مصر وسورية ولبنان وغيرها. طبعا، بالنسبة إلى هذا النازي، كانت القضية تحتاج إلى بضعة أيام فقط. كان مقتنعا، كغيره من زعماء أغلب الدول العربية، أن جيوشهم ستتغلب بسهولة على قواتنا. تغفلين عن تفصيل هامّ، وهو أن اليهود طردوا من هذه الدول العربية ذاتها. لقد سلبوا وصودرت ممتلكاتهم، ووجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها محرومين من كل شيء. هل فكرت في هذا؟ هل أشفق عليهم أحد؟ لا أحد!

- ألا يجدر بك أن تهدئ أعصابك؟ لهؤلاء اليهود الذين تتحدث عنهم مكان يأوون إليه، هو إسرائيل وطنهم! نحن استقبلناهم...

- في الوقت الذي لا نملك فيه السكن الكافي وما يمكن أن نمنحهم من غذاء وعمل، علينا أن نضاعف جهودا مضنية قصد إدماجهم. بدورهم، لم يقدم العرب أي شيء لإخوتهم الفلسطينيين. فهم يستغلونهم سلاحا ضد شعبنا، حيث تركوهم عن قصد يتعفنون في المخيمات.

وضعت «إرينا» الإبرة في محفظة الخياطة.

- على كل حال، الماضي هو الماضي. أما اليوم، هناك هذا القرار، حيث يقتضي المنطق أن نمتثل له مقابل السلام والاعتراف. نحن بلد ديمقراطي. ويجب أن نطبق القانون الدولي.

قال «صامويل» ساخرا:

- القانون الدولي؟ هل طبقه العرب سنة ١٩٤٨؟ كيف كان ردّ فعلهم عندما صوتت الأمم المتحدة على التقسيم؟ بشن الحرب علينا! ينبغي أن أذكرك أنه لو امتثلوا للقرارات التي حصلت على ثلاثة

وثلاثين صوتا مقابل ثلاثة عشر، لما كان هناك لاجئون فلسطينيون، ولا حرب، ولا نزاع بيننا وبينهم! وكما قال «بن غوريون»، لم يكن لنا أي طموح في الغزو، ولا نية احتلال أراضٍ تقع خلف الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة. هذه هي الحقيقة!

ردّت «إرينا» بقوة:

- الحقيقة؟ سأخبرك بها! الحقيقة هي أننا لن نعيش ما بقي من حياتنا تحت الحصار. ولا يمكن أن نرى ابننا في كل مرة ذاهبا إلى الجبهة. لا يمكن أن ننتظر، والخوف يعتصر أحشاءنا، حتى يأتوننا بجثته. هذه هي الحقيقة.

نهض «صامويل». استشاط غضبا. عبر الغرفة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لأشرب كأس ماء حياة حتى أنسى هذه المناقشة!

*

القاهرة، ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٦٨

مع مطلع سنة ١٩٦٨، وجدت مصر نفسها فريسة التمزقات. ففي مناسبتين، خلال شهري يناير/ كانون الثاني ومارس/ آذار، تفرغ الطلبة والعمال للمظاهرات. ولم يستسغ الشعب الحكم المخفف الذي أصدرته المحكمة العسكرية (يقضي بالسجن بضع سنوات) في حق جنرالات الطيران المتهمين بالتهاون وعدم الأهلية.

كانت تروج في القاهرة مناشير تطالب بـ«برلمان حرّ»، وتدين «العقاب غير الكافي على الأخطاء المرتكبة».

وجد عبد الناصر نفسه مجبرا على إخلاء الساحة، بعدما تفاقمت آلامه.

خلال يناير/ كانون الثاني، انفجرت انتفاضات جديدة في

المنصورة، مدينة الدلتا معقل حزب الوفد[١] على الدوام. إذ انضم مزارعون إلى حشود للطلاب المحتجين. وأصابت الحماسة الإسكندرية أيضا، حيث انتقلت الحشود إلى بناية الحاكم، واحتجزوا هذا الأخير. وسرعان ما اندلعت المظاهرات في القاهرة حيث رفع المحتجون شعارات تطالب بعودة الحريات وتسخر من إصلاحات السلطة المزعومة.

كان على الريس أن يدبر الأزمة بطريقة أو بأخرى، لكن ينبغي الآن أيضا أن يحارب، على جبهة مغايرة، عدوًّا أكثر ضراوة من الشعب المصري. إنه المرض. فمنذ بضعة أسابيع، انتابته آلام فظيعة في ساقه اليمنى. ويواصل السكري تقويض جسده، بينما تصلبت شرايينه نهائيا، شالّة حركة أطرافه السفلى.

بناء على نصائح أطبائه، كان قد اتبع علاجا لمدة ثلاثة أسابيع داخل محطة مياه معدنية حارة في جورجيا. إذ منح فترة نقاهة بضعة أيام، وهو يلزم بيته بالإسكندرية منذ عودته يوم ٢ أبريل/ نيسان.

ها قد مضت ساعتان منذ أن دُعِي هشام لطفي- الذي طلبه الريس- إلى داخل الفيلا. وها هي الشمس تصب حرائقها النهائية على البحر الأبيض المتوسط. طيلة هذا الوقت كلّه، كان عبد الناصر منغمسا في حوار مشوش مع نفسه. ختمه بالقول:

- طلبت مجيئك لثقتي في رأيك. فأنت لا تنتمي إلى دائرة هذه الشخصيات التي تحيط بي، وهي مسمومة ينخرها طموح السلطة. ليس هناك من يلهمني بهذا الإحساس، من بين كل المقربين مني، سوى اثنين: أنت وصديقي هيكل.

---

(١) أسسه سعد زغلول، زعيم الوطنيين المصريين، سنة ١٩٢٣.

- ثقتك تشرفني، يا سيدي الرئيس.

- ها هو السؤال الذي أطرحه على نفسي منذ عودتي من الاتحاد السوفياتي: كيف سأتابع عملي إذا لم تهدأ الآلام؟ ألا ينبغي أن أستقيل؟

- تستقيل، يا سيدي الرئيس؟

- طبعا. كيف أبلغ الغاية في مهمتي بينما أنا منهك؟ ليس ذلك عدلا في حق الشعب.

تنشق الهواء.

- في الحقيقة، هناك شيء واحد يمنعني من ترك السلطة، وهو الخوف من تأويل خطوتي داخل العالم العربي باعتبارها دلالة على خيبة أملي من الانتصار.

- لخوفك ما يبرره.

- لكن أي حظوظ؟ وأي انتصار؟ يعسكر الجيش الإسرائيلي على الضفة الشرقية للقناة. وهو يستفيد من دعم الولايات المتحدة غير المشروط، ولا يظهر ما يؤكد تغيرا في هذه السياسة. اقتصادنا هشّ. ولم يعد الفلسطينيون يثقون بنا، لسبب ما، حيث بات عرفات، الذي عين في الجزائر على رأس منظمة التحرير الفلسطينية، يتصرف بمفرده. وكان من بين نتائج الهزيمة في الحرب وصول حشود مؤلفة من آلاف اللاجئين الجدد إلى الأردن. إذ حولوا البلاد إلى قاعدة خلفية. في رأيي، سينتهي الملك حسين، الذي يسعى خلافا لذلك إلى عقد اتفاق ما مع إسرائيل، إلى التصرف، حيث لن يحتمل أكثر المساس المتكرر بالسيادة الأردنية ووجود الفلسطينيين. وستنتهي لعبة لي الذراع بحمام دم رهيب.

أمسك عبد الناصر بيديه، ثم قال بنبرة منهكة:

- لا ، يا هشام، لم أعد قادرا على مواجهة هذه الدوامة.

- سيدي الرئيس، تخيل للحظة واحدة فقط أنك تركت السلطة. ستكون النتائج كارثية. وستكون كذلك لكل الأسباب التي أتيتَ على ذكرها. ستنهار جميع الأحلام التي مازالت ترقد في قلب الوطن العربي. باستقالتك سيزداد الوضع السيء تفاقما. أنت...

قاطعه عبد الناصر:

- نسيت! هناك ما يشغل البال أكثر.

- ما هو؟

- الإسلام السياسي!

ثم قدم مثالا:

- التكفير والهجرة!

وافق هشام على قوله. لقد سمع كلاما عن وجود هذه الحركة الإسلامية التي رأت النور في مصر، قبل بضع سنوات. كان الأمر يتعلق بتنظيم أصولي أكثر راديكالية، ولد في نحو سنة ١٩٦٠ من رحم القطيعة مع الإخوان المسلمين. لا يدعو زعماؤه- المتطرفون إلى أقصى حد- إلى الحرب المسلحة ضد المسيحيين واليهود فحسب، وإنما أيضا ضد من يسمونهم بـ«المسلمين الفاسدين»، الذي لا يحترمون الشريعة، حسب رأيهم؛ ومن هنا، جاء مصطلح «التكفير» الذي يظهر في اسمها.

هم مقاتلون في الظلام، عرف عنهم أنهم يخولون لأنفسهم حق التقية، يموهون قناعاتهم، حتى لو ظهروا بمظهر الكفار، حتى يذوبوا في المجتمع بشكل أفضل ويبلغوا هدفهم القاضي بكل بساطة بتدمير مظاهر الحضارة الغربية.

بالطبع، كانوا ينشرون الفكرة القائلة إن من يضحي بحياته خدمة

لأيديولوجيتهم يعتبر شهيدا، وإن الله سيجازيه بالجنة.[1] في البداية، لم ينتبه أحد حقا إلى هذه الحركة، التي اعتبرت هامشية. كان الجميع مخطئا، حيث ذكر عبد الناصر بالأهمية التي اكتسبتها مع مرور السنوات. وها هي شبكتهم تمتد اليوم في كوكب الأرض كله.

كرر قائلا:

- التكفير والهجرة! هؤلاء الأشخاص يهددون الإسلام والعالم. مجانين! كأن الشريعة ترياق!

توقف الرئيس لحظة عن الكلام، وفتّش في جيبه بحثا عن علبة السجائر.

- نسيت أن الأطباء منعوني من التدخين. أشعر بما نشعر به عندما يفارقنا صديق عزيز، حيث كان التدخين ترفي الوحيد، وها أنذا مجبر أيضا على الامتناع عنه.

سأل:

- أي نوع تدخن؟

كذب هشام:

- توقفت منذ شهرين، يا سيدي الرئيس.

- أفضل.

ثم استأنف كلامه:

- ما لا يعيه الغرب، وبشكل أقل الولايات المتحدة، هو أن هذه الهبّة الإسلامية هي نتيجة مباشرة لأمرين هما: الفقر والبؤس اللذان يسودان في بلادنا، وكذا مساندة الغرب غير المشروطة لإسرائيل ومسايرته لها. ثمة وزنان وقياسان. حاول أن تفهم

---

(١) بلغ تطرف هذه الجماعة أن ارتأت سنة ١٩٦٦ قتل أسامة بن لادن الذي لا يعتبر راديكاليا على نحو كافٍ في رأيها، كما كفرت حركة طالبان.

فلاحينا، وبل ومثقفينا العرب، هذا السلوك! نتحمل بلا شك جانبا من الأخطاء، لكن هل ينبغي أن نفاقم الوضع، بإضافة الشعور بالظلم والإحباط؟

- سيدي الرئيس، نسيت عنصرا أساسيا في عرضك. بالتأكيد، يعتبر البؤس عاملا مهيمنا يفسر لِمَ بدأت شعوبنا تتأثر بالأصوات الإسلامية الساحرة، لكن كيف لا تذكر الفساد المستشري في بلادنا كذلك؟ قال لي سائق تاكسي، البارحة فقط، إن مصاريف تجديد رخصة سياقته تضاعفت ثلاث مرات! لأنه كان مجبرا في المراحل كلها على أن «يرشّ» موظفين لا دين لهم ولا قانون يردعهم. الفساد، يا سيدي الرئيس، هو الطاعون الجديد الذي ينخر مجتمعاتنا. أنا...

- أجل، يا هشام. أنا على علم بذلك! ألم أقل لك، منذ وقت، إن البلد تحكمه عصابة من اللصوص والنافذين والمخلين بالأمانة؟

طأطأ عبد الناصر رأسه فجأة. بدا في تلك اللحظة رجلا منكسرا.

قال بصوت منهك:

- عد إلى الفندق، يا صديقي. ليكن الله معك.

عندما اتخذ هشام مكانه داخل السيارة الرسمية، كان الليل يوشك أن يرخي سدوله. عندما وصل إلى فندق صقلية، قدم لنفسه كأس «جون والكر» على شرفة غرفته، وأخذ يتأمل البحر الذي تنعكس على صفحته أنفاس النجوم. لقد خلّف عنده الحوار مع الريس شعورا بالمرارة. أين اختفى إذاً زعيم القومية العربية، وبطل قناة السويس، وشاطر الغرب؟ لقد ترك هذا الرجل مكانه لشخص

منهك ومنهار ومحطم. قال هشام لنفسه إن الريس لن يحيا طويلا. انضافت هذه الفكرة إلى أفكار سوداء باتت تستبد به منذ رحيل شهيدة. ها قد مضت سبعة شهور منذ رحيلها بعد لحظة نزوة. لا رسالة بعد سبعة شهور. لقد انهار أسابيع بعد رحيلها. زارها في بيتها، بعدما لم تردّ على مكالماته، وتسلحت بالشجاعة، ووضعت أناها التي تلومها كثيرا في سلة المنسيات. أعلمه البواب حينها أن السيدة السورية رحلت إلى دمشق. يا للحزن، ويا له من قلب محطم! ربما يتحمل هشام جانبا من المسؤولية. للأسف، كانت شهيدة، التي عجزت عن أن تسائل نفسها، تعتقد بعناد أنها تحمل الجبال وحدها، بينما طريقه هو سهلٌ. لم تتصور أبدا، بلا شك، أن مزاجها المتقلب على الدوام، وتبدلاتها، وطريقة تعبيرها شبه المستبدة، كل ذلك قادر على زعزعة الأقوياء، وأن الحبّ الغامر لا يقوى على الصمود طويلا أمام العنف اللفظي. إنها قصة حب جمّ تجمع بين شخصيتين قويتين جدا، لكنها محكومة بالصراعات. غير أنه ظلّ يحبها بشغف. ستطرق بابه، هنا، في لحظة لم يتردد فيها أن يأخذها بين أحضانه.

- متى أراك مجددا؟

ضحكت كأنه قال كلاما سخيفا.

- هل ستكون مازوشيا؟

هل كان كذلك، بعد كل هذا؟

رشف الجرعة الأخيرة من كأس الويسكي، وشرد بنظراته في المدينة. الإسكندرية... مدينة فريدة تنام فيها آثار مازالت حية من أندلس ضائعة. مدينة أسطورية تجاور فيها، طيلة قرون، المصريون والأرمن واليهود واللبنانيون والمالطيون والفرنسيون والإغريق والإيطاليون والإنجليز. كلهم في بوتقة واحدة. لكن ضاعت هذه المواطنة العالمية، لتقترن مصر بالمفرد.

فجأة، فكّر هشام مجددا في أخيه فاضل، الذي يعيش في لندن منذ اثنتي عشرة سنة. مازال متزوجا بتلك الأرمينية، ويظهر من خلال رسائله راضيا وسعيدا، وفاحش الثراء مثل قارون. لكن، وعلى نحو غريب، لم يكن يحسده.

(٢١)

هل يمكن أن نتصور أن الله خلق الإنسان
على صورته، عن غلّ وضغينة، لغاية وحيدة هي
أن يجعله مجنونا؟

«إدغار ألان بو»

بغداد، ١٧ يوليو/ تموز ١٩٦٨

حدّقت مجيدة في زوجها مشككة.

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- أجل، يا حبيبتي، أجل! وقع الانقلاب فجر اليوم. لقد علم عارف أنه لم يعد رئيسا للعراق عبر مكالمة هاتفية. إذ أمر بحزم حقائبه ومغادرة البلد في غضون يومين. لم يستطع التصرف مطلقا. كان الجيش يهيمن على جميع المراكز الحساسة، منها الراديو والتلفزيون. لم تفلت أي زاوية من العاصمة من قبضة الجنود.

- من يقف خلف هذا الانقلاب الجديد؟

- خمّني من؟

هزّت المرأة رأسها.

- صديقنا القديم أحمد حسن البكر.

- أحمد؟ أمر لا يُصدق! لكنه تعشى في بيتنا منذ أسبوع تقريبا. لم يَبْدُ عليه شيء.

باعد فواز بين ذراعيه.

- عزيزتي، أنت ساذجة للغاية. إنه رجل سياسة. يجب أن نحمد الله لأنه لم ترق أي دماء. إنها ثورة بيضاء. أخيرا... في الوقت الراهن، أشعر أن أياما صعبة تنتظرنا.

وضعت مجيدة المذعورة يدها على فمها.

- ماذا تقصد؟

- أعرف البكر. إنه معتدل مزيف. يشعر في قرارة نفسه بحقد دفين تجاه جميع الغربيين. أما اليهود، فحدث ولا حرج.

- اليهود؟ لم يعد بالعراق واحد منهم، حسبما أعرف.

- توبي إلى رشدك. لم يرغب بعض منهم في الرحيل أبدا منذ أحداث سنة ١٩٤٨. لطالما اعتبروا - بحق - أنهم في وطنهم هنا.

- بسم الله الرحمان الرحيم... هل تعتقد أن شيئا ما يهددنا؟ هل سنكون في خطر؟ والأبناء...

طمأنها فواز.

- لقد ظهر البكر متعاطفا معي، إلى أن يثبت العكس. لا أسمح لنفسي بأن أتصور أنه سينقلب على مواقفه. في كل الحالات، لا نملك الخيار. هل نرحل؟ لا نملك الوسائل. يا للأسف؟

تأمل بصوت مرتفع:

- تعرفين، يا مجيدة، أن السياسة تفترض أن تكون ثاني أقدم مهنة في العالم. والحال أنني كلما تقدمت في السن، اكتشفت أنها أشبه بالمهنة الأقدم.

*

القاهرة، في اليوم نفسه

كسّر رنين الهاتف الصمت السائد في المكتب. رفع هشام السماعة، ثم قال بنبرة هائجة قبل أن يتكلم مخاطبه في الطرف الآخر:

- لقد أكدت أنني لا أريد أن يزعجني أحد!

- معذرة، سيدي كاتب الدولة، لكنها خالتك السيدة منى شهيد. تقول إن الأمر مستعجل.

- جيد. صِلْهَا بي.

- نعم، يا سيدي.

- هشام؟

أدرك من نبرتها المترنحة أن شيئا ما غير عادي قد حدث.

- يا هشام، حمدا لله، لقد بحثت عنك في كل مكان.

- ماذا هناك، يا منى؟

ران صمت قصير.

- منى؟

- والدك. . .

- ماذا؟ تكلمي، قولي لي!

تخيل شفتي منى ترتجفان على الطرف الآخر من الخط.

- الموت مكتوب، دمدمت.

نهج هشام.

- متى؟

- منذ ربع ساعة. دخلت. . . إلى غرفته كي أقدم له الغذاء. ظننته نائما في البداية. . . لكن عينيه كانتا مفتوحتين على اتساعهما.

شرعت تذرف الدموع، غير قادرة على إكمال كلامها. ضمّ هشام السماعة كأنه يسعى إلى سحقها.

- أنا قادم.

وضع السماعة، ثم توجه إلى الباب. أصابته وعكة، واستند على الباب.

قلبي للتو صفحة جديدة من حياته. صفحة أخرى. سيبلغ السابعة والخمسين بعد أسبوع، لكنه كأنما لم يعش يوما واحدا. كانت الأيام تجري بسرعة ملايين الذرات التي كان يفترض أن تتدحرج بين جدران ساعة مهشمة. لم ير أي شيء، ولم يفهم أي شيء من مجريات الأمور، ولا زمنها. لا زوجة، وحبيبة مفقودة، الله وحده يعلم أين راحت، والأحضان التي تضمّها. لا أبناء يرثونه. يرثون ماذا؟ السخرية؟ أم ضريبة الساعات المفقودة؟ أم اليقينيات الخاطئة؟ إنه العبث.. كل شيء عبثي. فالسعادة التي تغمرنا، هي ما نتصوره أبديا، ثم ندرك يوما ما أنها ليست سوى صمت التعاسة العابر.

فتح الباب. كانت الدموع تجري على طول خدّيه.

*

تسربت سنة ١٩٦٨ والنصف الأول من السنة الموالية مثل حبات الرمل التي تحدث عنها هشام. في سورية، شكل الرئيس الأتاسي حكومة جديدة، وأعلن نفسه وزيرا أولَ. لا شيء يبدو أصيلا في هذه المنطقة من العالم حيث تبقى الديمقراطية مصطلحا مجهولا. من ناحية أخرى، فاجأ تعيين حافظ الأسد وزيرا للدفاع الملاحظين. عندما علم بالخبر، فكّر هشام مجددا، بالطبع، في أقوال شهيدة. فهذه المرأة ذات بصيرة، رغم طبعها السيء.

ثمة حدث آخر تجدر العناية به فيما يتعلق بالعراق. لقد اتفق الشريكان- أحمد حسن البكر وصدام حسين- على تطهير السلطة، حيث تخلصا من عدة عسكريين رغم تواطئهم في انقلاب الساعات

الأولى، إما بزجّهم في السجن أو نفيهم. لم يشكّ أحد أن عمليات التطهير هذه هي أساسا من أعمال رجل تكريت. أدرك هذا الأخير، الذي استفاد الدروس من الانقلابات والتمردات طيلة عقد من الزمن، أنه لا يوجد سوى حلّ وحيد للحفاظ على السلطة بشكل مطلق، وهو تعزيز حزب البعث إلى أقصى الحدود. إذ نصب شبكة أخطبوطية تسمح له، يوما تلو الآخر، بالتغلغل داخل المجتمع العراقي كلّه. أرسل ممثلين إلى قرى نائية قصد حشد أعضاء جدد، حيث ألحق العناصر الواعدة منهم بمدارس الحزب. كان رجل تكريت يهيئ نفسه لتولي السلطة، في سرية تامة، لكن على نحو لا يقاوم.

نحن الآن في أواخر شهر أغسطس/ آب ١٩٦٩، في يوم التاسع والعشرين منه بالضبط، على بعد آلاف الكيلومترات من الشرق واضطراباته.

(٢٢)

إنهم مثل منتصرين فخورين واثقين من جهدهم، لا يملكون سوى هدف واحد هو الثأر، أو ملاذ واحد هو الموت.

«بول ديروليد»

روما، ٢٩ أغسطس/ آب ١٩٦٩، مطار ليوناردو دافينشي

جلست الشابة داخل قاعة الانتظار. تفحصت سبورة المعلومات مرة أخرى. مازالت تعلن تأخر الإقلاع. ستنتظر ثلاثين دقيقة! فتّشت حقيبتها بانفعال. أشعلت سيجارة «روثمان». ثم نظرت خلسة إلى رجل ملتحٍ، كان جالسا على بعد بضعة أمتار، في الخامسة والعشرين، نفس عمرها. بدا متوترا هو الآخر.

هل كانت تقرضها هذه الدقائق، وتجعل الانتظار لا يحتمل؟ أم هي الرغبة في مواجهة الواقع بعد كل هذه السنوات التي عاشتها في الحلم؟

أخيرا، وفي الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، أعلن صوت ذو نبرة إيطالية- أمريكية: «المسافرون على متن الرحلة TWA ٨٤٠، المتوجهة إلى تل أبيب، مدعوون إلى صعود الطائرة.»

نهض الرجل مسرعا. سارت المرأة على خطاه. عندما كانت

تتوجه إلى الشباك، أثارت قهقهات انتباهها. كانت هناك أمريكية في الأربعينات تمازح أبناءها الأربعة. خمنت المرأة أن موت الأبرياء سيكون أمرا رهيبا إذا سارت الأمور وفق المخطط. غير أن شعورها تلاشى بالسرعة التي ظهر بها، لأن الأطفال الفلسطينيين أنفسهم كانوا أبرياء.

بعد نحو عشرين دقيقة، اندسّ الرجل الملتحي والمرأة داخل الفضاء الفاخر المخصص لركاب الدرجة الأولى. هناك خمسة مسافرين فقط في هذه الدرجة ذات المقاعد الثمانية. خمنت المرأة أن ذلك مناسب. أتيحت لها، هناك حيث جلست، رؤية مثالية للمقصورة. عندما شرعت الطائرة تسير على المدرج، استعادت حقيبتها، وتظاهرت بالبحث عن علبة سجائرها، وتأكدت من أن مسدسها «ماكاروف ب.م.م» روسي الصنع مازال في مكانه.

- هل تريدين شامبانيا؟

رفضت بلطف الكأس التي قدمتها المضيفة. رفض رفيقها الجالس في الصف الخلفي على اليمين هو الآخر.

عانقت طائرة الـ«بوينغ» عنان السماء الصافية. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع. في العاشرة والنصف، رنّ جرس داخل القمرة، وانطفأت العلامة الضوئية الدالة على حزام الأمان.

- هل تريدين شيئا ما؟

أجابت المرأة بالنفي مرة أخرى. أدركت في الآن ذاته أن عدد المسافرين القليل لم يكن امتيازا، بل أمرا مزعجا، ذلك أن المضيفات يركزن كل اهتمامهن على الركاب الخمسة.

ألقت نظرة عبر نافذة الطائرة. كان المشهد رائعا.

في الساعة الحادية عشرة إلا ربع، لم يعد الساحل الإيطالي سوى خيط رفيع يكاد لا يُرى.

ظهرت المضيفة مجددا. كانت تدفع عربة مليئة بالفواكه والحلوى.

إنها مزعجة. قالت المرأة في قرارة نفسها تعبيرا عن خيبة أملها. *آمل ألا تمضي ما تبقى من الرحلة في عرض خدماتها! ستحول دون ولوجنا إلى قمّرة القيادة!*

بعد وقت بدا كالدهر، قررت المضيفة أن تعود أدراجها بعربتها. كان الممر خالياً.

طلبت المرأة حينها غطاء، لفت به جزءا من جسدها. رفعت يديها خلسة نحو الرجل، مباعدة بين أصابعها، إشارة إلى أن العملية ستنطلق بعد خمس دقائق.

أخذت حقيبتها. دستها تحت الغطاء، ثم أخرجت سلاحها، فوضعته تحت حزامها. بعد ذلك، تناولت قنبلة يدوية، ونزعت صمامها. كانت مستعدة. عندما همّت بالوقوف، ظهرت مضيفة مجددا على عتبة المقصورة. كانت تحمل صحنا. استعانت بكتفها لتبقي الباب مفتوحا.

حينها تحرّك الرجل. تقدم نحو المضيفة، حاملا سلاحا بيده اليمنى، وقنبلة يدوية باليسرى. أبعدها عن الباب، واندفع إلى داخل قمرة القيادة. نهضت المرأة بدورها من مقعدها. عندما مدّت يدها إلى الحزام قصد إشهار مسدسها، وهي تعبر ممر الطائرة، لم تجده هناك. لقد انزلق داخل سروال «الجينز» إلى كاحل القدم؛ لا شك أن وزنها نقص في الآونة الأخيرة بلا شك، بسبب التوتر الذي يعتصر أحشاءها منذ أسبوع.

انحنت لتبحث عن سلاحها، متيحة بذلك للمسافرين فرصة النظر إلى مؤخرتها. فجأة، انتابها ضحك هستيري، وهي تدرك أنها صارت أضحوكة. بعد أن تمكنت من استعادة الـ «الماكاروف»، وضعته في جيبها، ثم التحقت برفيقها في القمرة.

- *صباح الخير*، *أيها السادة*، قالت بنبرة مرتبكة. *أنا القائدة الجديدة*.[1]

حدق فيها القائد «دين كارتر» مندهشا. ظنّ «هاري أوكلي»، الربان المساعد، أن هذه الفتاة كانت تمزح. ولم يذهب الربان «هوبرت توملينسن» بعيدا في تخمينه.

كأن المرأة كانت ترغب في تخييب ظنهم جميعا، نزعت صمام القنبلة، ثم عهدت به للقائد.

- خذ. احتفظ بها كذكرى.

أظهرت يدها اليسرى. كانت تزين بنصرها بصمام شبيه بخاتم.

- ها أنتم ترون، إنها حليتي الوحيدة. ذكرى قنبلتي اليدوية الأولى. خاتم خطوبتي.

وضعت السلاح أسفل أنف «دين كارتر».

- أنصتوا جيدا: إذا لم تنفذوا أوامري بدقة، لن أتردد ثانية واحدة في تفجيرها. ستصبحون حينها مسؤولين لوحدكم عن موت مسافريكم.

- ماذا تريدان؟

- آه! لا شيء يدعو إلى التعقيد. ستتجهون إلى فلسطين، مباشرة إلى مطار اللد.

---

(١) ورد هذا الخطاب في النص الأصلي باللغة الإنجليزية (المترجم).

- اللد؟ تقصدين «لود»؟

- قلت اللد! «لود» غير موجودة! اللد هو اسمها الحقيقي، وهي موجودة منذ ألفي سنة.

قالت مشددة:

- اللد.

- لكن ينبغي أن نتوجه إلى أثينا قصد التوقف فيها، قال الربان محتجا. نحن: . .

- هل تفهمون الإنجليزية؟ نفذوا ما أقول!

امتثل القائد «كارتر» رغم أنفه. بينما أخذت طائرة «بوينغ ٧٠٧» تنعطف، جلست المرأة ورفيقها على كرسيين مطويين، خلف الطاقم. ظلا يحملان قنبلتيهما بيديهما.

بعد وقت وجيز، سألت المرأة الربان:

- ما كمية الوقود في الطائرة؟

أجاب «توملينسن»:

- ما يكفي لساعتين من الطيران، لا أكثر.

حدجته بنظرة.

- أنا متأكدة من أنك تكذب! ليكن في علمك أنني أجريت تدريبا مكثفا جدا، حيث أحفظ لوحة القيادة عن ظهر قلب. فالمقياس يكشف أن الطائرة تتوفر على ما يكفي لثلاث ساعات ونصف من الطيران. سأفجر عنقك إذا كذبت مرة أخرى! هل فهمت؟

وافق الربان في صمت.

- بحق السماء، لم أنت غاضبة؟ سأل القائد.

- لأنني أكره الكذابين!

بعد ربع ساعة، غادرت المرأة مكانها، ثم طلبت تمكينها من جهاز الاتصال.

- لماذا؟ سأل الربان المساعد مذعورا.

- لأنني أريد مخاطبة المسافرين.

اقتربت من الميكروفون، ثم أعلنت:

- سيداتي، سادتي، انتباه من فضلكم. تحدثكم القائدة الجديدة في هذه الرحلة. رجاء ضعوا أحزمة الأمان. نحن ننتمي إلى كومندو «تشي غيفارا» التابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لقد استولينا على هذه الطائرة. نلتمس منكم أن تتبعوا التعليمات الآتية بالحرف.

ثم شرعت تعدد:

١. لا تغادروا مقاعدكم، وحافظوا على الهدوء.

٢. من أجل سلامتكم، ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم.

٣. لا تقدموا على أي عمل من شأنه أن يعرض حياة جميع المسافرين للخطر.

٤. إننا مستعدون للاستجابة لجميع حاجياتكم في حدود إمكانياتنا، شريطة ألا تخلّ بسلامة هذه الرحلة.

ثم استأنفت:

- إذا كنا هنا، فلأنه كان يجب أن يكون بينكم شخص مسؤول عن وفاة رجال ونساء وأطفال فلسطينيين. كنا نأمل أن نعتقله حتى تحاكمه محكمة فلسطينية. للأسف، لم يمتطِ هذا الرجل هذه الطائرة.[1] هكذا، خذوا بعين الاعتبار أنكم ستحلون، عندما تحط

---

(١) يتعلق الأمر بإسحاق رابين الذي كان قد عين، قبل سنة، سفيرا لإسرائيل في واشنطن. كان من المفروض أن يوجد على متن الرحلة TWA ٨٤٠، لكن غير مخططاته في اللحظات الأخيرة. لقد لعب دورا فعال في حرب النكبة سنة ١٩٤٨، وحقق انتصارات مهمة في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧. كان من بين الإسرائيليين الأوائل الذين دخلوا القدس بعد احتلالها.

الطائرة، ضيوفا على الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. سنضمن لكل واحد منكم، مهما كان دينه أو جنسيته، أن يذهب حيث شاء بحرية، ما إن تهبط الطائرة. سنتجه إلى بلد شقيق حيث ستستقبلون بالأحضان.

أدارت محول جهاز الاتصال، ثم عادت إلى مقعدها المطوي. في هذه اللحظة أدركت أن الطائرة غيرت وجهتها.

- أيها القائد! قالت مزمجرة. عُدْ فورا إلى اتجاه اللدّ!

فوجئ بأن المرأة أدركت مناورته. تمتم قائلا:

- أعتذر.

- أدرك أين تريد أن تقودنا. إلى طرابلس! توجد هناك قاعدة عسكرية أمريكية. قاعدة «ويلاس»! لا حظ لك، يا صديقي!

التزم «كارتر» الصمت، ثم غيّر وجهة الـ«بوينغ».

بعد خمس عشرة دقيقة، همس الرجل الملتحي في أذن رفيقته:

- المسافرون...

- ماذا هناك؟

- مازالوا يضعون أيديهم فوق رؤوسهم.

استدارت. ابتسمت وهي تراهم جميعا متجمدين في وضع غير مريح بتاتا. نسيت أمرهم نهائيا. تناولت جهاز الاتصال مجددا. اعتذرت، ثم طلبت من المضيفات توزيع المشروبات والغذاء، والشمبانيا على من يريد ذلك.

تابعت الرحلة سيرها، لكن التوتر لم يخفت داخل قمرة القيادة. بين فينة إلى أخرى، كان القائد يلقي نظرة خاطفة بين كتفيه إلى القنبلة بين يدي المرأة.

- لا تقلق، قالت المرأة في النهاية. أنا معتادة على السلاح. لن أدعها تسقط، إلا إذا أجبرتني على ذلك.

كانت الطائرة قد أقلعت منذ ثلاث ساعات وخمس وخمسين دقيقة، قبل أن يصير الساحل الإسرائيلي في مرأى العين.

- انزل إلى مستوى ١٢ ألف قدم.[١]

شرعت الطائرة في النزول.

- ماذا تنوين فعله عندما تصير الطائرة في هذا المستوى؟ سأل «أوكلي»، مساعد الربان.

- جولة قصيرة.

- معذرة؟

- نتوق شوقا إلى التجوال في بلدنا.

قرقر صوت المراقب في مطار اللد داخل القمرة.

- «ت.و.أ ٨٤٠»، هل تسمعني؟

- تأكيد، «ت.و.أ ٨٤٠».

- «تـ.و.أ ٨٤٠»، لا يخول لكم دخول المجال الجوي الإسرائيلي. توقفوا عن النزول وانحرفوا مباشرة نحو ٢٤٠!

- اعطني السماعة، أمرت المرأة.

حاول القائد أن يحتج، لكنها كررت أمرها بصرامة:

- السماعة!

أذعن «كارتر».

- برج المراقبة في مطار اللد، هل تسمعني؟

- أسمعكم، «ت.و.أ ٨٤٠». أنت...

---

(١) أي ٣٦٥٧ متر.

- هنا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. من الآن فصاعدا، لا تدعوني إلا بهذا الاسم. لم يعد اسم «ت.و.أ» موجودا.

- «ت.و.أ ٨٤٠»؟ ماذا تقول؟

- قلت: *الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين*! إننا مدججون بقنابل يدوية، ولن نتردد في تفجير كل شيء إذا أصررتم!

- «ت.و.أ ٨٤٠»!

- *الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين*! لا تجعل صبري ينفد! لا يمكنك أن تتخيل كم هو محدود!

- سحقا! أطيعوا! قال قائد الطائرة مناشدا. على متن هذه الطائرة مائة وستة عشر راكبا!

ران صمت ثقيل داخل القمرة.

- حسنا، استأنف المراقب بنبرة فاترة. ما هي مطالبكم، أيتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

- سنهبط. أفسحوا مدرجا، وأعلمونا بمعطياته.

أقفلت السماعة، وهي تلقي بنظرة ماكرة على رفيقها. كانا يعرفان معا حق المعرفة أن الجلوس غير وارد عندهما. كانا يلعبان.

أغرق صوت المراقب الهستيري القمرة.

- الهبوط مرفوض! أوقفوا هبوطم، وإلا ستقصفون.

لم يكد ينهي تهديده حتى ظهرت طائرتا «ميراج» على يمين الطائرة ويسارها، وانسلتا تحت الجناحين.

- واصلا الارتفاع إلى مستوى ١٢ ألف قدم!

كان عدّاد الارتفاع يشير إلى ١٣٢٠٠ قدم.

- إنه الجنون! سنصطدم بهما.

- سيبتعدان. جميعهم صهاينة.

في تلك اللحظة، رأت طائرتي «ميراج» تبتعدان، لكنهما ظلتا على مسافة قريبة.

- الآن، إلى الشمال.

- إلى أين؟ جنّ الربان.

- إلى حيفا.

- حيفا؟

- نعم. أريد أن أرى البيت حيث ولدت.

- بيتكم؟

- لقد طردت منه منذ إحدى وعشرين سنة. وصديقي أيضا.

انحرفت الطائرة نحو الشمال. بعد بضع دقائق، كانت تحلق فوق المدينة. التصق أنفا المرأة ورفيقها بالنافذة، وهما يلتهمان المشهد بأعينهما. علت وجهيهما مشاعر رقيقة. قالت المرأة بصوت أجش هذه المرّة:

- قم بدورة ثانية...

حلقت الطائرة مرة ثانية فوق حيفا. عندما اكتملت الدائرة، سأل القائد:

- والآن؟

- ارتفع إلى مستوى ٢٥ ألف قدم حتى لا تستهلك المزيد من الوقود، واتجه نحو دمشق.

واصلت طائرتا «ميراج» مرافقة الطائرة إلى أن عبرت الحدود السورية- اللبنانية. حينها فقط، دارتا على عقبيهما.

اتصلت المرأة ببرج المراقبة في مطار دمشق، حيث وصفت الوضع بالعربية، قبل أن تطلب الترخيص بالهبوط. تم لها ذلك.

بعد ذلك، خاطبت أفراد الطاقم في قمرة القيادة. طلبت منهم أن يطلقوا المزالق ما أن تتوقف الطائرة، قصد إجلاء المسافرين.

- لِمَ هذا الإخلاء المستعجل؟ تساءل مضيف.

- لأننا سنفجر طائرتكم.

ثم استدارت نحو قائد القمرة، وطلبت منه ألا يكبح الفرامل بقوة، لأنها قد تفقد التوازن ما دامت لا تضع حزام السلامة، فترتمي إلى الأمام وتقلت قنبلتها، ويكون الأمر وبالا.

كان الهبوط مثاليا. وبعد خمس دقائق، أخليت طائرة الـ«بوينغ».

- بإمكانكم الذهاب، شكرا على تعاونكم. قالت المرأة مخاطبة الطاقم.

- لا شكر على واجب، هذا من دواعي سرورنا. قال القائد ساخرا.

ما كاد أعضاء الطاقم يرحلون، حتى أخرج الرجل الملتحي قنبلة موقوتة من حقيبته، ثم وضعها أسفل لوحة القيادة.

اندفع الاثنان خارج الطائرة. ما إن وطأت أقدامهما أرض المدرج، حتى هرولا راكضين. لكن الانفجار المرتقب لم يحدث، بعد أن قطعا نحو عشرين مترا. تجمدا في مكانيهما مندهشين.

- ما الذي يحدث؟ كل هذا العمل من أجل لا شيء. صاحت المرأة.

- سأرى.

دار الرجل على عقبيه، وتسلق أحد المزالق بصعوبة، ثم اختفى داخل الطائرة. وبعد بضع دقائق، ظهر مجددا.

- ماذا هنا؟

- هناك خيط غير متصل بشكل جيد.

مرت دقيقة، وثانية، وثالثة. لم يحدث شيء بعد.

- مستحيل! قالت المرأة. سحقا! أنا...

غطى كلماتها الأخيرة دوي انفجار هائل. إذ تطايرت شظايا مقدمة الطائرة.

- يا الله! الحمد لله تعالى. لقد نجحنا. صاحت المرأة.

أحاطت بهما الشرطة. عرّف الرجل الملتحي بنفسه دون مقاومة:

- اسمي سليم العيساوي. عضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

حدت المرأة حدوه:

- اسمي ليلى خالد.

أضافت، وهي تبتسم ابتسامة خبيثة.

- توجد حقيبتي في قبو الطائرة. آمل أن تبذل «ت.و.أ» الجهد، لكي أستعيدها.[1]

(١) أطلق جميع المسافرين، إلا ثلاثة منهم يحملون الجنسية الإسرائيلية. إذ أطلق سراحهم بعد مرور ثلاثة أشهر، أي في ديسمبر، في مقابل إطلاق سراح واحد وسبعين سوري ومصري. أما طائرة الـ«بوينغ»، فلم تستأنف رحلاتها إلا في سنة ١٩٨٣، بعد أن تم إصلاحها. وقد تم تسجيل المقصورة المدمرة تحت اسم: «أنف دمشق». وسرد هذا الاختطاف هو تحوير للحوار الذي أدلت به ليلى خالد لمجلة «لايف» يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٠.

(٢٣)

ليس هناك سوى يوم واحد، لكن الشمس ستشرق غدا.

مجهول

إسرائيل، ١٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٩، سجن الرملة المركزي

- تعالي، همس «أفرام» في أذن جمانة، وهو يمد يده إليها.

لم تتجرأ على الاستجابة له، لكنها تبعته بطواعية حتى السيارة المركونة على بعد أمتار من البوابة.

- ما اسم صديقك؟

- «أفي فراينكل». لا تقلقي، سيكون كل شيء بخير.

تسللا إلى المقعد الخلفي.

- شالوم، دمدم «أفي» دون أن يستدير.

- السلام عليكم.

- والآن؟ سأل «فراينكل» مشاكسا.

- سنرافقها إلى بيتها.

- لا يا «أفرام»، قالت الفلسطينية. لقد توفيت أمّي منذ سنتين.

لم يعد هناك أحد. وقد صودر البيت.

- لكن والدك...

- زارني الأسبوع الماضي. أخبرني أنه راحل إلى الأردن، ليلحق بأخته. لقد خارت عزيمته، حيث لم يعد يؤمن بإطلاق سراحي. فهو شيخ. والانتظار والوحدة يتجاوزان كل طاقته. ولم يعد أمامه أي خيار.

استدار «أفي» حانقا.

- تقصدين أن والدك هجرك؟

أجابت الفلسطينية بصوت جافّ:

- لم يكن أمامه أي خيار! لم تتركوا له أي خيار!

- أفضل ألا أجيب، ردّ «فراينكل» بصوت جافّ أيضا.

حدّق في «أفرام» عبر المرآة العاكسة.

- ماذا هناك، السيد «برونشتاين»؟ ما العمل؟

- سنذهب إلى بيتي.

- هل جننت؟

- إلى بيتي، يا «أفي»

- مستحيل، يا «أفرام»! صاحت جمانة.

- لماذا؟

- لأننا لن نفعل ذلك... لسنا متزوجين. ماذا سيقول الناس؟

- عمري خمس وثلاثون سنة، يا جمانة. ونحن راشدان. لن يرينا أحد الصواب أو الخطأ.

ثم سارع إلى تذكيرها:

- لا تملكين بيتا تذهبين إليه.

غضّت الطرف.

لقد لجأ أعمامها وأخوالها وأبناؤهم إلى المنافي بعد حرب الأيام الستة. لم يعد لها قريب فعلا تلجأ إليه.

ثم سألت:

- هل تملك شقة كبيرة؟

- يا له من سؤال!

- أقصد.. هل هناك غرفتان؟

ابتسم «أفرام».

- أجل. لا تقلقي. هناك غرفتان.

- حسنا، إذاً، قالت بصوت خفيض.

أدار «أفي» المفتاح بحركة متوترة.

- أنت مجنون!

*

القاهرة، ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٩

نادى هشام على النادل، وطلب كأسي شاي بالنعناع وكعكتين بالشوكولاته.

- هل تحب الكعك؟ أراد أن يطمئن، وهو يبتسم لزكرياء محيي الدين.

أجاب وزير الداخلية السابق مؤكدا.

- نكاية بطبيبي!

تأمل المشهد المحيط بهما، ثم قال:

- غريب. يكاد المكان يكون فارغا.

- لقد لاحظت الأمر أيضا، علما أن سمعة «غروبي» لم تعد موضع شك. تعلم أن صالون الشاي هذا موجود منذ أكثر من قرن.

- بالطبع. في زمن ما، كان يرتاده الملك وجميع الباشوات وعلية القوم في الشرق الأوسط.

- أيام زمان!

- كما تقول، تنهد زكرياء

ثم استأنف وزير الداخلية:

- أفترض أنك على علم بالوعكة الصحية التي تعرض لها الرئيس.

- لا. ماذا حدث؟

- غريب أنك لست على علم بذلك. لاحظ أن قلة من الأشخاص لا تطلع على الأسرار.

- كنت واحدا منهم، مع ذلك.

- يا عزيزي، هل نسيت أنني كنت وزيرا في الداخلية، وأنني كنت أسير المخابرات موازاة مع ذلك؟ ما زالت أحتفظ ببعض العلاقات.

- في هذه اللحظة التي تحدثني فيها عن ذلك، سمعت فعلا حديثا عن مشكلة صحية، لكن الناطق الرسمي أكد لنا أن الأمر يتعلق فقط بزكام حاد.

- منطقي. ما عليه سوى الامتثال للتعليمات. في الواقع، راح عبد الناصر ضحية أزمة قلبية.

استعادت ذاكرته ما قاله عبد الناصر خلال لقائهما في الإسكندرية.

كيف أبلغ الغاية في مهمتي بينما أنا منهك؟

- متى حدث هذا؟

- في سبتمبر/ أيلول. بل حاولوا إخفاء الحقيقة عن زوجته تحية. لكنها سرعان ما فهمت عندما رأتهم ينصبون مصعدا في بيتهم بحي هليوبوليس. بل إن أطباء أجانب باتوا يلازمون الرئيس. إذ بعث الدكتور «شازوف»، وزير الصحة الروسي وطبيب أمراض القلب البارز، فريقا من الخبراء الطبيين في سرية تامة إلى القاهرة.

- وما هو تشخيصهم؟

- إنه تشخيص مطابق تماما لتشخيص الطبيب الشخصي للرئيس. ليس هناك أي دواء ضد السكري الذي ينخر جسده. لا شيء، ما عدا الحمية وراحة مطلقة. أنت تتصور رد فعل عبد الناصر. فكلمة «الراحة» غريبة عنه. لقد سافر البارحة إلى المغرب قصد المشاركة في مؤتمر القادة العرب. وقبل أن يسافر...

انتظر زكرياء حتى انتهى النادل من تقديم الحلوى والشاي، قبل أن يستأنف:

- استدعى الريس أنور السادات وعيّنه نائبا له، كأنه أدرك هشاشته فجأة.

- أنور؟ هل أنت متأكد مما تقول؟

- أفهم دهشتك. لقد أخذنا جميعا على حين غرة. أنا أولا! إذ ظللت أعتقد أن رئيسنا يحتفظ بهذا المنصب لي. لماذا السادات؟ لا نعرف شيئا عن ذلك.

- لكن الرجل لم يكن أبدا من وزرائه المفضلين، ولا من أصدقائه الأوفياء.

- لذلك فاجأ هذا التعيين الكثيرين. ماذا تريد؟ فدروب الرئاسية منيعة!

ساد الصمت لحظةً، قبل أن يقترح زكرياء:

- لنغير الموضوع. هل عندك أخبار؟

حدّق هشام في صديقه حائرا.

- هل مازالت حبيبتك في دمشق؟

- لا أعرف شيئا. لِمَ هذا السؤال المفاجئ؟

- ألم تخبرني يوما أنها مقربة من حافظ الأسد؟ الحال أن شهرة هذا الرجل آخذة في الانتشار هذه الأيام، حسب معلوماتنا. من الآن

إلى أن يتقلد في مستقبل قريب جدا منصب الوزير الأول، ثم منصب الرئيس. . .

- ما يؤكد أن شهيدة أحسنت الرهان. نعم الأمر.

- أشعر بطعم المرارة يمضّك، أم أنني مخطئ؟

- مرارة؟ لا أعتقد. أنا حزين وكئيب، بالتأكيد.

- آه! يا صديقي، كان عليك أن تعلم أن الحب أشبه بطبق ملوخية، تكون اللُّقَم الأولى ساخنة جدا، لكن الأخيرة تصبح باردة جدا.

- أخشى أن أفاجئك، لقد ظللت، طوال الفترة التي شهدت حبّنا، أتذوق اللقم الأولى. إنها امرأة فاتنة ومدهشة ومتميزة. . .

- وماذا إذا؟ ماذا يطلب الشعب؟ قاطعه زكرياء.

- لا شيء، وإلا سيتبدد كل شيء بسبب شخصية. . . (تردد في نطق الكلمة) خاصة جدا، لم أعرف ربما طريقة تدبيرها. إذ تحتاج سفينة أمام عاصفة هوجاء إلى قبطان متمرس، حيث يبدو لي أنني لست كذلك. ومن جانبها هي، فقد ظلت ترفض أي تسوية.

نظر إليه نظرة خبيثة.

- إنه أمر لذيذ! هل ترغب أن أفشي لك سرا؟ فاختلاس لحظات الحب، والأكل، والنوم، وقضاء ساعة أو ساعتين مع صديق، هو مفتاح السعادة. وما تبقى ليس سوى صداع الرأس.

- تريديني أن أخبرك أنني لا أشاطرك هذه الرؤية إلى الحياة، خاصة في هذه اللحظة.

- ماذا يجري؟ أخبرني. أمازلت عاشقا؟

- بلى. إنه أمر بليد وصبياني. غير أني هكذا. فهي تبقى حبي الأجمل. في الواقع، إنها حبي الوحيد.

- في هذه الحالة، ماذا تفعل هنا؟ اذهب وجدها في دمشق، وأخبرها بذلك.

- أنت لا تعرفها. ستشبعني سبا ولوما في البداية، قبل أن تطردني شرّ طردة. لن أحتمل ذلك، لأنه فوق طاقتي. باختصار، روحانا قرينتان، لكن إحداهما عاجزة عن مسامحة الثانية. لا أتصور أن تعارضا كهذا قد حدث.

تابع هشام كلامه بنبرة متعبة:

- صرت أشعر بالفراغ منذ وفاة والدي. وها أنا أقترب من سنّ الستين، حيث لم أعد أشعر بأي شغف. وقد قادتنا هذه الثورة، التي كرست لها نفسي قلبا وقالبا، إلى الكارثة. انظر إلى حال البلاد. لقد اكتسحنا هذا المدّ العالي الآتي من الشرق. فمعارضنا رومانية وهنغارية وصينية، وجسورنا «صنعت في ماغيار»، ورافعاتنا بلغارية، وسياراتنا بولونية. كما حلّت فرق الباليه الروسية محلّ الفرق الفرنسية أو الإيطالية. إذ لم نعد نعثر في السوق على أدنى منتوج غربي. لا موسى حلاقة، ولا مرهم، ولا مشروبات، ولا ملابس، ولا أحذية، ولا موسيقى، ولا مجلة واحدة.. كل شيء ممنوع. إنه العدم. لقد صارت بلادنا أشبه بحطام ميدوزا، يا صديقي.

- ومن ارتكب هذا الخطأ؟ إنه الغرب وهؤلاء الأمريكيون الحمقى الذين ألقوا بنا في أحضان السوفياتيين.

حدّق هشام في عيني صديقه.

- أنت تعرف أن المأساة العربية تكمن هنا أيضا، في تعليق أخطائنا على مشجب الآخرين. لقد اعتاد أحد معلّمي على القول: «عندما لا نكتب بشكل جيد، نقول إنه خطأ القلم.» لم أتحدث عن الوضع العسكري. فالتفاؤل الإسرائيلي قد بلغ منتهاه، حيث باتوا يسيطرون على الضفة الشرقية للقناة، فلم نعد نراقب حركة الملاحة

فيها. وأصبحت الحملات الجوية، التي يقودها «موشي دايان» في العمق المصري، تدك مناطقنا، وتسفر عن خسائر فادحة. بالطبع، تريد حكومة «غولدا ماير» أن تكسر شوكة عبد الناصر نهائيا.

- يعي الريّس ذلك. لقد تأثر بهذا الخراب المتواصل والخسائر التي يعجز عن إيقافها.

- لكنه قادر على الحيلولة دون هذه الحملات.

- كيف؟

- ألا يحسب الروس أنفسهم أفضل أصدقائنا؟ لماذا لا يطلب منهم عبد الناصر أن يرسلوا لنا صواريخ «سام ٣»؟ ستكون هي الحلّ. لن تتجرأ أي طائرة إسرائيلية بعد ذلك على التحليق فوق مدننا.

- لقد مضت شهور منذ أن حاول إقناع «بريجنيف». لكن هذا الأخير لا يريد أن يعرف أي شيء. فهو يخشى أن يغضب الأمريكيون، حماة إسرائيل العتاة، إذا سلمونا هذه الصواريخ، وأن تنقلب القضية إلى مواجهة بين بلده والولايات المتحدة الأمريكية.

- كنت أقول لك إن الأمر سخيف! لم يتبقَّ سوى الدعاء.

- أراك قاسيا جدا، لاحظ زكرياء.

- لا، لست قاسيا، بل صافي الذهن.

*

هل سمعت الآلهة أدعية هشام؟

في يوم ٢٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٧٠، سافر عبد الناصر سرا إلى موسكو حيث أقام طيلة أسبوعين قصد إجراء فحوص طبية. وقد انتهز الفرصة، ليجدد طلبه لدى مجلس السوفييت الأعلى، لكن أرفقه هذه المرّة بتهديد: «تعتبر هذه الصواريخ بمثابة الدروع الضرورية التي ستسمح لنا بمواجهة تحرشات الطيران الإسرائيلي. فإذا لم تسلمونا

إياها، سأوقف العمل بجميع الاتفاقيات المتميزة التي تربطني بالاتحاد السوفياتي.»

أذعن «بريجنيف».

سُلِّمت الدفعة الأولى من الصواريخ على الفور، ودخل الإسرائيليون والمصريون في سباق تسلح محموم. يتعلق الأمر، بالنسبة للإسرائيليين، بمنع خصومهم من نصب تلك البطاريات قرب القناة. ونجح المصريون، مقابل المئات من الأرواح، في نصب صواريخ «سام». منذ ذلك الحين، ألحق الدفاع الجوي خسائر فادحة بالعدو لأول مرة.

وفي يوم ثاني سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠، أعلن عبد الناصر، عندما استقبل المبعوث الخاص لجريدة «لوموند» «إريك رولو»، أنه لا يرى مانعا في إرساء السلام مع إسرائيل، ما أن يحصل اللاجئون الفلسطينيون على حق الاختيار بين العودة إلى فلسطين والحصول على تعويضات، طبقا للقرار الذي صوتت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨. لكن كلامه لم يجد أي صدى لدى الجانب الإسرائيلي، ولا لدى الأطراف الغربية.

تواصل الانحدار نحو الجحيم. سيتسارع انحدار الفلسطينيين، لكن بسبب إخوانهم العرب هذه المرة.

(٢٤)

خيبة الأمل هي عندما يأخذ العقلُ
المعاناةَ على عاتقه.

جورج بيرو

هولندا، ٦ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠، مطار «شيفول»

بدا «باتريك أرغويللو» متهللا بأيامه السعيدة، حيث مازال يتذكر كيف فاجأه رفاقه في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعمان، عندما احتفلوا بذكرى عيد ميلاده، ولو أن ذلك كان منذ ستة أشهر. ليت والديه يتصوران الظروف التي أحاطت بإطفاء شموعه السبعة والعشرين! لأن «باتريك» شق، في الواقع، مسارا كلاسيكيا إلى حد ما. لقد رأى النور في الولايات المتحدة الأمريكية، من أب نيكاراغواني وأمّ أمريكية. في سنة ١٩٤٦، قررت أسرته العودة إلى بلدها الأصلي. بعد عشر سنوات، أجبرها وصول الدكتاتور «سوموزا» إلى الحكم على حزم حقائبها والعودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

التحق «باتريك» بثانوية «بلمونت سينيور» العمومية في لوس أنجلوس. كان منضبطا، لكن أبويه عجزا عن تحمل نفقات دراسته.

«سوموزا».. يا له من مستبد سافل. عندما كان «باتريك»

مراهقا، وقبل أن يجبر على الرحيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان شاهدا على المهانات والقمع الذي مارسه هذا الدكتاتور في حق الشعب. فاستبطن في دواخله غضبا ورغبة لا ترتوي أبدا في الثأر من جميع أشكال الظلم والأنظمة الشمولية. بالطبع، كان «تشي» قدوته، والثورة الكوبية مثاله الرائع.

عاد إلى نيكاراغوا عندما أنهى دراساته الثانوية، وسعى إلى الالتحاق بالجبهة الساندينية للتحرير الوطني. لكن عضويته سترفض بشبهة عمالته المزدوجة. كان أمرا غير معقول! بل صار أمرا أخرق في سنة ١٩٦٩، عندما قررت حكومة «سوموزا» طرده من البلاد، بتهمة الانتماء إلى حركات انقلابية.

حزّ الأمر في نفسه. سافر «باتريك» إلى جنيف قصد الالتحاق بأبناء بلده المنفيين هناك، ومتابعة الكفاح عن بعد ضد نظام «سوموزا». بعيد ذلك، اتصل زعيم الحركة الساندينية «أوسكار توركيوز» بقادة جبهة التحرير الفلسطينية، ملتمسا إرسال متطوعين إلى المعسكرات الفلسطينية في الأردن قصد تدريبهم.

رشح «أرغويللو» نفسه على الفور. سُرّ بذلك! اقترح عليه الفلسطينيون، عندما أصبح جاهزا، المشاركة في العملية التي تبرر وجوده، اليوم، في مطار «شيفول». لم يتردد لحظة. أخيرا، بات بمقدوره أن ينفذ ما تعلّمه، وأن يهين النظام الصهيوني، خاصة أنه ليس أفضل من نظام «سوموزا».

كان «باتريك» رابط الجأش، لأنه لم يكن المشارك الوحيد في هذه العملية. بل يسانده ثلاثة آخرون. اثنان من أبناء جلدته هما «خوان خوسي كيتسادا» و«بيدرو أروث بالاثيوس». أما الشخص الثالث، فهي امرأة فلسطينية اسمها داليا، هي في نفس عمره: سبع وعشرون سنة. وهي زوجته بصورة رسمية.

اختلس النظر إليها. لم تكن دميمة حتى لا ينظر إليها، بل كانت جذابة، خاصة أن تنورتها أضفت عليها فتنة إضافية.

لكن لِمَ ألزم نفسه بها بحق السماء؟ إذ لم يكن «باتريك» يثق بالنساء. وكان سريع الانفعال، ومفرط الحساسية، مخالفا لكل قواعد العقل. لكن فليكن ما يكون!

التفت نحوها، وقال:

- مالي لا أرى رفيقينا.

- ربما اعترضت صعوبات دخولهما إلى المطار. ليس في الأمر أي خطورة.

- الأمر مزعج على كل حال. يجب أن نكون أربعة.

- مهما يكن الأمر، سننفذ العملية بهما أو بدونهما!

فوجئ «باتريك» بنبرتها الحازمة، التي لم تكن تتناسب مع جسدها الملائكي.

- هيا بنا! قالت آمرة. ولا تنسَ أننا السيد والسيدة «سانشيث».

تقدما نحو مكتب رحلات «العال»، فانتبها إلى خلوّ المكان من المسافرين. لم يكن هناك أحد.

- مازال الوقت مبكرا، قال لهما الموظف المنشغل بترتيب بعض الوثائق.

- كيف؟ ردّت داليا. تبين تذكرتانا أن الإقلاع سيكون في الساعة ١١,٢٠.

- بعد ثلاثين دقيقة، أجاب الموظف بلامبالاة.

جلس الزوجان ثانية، حتى لا يظهر أن صبرهما قد نفد. وعندما عادا إلى المكتب، كان الموظف قد تبخر. داهمتهما الحيرة. كان يخوضان في الخطوة الموالية، عندما أرعد صوت خلفهما. استدارا. كان هناك عسكري إسرائيلي.

- لِمَ تأخرتما؟

قالت داليا:

- جئنا في الموعد، لكن الموظف- الذي اختفى منذ ذلك الحين- أخبرنا أن المكتب لم يفتح بعد، حيث وجب علينا الانتظار.

- جوازاكما!

كانت الوثيقة التي قدمتها المرأة تحمل اسم «ماريا سانشيث»، وهي من جنسية هندوراسية؛ ويحمل جواز «باتريك» اسم «ألفونصو سانشيث»، وهو هندوراسي أيضا. فحص الإسرائيلي الجوازين كما جرت العادة. طلب منهما إفراغ حقائبهما، ثم قلبها رأسا على عقب.

فجأة، تردد صدى أصوات مجلجلة.

رفعت داليا عينيها نحو مصدرها. كان هناك ثلاثة مسافرين يتقدمون في اتجاههما. اهتز قلب المرأة. كانوا عربا من الأردن. وهي تعرفهم. ماذا لو خطر ببالهم أن يحيّوها؟ سيكون ذلك من سوء الحظ.

لم تتردد في أن تعانق «باتريك أرغويللو»، وتنغمس في تقبيله بحرارة أمام الإسرائيلي الذي أحجم عن النظر إليهما. رضخ «باتريك» للقبلة، التي لم تكن سمجة في النهاية.

أرخت عناقها ما أن تجاوزهما ذاك الثلاثي. ثم قالت:

- آسفة، السيد الضابط، فأنا مغرمة جدا به.

تنحنح الإسرائيلي:

- هل سلمكما أحد ما شيئا ما؟

أجاب الزوجان بالنفي.

- هل تحملان أشياء حادة؟ سكين؟ أو خنجر؟ أو سلاح ناري؟

جادت عليه المرأة بابتسامة ساحرة.

- السيد الضابط، ما الذي ستفعله امرأة بأشياء من هذا النوع؟
- يمكنكما الانصراف. لكن أسرعا!

بعد خمس عشرة دقيقة، كان الزوجان يتخذان مكانهما في الدرجة الاقتصادية بطائرة «بوينغ ٧٠٧». كانت الساعة تشير إلى ١٣,٣٠، عندما أقلعت الطائرة متوجهة إلى نيويورك.

لم ينبسا ببنت شفة، إلى أن أعلن قائد الطائرة بداية الهبوط في مطار «هيثرو». كانت هي اللحظة التي ينتظرها الزوجان. استخرجت داليا قنبلتين يدويتين من أسفل تنورتها. وأخرج «أرغويللو» مسدسا كان قد ألصقه بشق صدره. في طريقهما إلى اقتحام المقصورة، همست في أذنه قائلة:

- لست داليا. اسمي ليلى خالد. بالتوفيق، يا صديقي!

ليلى خالد؟ بطلة الرحلة «ت.و.أ ٨٤٠»؟

هذا مستحيل! لقد سنحت الفرصة لـ«أرغويللو» أن يرى العديد من صورها، خاصة تلك التي انتشرت عبر العالم بالأبيض والأسود، وهي تحمل رشاش «كلاشنيكوف»، بشعرها الذي تغطيه كوفية. هذا مستحيل! فهي لا تشبه صورها! لكن تلك اللحظة لم تكن تسمح بطرح الأسئلة.

اندفعا في الممر، وهما يصرخان:

- لا يتحركَّنَّ أحد منكم!

سيطر الذعر على المسافرين.

- لا يتحركن أحد! كررت داليا. أنا...

توقفت فجأة.

خنق صوتَها ثلاثة مضيفين مدججين بالسلاح. خلفهم جثت

مضيفة انتابتها نوبة هستيريا على ركبتها، ترجوهم بالعربية ألا يفعلوا شيئا.

بهدوء تام، حذرت ليلى المضيفين- وهم في الواقع عملاء الأمن الإسرائيلي:

- اعلموا أنكم إذا أطلقتم النار، سيكون لدي الوقت الكافي لتجهيز قنبلتيّ.

ولتأكيد إصرارها، نزعت صمّامي القنبلتين.

- اتركونا نمرّ!

- هيا! سأحميك! صرخ «باتريك أرغويللو».

اندفعت إلى الأمام. عندما بلغا باب المقصورة، دوّت طلقات نارية، ثم شرعت تنزل فجأة. فقدت ليلى توازنها. أمسكت بظهر مقعد حتى لا تسقط.

كم من مسافر ارتمى على الفلسطينية حينها؟ ظنت في لحظة معينة أن عددهم كبير. أصابت ضربة عنيفة عنقها. ثم غابت عن الوعي. كان آخر ما علق بذهنها صورة رفيقها «أرغويللو» السابح في الدماء.

*

استجوابات مكاتب الشرطة في «إيلينغ» طويلة لا تنتهي، وتطرح نفس الأسئلة على الدوام. أنجدها ثلاثة رجال من شرطة «اسكتلند يارد».

- تقولين إن اسمك ليلى خالد. لكنك لا تشبهينها. كيف تفسرين هذا الأمر؟

- سبق لي أن أجبتكم. بعد اختطاف طائرة الرحلة «ت.و.أ ٨٤٠»، أجريت ست عمليات تجميل.

- لماذا ستّة؟

- لأن الخمسة الأولى لم تكن كافية.

ثم استأنفت قائلة:

- اسمعوا، إنني مرهقة. أشعر بالألم في كل مكان بسبب الضربات التي تلقيتها من الطاقم والمسافرين.

كان الأطباء قد شخصوا كسورا في ضلعين.

- أكرر القول إنني اعتبر نفسي أسيرة حرب.

- لكن ليس هناك حرب بين بريطانيا العظمى وفلسطين! قال ضابط معترضا.

- بلى، وهي مندلعة منذ ١٩١٧ ووعد بلفور![1]

- لن نعيد التاريخ الآن...

- أنا حرّة في الحديث عما أريد.

- من خطط لاختطاف طائرة رحلة «العال ٢١٩»؟

- أنا الفدائية ليلى خالد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، من الوحدة الرسمية «عودة»، المقاتلة الأسيرة.

- من زودكم بالأسلحة؟

- أنا الفدائية ليلى خالد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، من الوحدة الرسمية «عودة»، المقاتلة الأسيرة.

- كيف التقيت بـ«باتريك أرغويللو»؟

---

(١) في يوم ثاني نوفمبر/ تشرين الثاني، وجه الوزير البريطاني في الشؤون الخارجية اللورد «أرثر جيمس بلفور» رسالة إلى اللورد «روتشايلد»، رئيس الفيدرالية الصهيونية في بريطانيا العظمى، يعده فيها بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين. في نظر الحكومة البريطانية، كانت تروم هذه الوثيقة الحصول في أسرع وقت على دعم البنوك اليهودية في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية في سياق الحرب العالمية الأولى التي كانت تقتضي تعبئة مزيد من الأموال.

- في المطار.

- على سبيل الإخبار، اعلمي أن إسرائيل طلبت ترحيلك، وأن حكومة جلالتها رفضت.

- يمكنكم تسليمي إذا أردتم!

- ألا تخشين إذا أن يعذبوك؟

- تعلمون إذا أنهم يعذبون؟ في كل الأحوال، هناك مليونا فلسطيني معتقل في الأراضي المحتلة، ولن تغير سجينة واحدة تزيد أو تنقص في هذا الواقع شيئا.

- يؤكد مسافرون أنهم رأوك تطلقين قنبلة يدوية.

- هذا كذب. كانت غايتي تحرير بعض المعتقلين. فهذا العالم يرفض أن يفهمنا. وأنا هنا لأنني أدافع عن قضية عادلة.

أخيرا، وفي تمام الساعة الحادية عشرة ليلا، دخل المكتبَ ضابطٌ جديد.

- هل تعلمين أن هناك محاولات اختطاف أخرى؟

حركت رأسها. أعلن الضابط قائلا:

- أُخبرنا أن طائرة الخطوط السويسرية، التي تقوم بالرحلة رقم ١٠٠، الرابطة بين زيوريخ ونيويورك، وعلى متنها مائة وثلاثة وأربعين مسافرا واثني عشر عضوا من طاقم الطائرة، وكذا الطائرة التي تقوم بالرحلة «ت.و.أ ٧٤١»، الرابطة بين فرنكفورت ونيويورك، اختطفتا على يد أعضاء في حركتك. وقد هبطتا في مطار الزرقاء بالأردن.

كرر سؤاله:

- هل كنت تعلمين بالأمر؟

علت ملامحها ابتسامة مشرقة. ثم قالت:

- لا . هل يمكن أن أحصل على سيجارة؟

ابتهجت في دواخلها .[1]

ابتهجت أكثر عندما علمت بعد يومين أن اختطافا جديدا قد حدث. وفي هذه المرة، كان الأمر يتعلق بطائرة «بواك ٧٧٥»، التي تقوم بالرحلة الرابطة بين بومباي وروما، حيث أجبرت هي الأخرى على الهبوط في المطار الأردني نفسه. وقد قاد هذه العملية الأخيرة صديقاها القديمان حسين وزيد، وكذا اثنان من رفاقها. إذ لم يترددوا في المطالبة بتحرير ليلى خالد على الفور دون قيد أو شرط.

أمام أنظار الصحافة الدولية، وفي يوم ١١ سبتمبر/ أيلول، أطلق سراح المسافرين الثلاثمائة وعشرة، باستثناء من يحملون الجنسية الإسرائيلية، وهم نحو أربعين شخصا. إذ نقلوا إلى عمّان على متن شاحنة، إلى مكان غير معلوم، واعتبروا «سجناء حرب».[2]

وفي الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق، فجرت الطائرات الثلاث، حيث تطايرت شظاياها على مئات الأمتار من رمال الصحراء الذهبية.

انفجرت ليلى خالد ضاحكة.

في المقابل، كان ردّ الملك حسين مختلفا. ففي نظره، بلغ السيل الزبى، حيث لم يعد سيدا في بلده. إذ تحول الأردن إلى معقل فلسطيني. لقد طفح الكيل. لابد أن يدفع عرفات وعصابته الثمن.

---

(١) هذا الاستجواب مقتبس من كتاب «الفلسطينيون ١٩٤٨- ١٩٩٨» للكاتبين «كريستيان شيزنو» و«جوزيفين لاما»، منشورات «أوترومان»، ٢٠٠١.

(٢) سرد أحداث هذا الاختطاف مأخوذ من السيرة الذاتية لليلى خالد «شعبي يجب أن يحيا»، التي نشرها جورج حجار سنة ١٩٧٣.

وفي يوم ١٦ سبتمبر/ أيلول، صادق الملك على القانون الحربي.

*

عمان، ١٩ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠

أفرغ لواء المصفحات الستون قذائفه دون توقف على مقر منظمة التحرير الفلسطينية.

ومن باب الحيطة، اتخذت الفرقة الثالثة، بقيادة اللواء محمد ضياء المنحدر من باكستان، موقعا على الحدود العراقية-الأردنية. في الواقع، أبدى صدام حسين وأحمد حسن البكر تعاطفا أكبر تجاه القضية الفلسطينية، لكنهما خشيا عواقب التدخل فيها. لكنهما ارتأيا أنه من الأجدر صرف النظر عن فعل ذلك.

شرع خمسة وخمسون ألف رجل يمطرون المخيمات بسيل من النيران، مستعملين ثلاثمائة مدفع. هناك كان يقاوم نحو ثلاثين ألف فلسطيني، يتكون أغلبهم من ميليشيات مدنية مسلحة. لكنها لم تكن تمثل عائقا كبيرا أمام جيش نظامي منظم بشكل جيد.

لكن رغم قلة عدد الفلسطينيين، إلا أنهم قاتلوا بيتا بيتا، بضراوة يغذيها هوس حبّ البقاء. كانوا يقاتلون من أجل أنفسهم وأبنائهم، وفي سبيل فلسطين. كان عرفات يأمل، في قرارة نفسه، أن يهب العراق أو سورية لنجدته. تقدمت سورية ببضع دبابات، لكن القناصات الأردنية سرعان ما دمرتها. في حين، رفض حافظ الأسد، وزير الدفاع، أن يتدخل طيران بلده. أما حكومة بغداد، فقد رفضت أن تستجيب، بشكل لم يكن متوقعا، لنداءات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. هكذا، وجد الفلسطينيون أنفسهم وحدهم في ساحة القتال.

قصفت مخيمات الوحدة وجبل عمان بعنف. ثم حرمت المدينة من الماء والكهرباء، بينما كانت أعمدة الدخان السوداء المنبعثة من بنايات محترقة ترتفع معانقة عنان السماء. وفي العاصمة الأردنية، كانت تدور معارك دموية ضارية بلا رحمة ولا شفقة. والتحقت نساء فلسطينيات، بأزيائهن التقليدية، بصفوف المقاتلين. كن مدججات برشاشات فقط، بل نجح بعضهن في تأخير تقدم كتيبة أردنية طيلة ثلاثة أيام في حي المصاروة.

أمام هذه المذبحة، قررت البلدان العربية التحرك، حيث أوفدت بعثة مصالحة إلى الأردن، يوم ٢٢ سبتمبر/ أيلول، يترأسها الرئيس السوداني جعفر النميري. لكنها فشلت، بينما لم ينجح أي طرف في التغلب على خصمه. وهكذا، طلب من عبد الناصر أن يلعب دور الوسيط. استجاب لهذا الطلب، حيث بذل قصارى جهده، ونجح في أن يحمل عرفات والملك حسين على تحكيم العقل.

- لا يمكن لأحدكما أن يتخلص من خصمه. إنه الواقع الذي يجب أن تسلما به.

وقال للملك:

- يا صاحب الجلالة، تؤكد أنك قادر على استئصال الفلسطينيين. حسنا! إذا كنت قادرا على فعل ذلك، فلأنك تملك الوسائل الكفيلة. ولكن اعلم أن الثمن الذي ستدفعه سيكون باهظا. كيف يمكنك أن تحكم بلدا بعد حرب أهلية ستخلف عشرين أو ثلاثين ألف قتيل؟ ستحكم مملكة من الأشباح!

ثم توجه مخاطبا عرفات:

- لا تتصور أن بمقدورك مقاومة جيش معاصر الند للند. لو قرر الملك تصفيتك، فإنه يستطيع. فلا تبالغ في تقدير قوتك. يجب أن تتعايش مع ذلك!

نجح عبد الناصر في إقناع الطرفين بعقد اجتماع في القاهرة، تحت رعايته وبعض القادة العرب الآخرين. إذ حدد تاريخه يوم ٢٣ سبتمبر/ أيلول.

كانت الحرب قد أسفرت عن حرق مقاتلين أحياء ودك مخيمات اللاجئين، حيث قتل من الطرفين نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص، وجرح عشرة آلاف. إذ سجلت هذه المأساة في مذكرات الفلسطينيين باسم «أيلول الأسود».

(٢٥)

الحياة حكاية يرويها معتوه، مليئة بالضجيج
والغضب ولا تعني شيئا.

وليم شكسبير، *ماكبث*

القاهرة، ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠

في منتصف النهار تماما، دخل عرفات، إحدى قاعات الاجتماع داخل مقر الجامعة العربية، متلفعا بمعطف، تغطي رأسه عمامة كويتية. كان رأسه مطلوبا من طرف الملك حسين.

لم يكن الملك قد وصل بعد. في حين، كانت الشخصيات الأخرى التي التمس عبد الناصر مجيئها، أمثال العقيد الليبي معمر القذافي والملك فيصل وأميري الكويت وقطر، قد اتخذت مكانها منذ بضع دقائق. وإلى جانبهم جلس وزراء الخارجية الذين أوفدتهم الدول العربية.

أصر عبد الناصر ألا يفتتح المؤتمر إلا بحضور الملك. سرعان ما احتج العقيد القذافي:

- ما فائدة ذلك؟ إنه مجنون! مختلّ عقليا!

امتلأ الملك فيصل حنقا عليه:

- كيف تتطاول هكذا على ملك عربي؟

- لكن أين يوجد والده؟ سخر القذافي. ألا يوجد في اسطنبول بملجأ للمعتوهين؟ إنه مجنون. بالطبع، هو مجنون! الجنون إرث هذه العائلة. كلهم مجانين!

كان العقيد يشير هنا إلى المرض العقلي الذي أصاب الملك طلال وأدى إلى تنازله عن العرش لابنه سنة ١٩٥٢.

طلب الملك فيصل التدخل. كانت شفتاه ترتجفان:

- كيف نقبل أن يصف أحد زملائنا ملكا عربيا بالمجنون؟

حاول الرئيس عبد الناصر أن يقلل من شأن أقوال العقيد. لكن هذا الأخير رفض أن يتزحزح عنها:

- نعم. والله إن حسين مجنون! أقترح أن نستدعي فريقا من الأطباء إلى هنا لمعالجته، وهم من سيؤكدون ما إن كنت على صواب أو مخطئا.

نظر الريس إلى السماء ساخطا. ثم قال:

- مجنون! يبدو أننا جميعا مجانين. أقترح أن يعالجنا هؤلاء الأطباء الذين تريد استدعاءهم، قبل أن يعالجوا الملك حسين، وأن يخبرونا من المجنون فينا.

هزّ الملك فيصل رأسه موافقا.

- أنا أتفق تمام الاتفاق أخي السيد الرئيس، لكن في ظل هذه الظروف، ألح على أن يعالجوني أنا أولا. سيكتشفون، مع قليل من الحظ، أنني مجنون أكثر من الجميع. وهكذا سأعفي نفسي من عناء حضور نقاشات كهذه!

لم يقرر الملك جسين الالتحاق بالمؤتمرين إلا في اليوم الموالي. كان متيبس الوجه يلفّه الغموض. عبر القاعة، يحيط به ضابطان مدججان بالسلاح.

حملق فيه ياسر عرفات ساخطا. كان مسلحا هو الآخر، والقذافي أيضا. أشار الفلسطيني بأصبعه إلى حسين، ثم شرع يصرخ:

- هذا المجرم! انظروا إلى هذا المجرم! أولا، لقد قتلنا، وذبحنا، وها هو يجرؤ على المجيء إلى هنا!

شعر الجميع بأنه مستعد ليرتمي على عنق الملك الصغير. أحاطوا به، وهدّؤوه.

وقف الملك فيصل مستغلا لحظة صمت. جال ببصره على الجمع، ثم قال:

- يا إلهي، نحن نوجد داخل ترسانة أسلحة، ومع جميع هؤلاء المتعصبين! أرفض أن أجلس قرب كل من يحمل مسدسا.

لكن إنذاره ذهب أدراج الرياح. تسلح عبد الناصر بصبر جميل، قبل أن يفتتح النقاش.

في يوم ٢٧ سبتمبر/ أيلول، نجح في مصالحة الإخوة الأشقاء بمعجزة، بعد محادثات مشحونة، حيث وقعوا على اتفاق بينهم. ثم خلّدت صورة هذا الحدث، يظهر فيها من قتل أكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني، وزعيم المنظمة التي سعت إلى التخلص منه، واقفين يدا في يد. إنها أعجوبة السياسة وسخريتها.

كانت أيدي الواقفين خلفهما موضوعة على أكتافهما، وثغر عبد الناصر يفتر عن ابتسامة متكلفة. بدا منهكا. ومع ذلك، كان تنتظره مهمة أخيرة: أن يرافق كل ضيف إلى المطار.

كان أمير الكويت آخر المغادرين. أشار إليه عبد الناصر مودعا. لكن بدل أن يعود إلى السيارة التي تنتظره على بعد بضعة أمتار في الجناح الرسمي، ظل جامدا كأنه تسمر في مكانه. لقد أصبح وخز الألم الذي لم يغادره طيلة النهار لا يطاق. لم يكن العرق يرشح من

ساقيه فقط، بل من جسده كاملا، حتى أنه لم يجرؤ على أن يخطو خطوة واحدة.

شعر مساعده بالقلق.

- قرّبوا السيارة، قال عبد الناصر لاهثا. واتصلوا بالدكتور الصاوي.

بعد نحو عشرين دقيقة، كان قد عاد إلى بيته. أصاب الذهولُ زوجتَه «تحية»، بعدما رأت حدة التعب البادية على وجهه.

- سأتمدد في غرفتي. عندما يصل الطبيب، أدخلوه إليّ، قال عبد الناصر.

وصل الطبيب فورا. فحص الرئيس، وشخص أزمة قلبية جديدة. ودون انتظار، استدعى الطبيبين فايز وزكي اللذين عالجا جلطته الأولى. أكّدا نتيجة تشخيصه.

لم يصِدق الدكتور فايز حالته، لكنه نصح عبد الناصر بالخلود للراحة بضعة أسابيع، وإلا . . .

- مستحيل! أو ربما فيما بعد. بعد أن أزور الرجال المرابطين في القناة.

وضعوا تجهيزات طبية. بدأت نبضات قلبه تستقر في نحو الساعة الخامسة مساء. وفي الساعة الخامسة وخمس دقائق، مدّ يده نحو الراديو الموضوع على المنضدة، ثم شغّله وطلب من الأطباء أن يصمتوا، فقد حان موعد الأخبار.

ارتفع صوت المذيع المعروف داخل الغرفة. أنصت الرئيس حتى النهاية، ثم أقفل الراديو، قائلا:

- لم أسمع ما كنت أرغب فيه.

ناشده الدكتور فايز أن يحافظ على هدوئه:

- الحمد لله، أجاب عبد الناصر. أشعر في الوقت الراهن بتحسن.

كانت تلك آخر كلماته. لم يعرف أحد أبدا ما كان الريس يرغب في أن يسمعه في ذلك اليوم.

تسلل الرجال الذين كانوا ينتظرون في الخارج، يخمنون خطورة الوضع، إلى الغرفة بكل هدوء، وظلوا يتابعون المشهد بعيون ذاهلة.

هزّت سلسلة صعقات كهربائية جسد الريس بعنف. كان الأطباء يعرفون أنهم خسروا المعركة، لكنهم رفضوا الاستسلام. لم يعد هناك علم، ولا أي شيء آخر، قادر على تحريك قلب عبد الناصر. بل إن الرجل كان قد مات منذ فترة طويلة.

كان ذلك يوم ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧.

القسم الخامس

(٢٦)

لم يحدث أبدا أي شيء عظيم دون شجاعة أدبية، وخرق للمبادئ، مما يخنق العقول الصغيرة.

جيل رومان

مطار «بن غوريون»، ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧

ظل هشام ووالدته نور شاخصين إلى التلفزيون. كانا مقتنعين أنهما يقذفان في بعد آخر. لكن ما كان يجري أمام أعينهما هو الواقع بكل عنفوانه. كانت الطائرة التي تنقل الرئيس المصري أنور السادات تقترب وتستعد للهبوط في إسرائيل، بمطار «بن غوريون».

كما في مجموع العالم العربي، وجزء كبير من الكون بلا ريب، كان هشام يتنازعه الشك والذهول. ذلك أن خليفة عبد الناصر سينجز ما لم يكن يخطر على بال، سيحل ضيفا على العدو الأبدي، بينما ما يزال يحتل سيناء والجولان وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس.

- انتهى كل شيء! لقد حطت الطائرة! صرخت نور.

تغلبت المرأة العجوز على ألم هشاشة العظام، الذي يعذب يديها منذ شهور، وشرعت تصفق.

تدحرج سلم الصعود الذي يحمل ألوان «العال» ببطء فوق

الإسفلت، ثم التصق بالطائرة. انطلق العزف لحظة فتح باب الطائرة. نزل أنور السادات الأدراج.

ترى ما الذي كان يشعر به في أعماقه في تلك اللحظة؟ بالفخر؟ أم بالخشية؟ أم تراه كان مقتنعا بأنه ينجز عملا سيبقى محفورا في التاريخ؟

في الوقت الراهن، ها هو يصافح أيدي الشخصيات التي جاءت تستقبله، وخاصة «غولدا ماير» التي اختصرت بالمناسبة زيارتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، و«إفرايم كاتسير» الذي انتخب رئيسا لإسرائيل قبل ستة أشهر، و«مناحيم بيغن» رئيس الحكومة. ها قد اجتمع، فجأة، زعماء الدولتين المتصارعتين، اللتين ضحى من أجلهما آلاف الرجال بحياتهم وشبابهم، يتابعهم الملايين عبر شاشات العالم. وفي الخلفية، كان علما البلدين يرفرفان جنبا إلى جنب.

- كيف صار هذا ممكنا؟ دمدم هشام.

فجأة، شق دوي انفجار عنان السماء.

- يا الله! صرخت نور. تفجير!

- لا، يا أمي، طمأنها هشام. إنها طلقات تحيّة. إحدى وعشرون طلقة. هكذا جرت العادة.

- كم خفت.

حيّا «أبا إيبان» و«موردخاي غور»، رئيس القيادة العامة الإسرائيلية، و«موشي ديان» الرئيس المصري، ثم حلّ الدور على «أرييل شارون»، الرجل الذي قاد، قبل أربع سنوات، هجوما مضادا مشهودا على القناة، في منطقة المصب.

ها قد مضت أربع سنوات. . . قال هشام مستغرقا في التفكير.

بعيد وصول الرئيس المصري إلى السلطة، شعر بحاجة ملحة إلى تغيير هذا الوضع الجامد، الذي يدمر اقتصاد بلده. إذ فشلت جميع المحاولات الدبلوماسية، ولم يعد أمامه سوى منفذ واحد، يسمح بدخول غمار حرب جديدة.

كان قد اتفق مع حافظ الأسد الذي تولى السلطة سنة ١٩٧٠- كما توقع زكرياء محيي الدين وشهيد. وبادر إلى شن الحرب، في عمل مشترك بينهما أطلق عليه اسم «عملية بدر».[١]

ففي يوم ٦ أكتوبر/ تشرين الأول، على الساعة الثانية زوالا، انطلق الجيشان المصري والسوري، حيث لم يكن اختيار التاريخ اعتباطيا. فهو اليوم العاشر في التقويم العبري، أي يوم كيبور، وهو يوم مهيب جدا، يحظى باحترام الأغلبية العلمانية أيضا. وعلى امتداد يوم كامل، كانت إسرائيل كلها تعيش على إيقاع بطيء. توقفت البرامج التلفزيونية. توقف النقل العمومي، وأغلقت المتاجر.

إنه الزمن المثالي لشن الحرب.

طيلة الأسبوع الماضي، تكثفت التداريب المصرية على ضفة القناة الغربية، ولوحظت تحركات القوات على الحدود السورية. ورغم هذه البوادر، إلا أن حكومة «غولدا ماير» استبعدت وقوع أي هجوم.

وفي أقل من نصف ساعة، صبّت أزيد من مائتي غارة جوية أكثر من عشرة آلاف قذيفة على خط الدفاع الإسرائيلي المعروف باسم خط «بارليف». وفي الآن ذاته، كانت الفرق الأولى المضادة للدبابات تعبر القناة، تتبعها أمواج من القوارب المطاطية التي تنقل آلاف

---

(١) في إشارة إلى معركة بدر التي تمثل أحد الانتصارات العسكرية للنبي محمد على سكان مكة، رغم تفوقهم العددي.

الجنود. وبعد ساعة وربع من بدء الهجوم، كان خط بارليف قد تحطم.

كان يلزم الجيش الإسرائيلي ثلاثة أيام حتى يردّ، يسنده جسر جوّي نشأ على عجل بين الدولة العبرية والولايات المتحدة الأمريكية.

وتبين أن هذه المساندة كانت حاسمة. فمنذ يوم ١١ أكتوبر/ تشرين الأول، صارت المعركة في صالح إسرائيل. إذ نجح فيلق من جيش تساحال- بقيادة «أرييل شارون» الذي قرر أن يتحرك من تلقاء نفسه- في التسلل إلى غرب القناة، في منطقة المصب، والانقضاض على الفرقة الثالثة من الجيش المصري.

بعد يومين، استعادت قوات تساحال الجولان. وانتصرت إسرائيل.

ومع ذلك، كانت حرب أكتوبر بلا شك أكبر تجربة صادمة تشهدها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨. إذ لم تتكبد طوال تاريخها أبدا خسائر بشرية قوامها ألفان وخمسمائة وتسعة وستون قتيلا وسبعة آلاف وخمسمائة جريح.

استقالت «غولدا ماير»، بعدما أنّبها ضميرها، حيث كتبت في سيرتها التي حررتها بعد إحالتها على التقاعد: «ليس هناك أي عزاء فيما قد يقوله أحد أو في كل التهدئة والتحجج بالعقل الذي حاول زملائي تهدئتي به. ليس المهم هو ما يمليه المنطق. المهم هو أنني، أنا التي تعودت على إصدار القرارات والتي أصدرتها فعلا خلال الحرب، قد فشلت في اتخاذ هذا القرار. وليست المسألة شعورا بالذنب. إنني أنا أيضا أستطيع أن أحتكم إلى العقل وأقول لنفسي إن في مواجهة مثل هذا اليقين الكلي من جانب مخابراتنا العسكرية- والقبول الكلي بقدر مساو لتقديراتنا من جانب أبرز رجالنا

العسكريين- فإن إصراري على الأمر بالتعبئة كان سيبدو أمرا غير مقبول. لكنني أعلم أنه كان علي أن أفعل ذلك. وسوف أحيا بهذا الحلم المفزع بقية حياتي، ولن أعود مرة أخرى نفس الشخص الذي كنته قبل حرب يوم كيبور.»[١]

بلا شك، كان السادات يفكر في هذه الحرب عندما انفجر ضاحكا، وقال مخاطبا «شارون»:

- إذا حاولت مرة أخرى أن تطأ أرض الضفة الشرقية، سأزج بك في السجن!

- لا وجود لأي فرصة كي يحدث ذلك مجددا. ردّ «شارون». فأنا وزير للثقافة في الوقت الحاضر!

أضاف السادات:

- في الواقع، كان بمقدوري أن أوقف هجومك، لكن كان يتعذر عليّ العثور عليك للأسف!

أجاب «شارون»:

- إنها لمتعة إذاً أن أستقبلك.[٢]

وحدهم الأشخاص الواقفون جنبهما استطاعوا التقاط حديث الرجلين. أما المصافحة، فقد دامت وقتا طويلا، حتى إن المرء ليقسم أنهما صديقان لم يلتقيا منذ زمن طويل.

---

(١) عدت في نقل هذا الاقتباس إلى العربية إلى الترجمة العربية لـ«اعترافات» غولدا ماير، التي أنجزها المترجم المصري عزيز عزمي، والتي صدرت ضمن منشورات مؤسسة دار التعاون (التاريخ غير محدد)، انظر الصفحة ٣١٩ (المترجم).

(٢) أنور السادات، *البحث عن الذات: قصة حياتي*. تجدر الإشارة إلى أن المؤلف يحيل على الترجمة الفرنسية لسيرة الرئيس المصري الصادرة عن دار «فايار» سنة ١٩٨١ (المترجم).

عبثية هي الحرب، هكذا قال هشام الذي مازال جالسا أمام شاشة التلفزيون. وتجعلها هذه اللحظة أكثر عبثية.

*

بيروت، مخيم صبرا وشاتيلا، في اللحظة ذاتها

قذف حسين الحسيني ببصاقه على الأرض.

- خاننا ابن الكلب! خان القضية الفلسطينية! وها هو يمرغ شرفنا، وشرف العرب في الوحل!

- لن تنتهي به هذه الخيانة إلى الجنة. سيؤدي الثمن بدمائه. ردّ زيد مزايداً.

وانطلق خمسة عشر نفرا متحلقين حول شاشة تلفاز قديم يشتمونه ويلعنونه.

- عليه اللعنة! الخائن ملعون! سيتعذب في نار جهنم!

نهض حسين، وجاب الغرفة ذات الجدران المغبرة.

- بينما يتبختر هو في استعراضه، ها نحن هنا تتقطع أنفاسنا غيظا داخل هذا المخيم الحقير، بعد أن طردنا الصهاينة من فلسطين، وأشقاؤنا العرب من الأردن، وغدا سيطردنا المسيحيون من لبنان. العالم كله يتقيؤنا!

مسح بكمّه العرق المتقاطر من جبينه.

- لا أحد منا نسي ما فعلته بنا تلك الكلاب من الكتائب هنا منذ سنتين، وهي تقذف رصاصها عن قرب على حافلة كانت تقلّ ثلاثة وعشرين من إخوتنا الفلسطينيين. ماتوا جميعا! اغتالهم هؤلاء الأشخاص الذين يحسبون أنفسهم مسيحيين![1] ليس لدينا سوى

---

(١) وقع الهجوم يوم ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٧٥. كان بمثابة رد على محاولة اغتيال بيير جميّل، زعيم الحركات اليمينية الذي يعارض بحماس وجود

مخرج واحد، يكمن في مواصلة الكفاح المسلح دائما وأبدا! حتى الموت.

- الأمريكيون هم المسؤولون! صرخ أحدهم. إنهم هم من يستهزئون بقرارات الأمم المتحدة! يجب أن يدفعوا الثمن! وقد تواطأ معهم العالم الغربي.

وقف أحدهم فجأة. رفع أصبعه إلى السماء غاضبا، ثم قال:

- قاتلوهم! سيقتص الله منهم بأيديكم، ويخزيهم، وينصركم عليهم، ويشفي غليل شعب مؤمن!

اشتدت ملامحه، قبل أن يكمل قائلا:

- قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ.[1]

*

= الفلسطينيين في لبنان. وتعتبر الكتائب حزبا سياسيا قوميا تأسس سنة ١٩٣٦ على يد شخصيات تناضل من أجل استقلال البلد وسيادته.

(١) الآيتان ٢٩ و٣٠ من سورة التوبة ـ وهما تحيلان على «إزرا»، أو «إسدرا»، ذلم الحاخام اليهودي الذي كلف بالشؤون اليهودية في محكمة بلاد الفرس. غير أن التوراة لا تشير إليه باعتباره «ابن الله». ربما وجدت في عهد النبي طائفة منشقة كانت تنظر إليه بهذه الصفة. وهي المسألة التي مازال الفقهاء المسلمون يركزون عليها.

بغداد، في اللحظة ذاتها

لم تعد مجيدة، الجالسة على بعد متر واحد من التلفزيون، تصدق عينيها.

أمسكت بيد فواز، ثم همست:

- قل لي إنني أحلم...

- لا، يا حبيبتي. لا تحلمين. إنه كابوس. فقد باع نفسه للعدو.

- انتظر، لا تتهمه. لم يتحدث بعد. لقد أعلن المذيع أنه سيلقي خطابا في الكنيست. لنسمع ما سيقوله.

- كم أحب ذلك. لكن كل شيء قد قيل، بالنسبة إلي.

*

القدس، في آخر المساء

امتلأت مقاعد البرلمان الإسرائيلي عن آخرها. حضر جميع النواب والوزراء. شدتهم كلمات الرئيس المصري الذي ظل يخطب منذ ساعة. كانت بعض مقاطع الخطاب تثير حماسة الحمائم. وبعضها يثير سخط الصقور. بينما يغرق بعضها الآخر في محيط من التفاهة.

توقف السادات لحظة، قبل أن يختم:

- الحق أقول لكم إن السلام لن يكون اسما على مسمى ما لم يكن قائما على العدالة، وليس على احتلال أرض الغير. ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم. وبكل صراحة، وبالروح التي حدت بي إلى القدوم إليكم اليوم، فإني أقول لكم: إن عليكم أن تتخلوا نهائيا عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضا عن الاعتقاد بأن القوة

هي خير وسيلة للتعامل مع العرب. إن عليكم أن تستوعبوا جيدا دروس المواجهة بيننا وبينكم. فلن يجديكم التوسع شيئا...

هناك أرض عربية احتلتها -ولا تزال تحتلها- إسرائيل بالقوة المسلحة. ونحن نصرّ على تحقيق الانسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية.. القدس التي حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام التي كانت، وسوف تظل على الدوام، التجسيد الحي للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث.

ألا هل بلغت اللهم فاشهد. اللهم إنني أردد مع زكريا قوله: أحبوا الحق والسلام. وأستلهم آيات الله العزيز الحكيم حين قال: قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون صدق الله العظيم... والسلام عليكم.[1]

دوت عاصفة من التصفيق في قاعة البرلمان.

بزغ أمل كبير في الغرب. في حين، كان يوم حداد في دمشق وبغداد وعمّان وباقي الشرق الأوسط. إذ اعتبرت خطوته الرامية إلى تحقيق السلام خيانةً. فوجد السادات نفسه على هامش البلدان العربية.

«والسلام عليكم»، هكذا عبر الرئيس المصري عن أمنية تتلفع بالورع. يبدو أن الحمائم وحدها ستدرك قيمتها.

بعد أربعة أشهر، في بداية أبريل/ نيسان ١٩٧٨، احتل الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان، ردًا على هجوم نفذه فلسطينيون في تل أبيب. وأطلق الاحتلال على هذه العملية اسم «عملية الليطاني».

---

(١) هذا الاقتباس مأخوذ من النص العربي لخطاب الرئيس أنور السادات في الكنيست (المترجم).

(٢٧)

أمهات الجنود المقتولين هن قاضيات الحرب.

برتولت بريخت

القدس، ٢٠ أغسطس/ آب ١٩٨٠

تمددا عاريين، جنبا إلى جنب. كان يمسك بيدها.

- للأسف، همست جمانة. لطالما رغبت في إنجاب طفل منك.

- كم وددت ذلك أيضا. لكن «أدوناي» قرّر العكس. ربما قدّر أن حياتنا تكفي وحدها تكفي لتغمرنا بالسعادة. فالحياة معجزة. كلما فكرت في يوم لقائنا تحت وابل الرصاص والنار، أتساءل: كم مضى من عام منذ ذلك الحين؟

- اثنتان وعشرون سنة...

- وإحدى عشرة سنة من الزواج. من كان يتصور هذا؟

- جمانة برونشتاين... لم أتعود على هذا الاسم. كلما نطقته، أشعر أنني أخون أهلي. وأنت لا تريد لي ذلك، أليس كذلك؟

- لا، يا حبيبتي. أفهمك. فالأمر يتعلق بقانون عبثي يفرض على المرأة أن تحمل اسم زوجها. ليس بمقدوري أن أغير الأمور بأي حال. ولن أنزعج إذا ناديتني باسم «أفرام» النابلسي.

شرعت تضحك.

- هل ما زلت تواجه مشاكل مع والديك؟

- مع أبي وحده. أما أمي، فقد أدركت أنه لا يمكن الاعتراض على اتحاد كائنين متحابين بدعوى أنهما لا ينتميان إلى نفس الطائفة أو الدين. بالطبع، أعرف أنها كانت تأمل في أعماقها لو تزوجت يهودية. لكنها اعتادت هذا الواقع الجديد.

سكت «أفرام». بدا وجهه مفعما بعواطف جياشة فجأة.

- أفتقدها. أفتقدهما معا. أتحسر على أن والدي رفض مصالحتي قبل رحيله عنا. كنت أرغب أن يرحل في سلام وأن يمنحني بركته. لكن رحيلها بعد مرور ستة أشهر عن وفاته يبقى أمرا محيرا. أعتقد أن التفسير الوحيد هو أن أمي لم تقوَ على مقاومة الألم الذي سببه موت والدي.

- أنا مقتنعة بذلك. قد يموت المرء هما وكمدا.

تكورت فوقه.

- أنا، ها أنذا هنا، كما تعرفين؟ لن أحلّ محلّهما، لكنني أريد أن تدركي أنني هنا.

طوقته بحنان.

- أعرف، يا حياتي، أعرف.

- تبدو نبرتك مضحكة عندما تتكلم بالعربية.

- هل تسخرين مني؟

- أبدا. أحبك.

ران الصمت لحظة.

- لقد تخففت من أعباء الخدمة العسكرية. لقد استل طردي من الجيش بدعوى أنني تزوجت إرهابية سابقة شوكة من قدمي. وفي كل

الأحوال، هناك اليوم، في سن السادسة والأربعين حظوظ قليلة لاستدعائي. لم أعد أريد أن أسفك الدماء، خاصة دماء الفلسطينيين.

- ولا أنا أيضا، خاصة دماء اليهود.

- ذلك واجب. ينبغي أن يضع إخوتك الفلسطينيون حدا لأفعالهم الإرهابية. إذ لا يمضي يوم دون أن ينفذوا هجمات. قبل ستة أشهر فقط، نفذوا هجوما على حضانة في «كيبوتس مسغاف عام»، خلف ثلاثة قتلى من بينهم طفل في سنّ العاشرة. إنه أمر فظيع.

- أنت على حق، يا «أفرام».

- فظيع، كرر «أفرام»، بل عقيم ومجنون. لن يتحرر شعبك بالعنف، بل بالمبادرات السلمية وحدها. من هنا يبقى تحرك السادات عظيما. إذ استعاد أراضيه وقناته، ويسود السلم بين بلدينا. فجائزة نوبل للسلام التي فاز بها مستحقة تماما. وقد استغل الطغاة العرب الفرصة كي يشتموه، وينعتوه بكل النعوت البئيسة، رغم أنهم لم يخوضوا، هم ولا أبناؤهم، معمعان المعارك. ولم تعانِ بلدانهم من الحرب والفاقة طوال خمسين سنة. لم أرَ، باستثناء الجنود السوريين، إلا بعض العراقيين والأردنيين. أما جنود الجيوش العربية الأخرى، فيعدّون على رؤوس الأصابع.

- ليس في الأمر ما يبهج القلب، لكني أوافقك الرأي. كانت مصر البلد الوحيد القادر على كبح جماحكم، وهي أملنا الأخير في تحرير أراضينا التي استولى عليها أصدقاؤك. ومهما يكن، فإني لم أستسغ أن يفوز بجائزة نوبل مناصفة مع «بيغان»، هذا الرجل الذي تلطخت يداه بالدماء. إنه مخترع الإرهاب الذي يتجرأ على الحديث عن الإرهابيين وهو يشير بأصابعه إلى الفلسطينيين!

تنهد «أفرام».

- جمانة، أنت في وضع يسمح بمعرفة أننا نتناوب على أدوار المقاومة والإرهاب، سواء انتصرت قضيتنا أو فشلت. شئت أم أبيت، فهذا الصقر هو من وقع، في كل الأحوال، اتفاق السلام مع السادات،[1] وهو اليميني المتطرف الذي قبل أن يعيد لمصر ما احتللناه من أراضٍ.

توقف لحظة قبل أن يستأنف كلامه:

- تكمن الفكرة الجوهرية في خطوة السادات في أنه حتى لو دفع حياته غدا مقابل خطوته، فإنه أظهر للعالم أن المرء قد ينتصر بدون أسلحة. انظري إلى غاندي! لقد أوهن الإمبراطورية البريطانية بيدين عاريتين. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، أبطل «مارتن لوثر كينغ» القوانين العنصرية بيدين عاريتين هو الآخر. وفي المقابل، لم يتقدم هجوم ميونيخ، الذي أودى بحياة أحد عشر عضوا من الفريق الأولمبي الإسرائيلي، بالقضية الفلسطينية خطوة واحدة. بل على العكس، فقدت مصداقيتها. إذ لم يأت مقتل ستة وثلاثين مدنيا في الهجوم على الحافلة بتقاطع «غليلو» بأي فائدة، سوى أنه قدم مبررا آخر لمعسكر الحرب.

- أنت على حق يا «أفرام». لكن حاول أن تقنع المهانين اليائسين بتحكيم العقل.

- لا يمكن لأي عمل يتغذى على اليأس أن يبرر قتل المدنيين الأبرياء!

ضمّ جمانة بين ذراعيه.

---

(١) حدث ذلك يوم ٥ سبتمبر ١٩٧٢، على يد أعضاء منظمة «سبتمبر الأسود»، حيث انتهى خطف الرهائن في اليوم الموالي بحمام دموي.

- دعينا نكفّ عن ذكر هذه المآسي. سيسود السلام يوما ما. أنا متأكد من ذلك.

- إن شاء الله، يا عزيزي. سمع الله قولك.

*

بغداد، ٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠

- هذا الخميني رجل أحمق! مختل عقليا، قال صدام حسين. بعد الفوز في هذا الاستفتاء الكاريكاتوري حول إنشاء نظام إسلامي، ها هو يدعو العراقيين إلى الانقلاب عليّ! من أي زريبة خرج هذا الحمار، هذا المعوق الجاهل؟

- من زريبتنا، جازف فواز البغدادي بالردّ.

رماه الرئيس العراقي بنظرة شزراء.

- ماذا تقصد؟

- ألم نؤوِه طيلة أربعة عشر عاما.

- أنت محق تماما، يا أخي. انظر كيف يجازينا هذا المظلم! اتّق شر من أحسنت إليه!

لم يكن الرئيس الجديد مبالغا فيما قال. لكنه كان يتفادى، في غضبه الشديد، أن يؤكد أن الإمام لا يظهر جحوده تجاه العرق فقط.

في سنة ١٩٦٤، اضطر الرجل إلى الارتماء في حياة المنفى، بعد أن اعتبرته سلطات الشاه شخصا غير مرغوب فيه. فأكرمت حكومة العراق وفادته فعلا. وفي بغداد أيضا نشر بيانه «من أجل حكومة إسلامية»، والذي أكد فيه أولوية الإسلام في إدارة الشؤون السياسية والاجتماعية، وإكراه النساء على ارتداء التشادور ورفض الحضارة الغربية.

بعد ذلك، أي في سنة ١٩٧٨، بسبب دفء العلاقات

الدبلوماسية بين بلده والعراق، استعطفوه أن يحمل خطبه اللاذعة إلى مكان آخر. استقبلته فرنسا، أرض المنفى، بالأحضان. كان لهذا الرجل الجسور متسع من الوقت في بلدة صغيرة في الضاحية الباريسية، تدعى «نوفل لوشاتو»، ليضم أوامره ومواعظه في أشرطة من أجل قلب نظام بهلوي. واستجاب الله لأمنيته.

قررت الولايات المتحدة الأمريكية، رغم ما أوتيت من خبراء لامعين وعقول مستشرفة، التخلي عن الشاه، حيث تحمس الرئيس «كارتر» لتشجيع هذا الأخير على التنازل عن السلطة، باسم الديمقراطية. فاستجاب محمد رضا بهلوي لطلبه. وهل له من خيار آخر؟ ذات صباح من شهر يناير/ كانون الثاني ١٩٧٩، طار إلى منفى سيتحول إلى محنة طويلة.[١]

وبعد شهر، عاد الخميني مظفرا إلى بلده الأصل، حيث استقبله شعب يقع على حافة الهستيريا. استقر منذ ذلك اليوم بمدينة قم المقدسة، حيث واصل إصدار تعليماته بشراسته المعهودة، بعد أن خلع على نفسه لقبا رنانا: «مرشد الثورة».

وفي يوم ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩، احتجز أربعمائة ناشط غاضبون جميع موظفي السفارة الأمريكية في طهران، تعبيرا عن اعترافهم بفضل الحكومة الأمريكية في المساهمة غير المباشرة في تحقيق مجد الإمام. كان عدد الرهائن ثلاثة وخمسين شخصا.

قرر «جيمي كارتر» حينها أن الوقت حان ربما لقطع العلاقات

---

(١) سرعان ما أدرك الرئيس «جيمي كارتر» أن وجوده في الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن مرغوبا فيه. وبعد أن تشرد بين المغرب والمكسيك والبهاماس وبنما، استقبله السادات، حيث توفي في القاهرة يوم ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٨٠. إذ يوجد قبره داخل مسجد الرفاعي، على مقربة من مثوى الأسرة الملكية المصرية.

الدبلوماسية مع إيران. وفي يوم ٧ أبريل/ نيسان، أطلق عملية «مخلب النسر» قصد تحرير أبناء وطنه. لكن الكارثة حلّت بها، بعد أن أوقعت بها زوبعة رملية لم تكن في الحسبان، حيث تعطلت ثلاث مروحيات من بين ثمانية. واصطدمت رابعة بطائرة النقل الجوي «هرقل سي ١٣٠»، فتحطمت، مخلفة ثمانية قتلى.[١]

وظل الخميني يهزأ بلحيته ضاحكا.

- يجب أن نقضي على هذا المخلوق! صرخ صدام.

جال بنظره على الضباط الجالسين حوله. أشعل سيجارا. ثم استأنف قائلا، بعد أن سحب نفَساً.

- من حقنا ذلك. والتقارير أمامنا.

أشار التكريتي إلى ملف ضخم منتصب وسط الطاولة.

- لقد ارتكبت القوات الإيرانية، بين ٢٣ فبراير/ شباط و٢٦ يوليو/ تموز، ما لا يقل عن مائتين وأربعة وأربعين خرقا للحدود واعتداء علينا، كانت موضوع مائتين وأربعين مذكرة احتجاج رسمية من بغداد إلى طهران. لقد بلغ السيل الزبى! فضلا عن ذلك، باتت استخباراتنا متأكدة من أن طوفان الثورة الخمينية أضحى وشيكا. إنها الحرب إذاً، وسنكرر نصر القادسية، إن شاء الله!

لاحظ فواز الوجوه المحيطة به، متسائلا عما إذا كانت إحدى الشخصيات الحاضرة قد سمعت بمعركة القادسية. يتعلق الأمر

---

(١) لم يفرج عن الرهائن إلا يوم ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨١، بعد اثني عشر دقيقة من أداء الرئيس الجديد رونالد اليمين. في المقابل، حصلت الحكومة على قرار يقضي بالإفراج عن الأموال الإيرانية، ووعد بعدم إجراء أي متابعة قضائية ضده.

بمعركة دارت رحاها سنة ٦٣٧، وسمحت للجيوش العربية التي قاتلت تحت راية الإسلام بطرد الساسانيين خارج بلاد الرافدين. لكن القادسية تعني، أكثر من هذا، النصر الحاسم الأول للعرب على الإيرانيين، أو بالأحرى على أجدادهم الفرس. ومن هنا تلميح الرئيس.

لقد تغير صدام، منذ أن تولى السلطة في يوليو/ تموز ١٩٧٩ بعد أن تخلص من الجنرال البكر- الذي استقال رسميا لأسباب صحية. إذ لبس الرجل المتنور فيما مضى لباس الموت الأسود. وسرعان ما تلت إحكام قبضته على الدولة عملية تطهير دامية شملت حتى رفاقه السياسيين القدامى. فاعتقد فواز أنه جزء من هذا القدر. لكن الأمر لم يكن كذلك، بل إن رجل تكريت ارتأى أنه من المفيد، لسبب لا يعلمه إلا الله، أن يعينه «مسؤولا عن الشؤون النفطية.» منصب خلقه متكاملا.

صحيح أن البلد كان يضم الاحتياط النفطي العالمي الثاني أو الثالث. وهي مرتبة مهمة تتطلب حذرا دائما، بل إن صدام أشرف شخصيا منذ ثمانية أعوام، على غرار عبد الناصر وهو يستعيد القناة، على تأميم شركة *النفط العراقية* ذات الملكية الأنجلوساكسونية. إذ أطلق على هذا الحدث اسم «يوم النصر»، وارتفع شعار «النفط للعرب» على أمواج راديو بغداد.

كان لابد من الاعتراف أن بنية البلاد تغيرت جذريا خلال السنوات الأخيرة، بفضل تدفق الذهب الأسود والسياسة الاستباقية. إذ صارت المدن المغبرة مدنا معاصرة، وتحولت المسالك الوعرة إلى طرق سيارة. وشكلت المطارات والكهربة وشبكات الهاتف والماء ومحطات التحلية والسدود وعصرنة الفلاحة إنجازات شتى تحسب للحكومة البعثية في عهد صدام.

كان أول رد فعل لفواز هو رفض هذا المنصب. لن يرتبط في كل الأحوال بهذا الشخص الذي لا يقدره. ولولا توسلات زوجته، لما قبل بذلك أبدا. ناشدته مجيدة قائلة: «يجب أن تقبل يا حبيبي! لا ترفض طلبا لرجل مثله. سيشنقك! وفي أحسن الحالات، سيسجنك. زد على ذلك، لا نملك الوسائل التي تخول لنا العيش في بلد آخر. أنت من أخبرني بذلك حينما ارتأيت العيش في المنفى. أرجوك أن تقبل. فكر في أولادنا!» فأذعن فواز.

تابع صدام:

- فضلا عن هذا، ستسمح لنا هذه الحرب باسترجاع حقنا في شط العرب،[1] ورفض اتفاق سنة ١٩٧٥. وستؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، هيمنة العرب على الخليج.

قطّب فواز حاجبيه. شط العرب؟ لقد مضى أكثر من قرن وإيران والعراق يدعيان سيادتهما على هذا المصب، حتى بات، مع مرور الزمن، ساحة معركة دنيئة. بالفعل، كان صدام يحب العودة إلى الماضي.

قال رجل تكريت مزايدا:

- ليس فقط شط العرب! ما إن يتحقق النصر، حتى نطالب باسترجاع الجزر الثلاثة في مضيق هرمز التي ضمّها الشاه سنة ١٩٧١. لقد طلبت استنفار جميع قواتنا. سنهجم فجر يوم ٢٢ سبتمبر/ أيلول. وفي غضون أسبوع، سنكون قد قضينا على الملالي.

سحب نفسا آخر من سيجاره، ثم صاح:

- القادسية!

---

(١) مصب خليجي تلتقي عنده أنهار دجلة والفرات وكارون. وهو يتحكم في شبكة من الطرق الطبيعية للمبادلات الاقتصادية.

بلا شك، لم يخطر ببال سيد بغداد أنه يستعد لإطلاق فتيل النزاع الأطول والأدمى منذ الحرب العالمية الثانية.

*

بيروت، ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠

غير بعيد عن فندق فينيسيا، طعم حسين رشاشه الكلاشنيكوف، ورمى مقاتل الكتائب الذي كان يمطرهم بالرصاص من أعلى بناية. حذا حذوه زيد المقرفص بجانبه. انتشرت في الهواء رائحة البارود، مشبعة بالنتانة المتصاعدة من الجثث.

كانت العاصمة اللبنانية، منذ يوم ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٧٥، تعيش تحت رحمة الحديد والنار.

وما يقلقني أيضا هو هاتان الطائفتان اللتان تنظران إلى بعضهما بحقد مؤرق؛ ذلك أن كلا من المسيحيين والمسلمين منقسمون إلى فرق ومذاهب. أخشى أن تولد الخلافات السياسية حروبا دينية يوما ما. سيتخذ النزاع حينها طابعا عاطفيا سيخرجه عن السيطرة.

كانت دنيا قد ماتت، حيث لم يعد أحد قادرا على أن يتذكر هواجس «لوفون».

كان يكفي أن يرمى عود ثقاب على هذا البارود حتى تنطلق المذبحة. وكان عود الثقاب، في هذه الحالة، هو اللاجئون الفلسطينيون الخمسمائة ألف الموجودين فوق التراب اللبناني.

لقد كرر الفلسطينيون الخطأ الذي ارتكبوه في الأردن، حيث اعتبروا لبنان أرضا بديلة. ففرضوا سيادتهم على مناطق بكاملها، وحولوا مخيماتهم إلى حصون، يراقبون الطرق في النهار والليل، ويخفون رغبتهم في إقامة سلطة ببيروت مناصرة لقضيتهم، بل وإنشاء دولة داخل الدولة.

ينضاف إلى هذا التعقد الذي تشتبك فيه الطوائف التسع عشرة المعروفة- خمس منها مسلمة وأربع عشرة مسيحية[1]- عامل حارق آخر لا يقلّ أهمية، هو خط التصدع الذي يقسم المجتمع اللبناني إلى مؤيدين لسورية ومعادين لها. بالفعل، لم تقبل دمشق أبدا استقلال لبنان، الذي ظلت تعتبره جزءا من إقليم الشرق القديم، والذي انتزعته فرنسا سنة ١٩٢٠.

فمنذ ما يزيد عن نصف قرن، مازالت أطياف لورنس العرب والسيدين «سايكس» و«بيكو» تستبد أروقة الشرق الأدنى والأوسط.

أخيرا، سكن قلب هذه العقدة المرعب عدو آخر: إسرائيل. لذلك، رأت الدولة العبرية في هذه الحرب الأهلية فرصة للتخلص من الخطر الفلسطيني المعسكِر على حدودها. وبمرارة قبِل «ميناحيم بيغان» هدنة ٢٤ يوليو/ تموز التي فرضها الأمريكيون، والتي أوقفت قوات التساحال عند الجنوب اللبناني. كان الوزير الأول يرى أن ينجز مهمة شبه مقدسة، وهي القضاء على المقاومة الفلسطينية، مرتاحا إلى ذلك اليقين الذي يعبر عنه «صقرا» حكومته: «أرييل شارون» وزير الدفاع و«إسحاق شامير» وزير الشؤون الخارجية. لكن «كسر» التنظيم الفلسطيني المسلح كان يستوجب الذهاب حتى بيروت. خطة لن تتأخر، بل تبقى مسألة وقت...

وسرعان ما اختارت كل طائفة وجماعة معكسرها، بينما كانت تنشأ التقسيمات داخل الميليشيات المسيحية نفسها. فمن جهة، كان أغلب المارونيين ينتمون إلى «الموالاة». ومن جهة ثانية، كان هناك أنصار اليسار التقدمي يقودهم الدرزي كمال جنبلاط، الذي تضامن

---

(١) يعود آخر إحصاء للطوائف اللبنانية إلى سنة ١٩٣٢، مما يجعل هذا التقسيم موضوع نقاش.

مع الفلسطينيين. اختيار مشؤوم، كلّفه ثلاث رصاصات قبل ثلاث سنوات، تنفيذا لأمر سوري على الأرجح.

وفي المنطقة اللبنانية المسيحية، انتهت السلطتان العسكرية والسياسة إلى الوحدة تحت مسمى «القوات اللبنانية» بالتدريج بعد مواجهات دامية خرجت منها الكتائب منتصرة. وتطلبت الخطوة الأولى للقوات اللبنانية، التي ترأسها الشاب بشير الجميّل- المنحدر من أسرة مارونية مشهورة-، الارتباط بالدولة العبرية. إذ رحبت الحكومة الإسرائيلية بمدّ قواته بالذخيرة العسكرية وإسداء النصائح إليها.

حشا حسين الحسيني سلاحه بالرصاص من جديد. كانت تسكن ملامحَه حماسةٌ تفوق أي تصور. فمنذ اختطاف طائرة البوينغ التابعة لشركة «بواك»، لم تتح له فرصة الذهاب إلى الحرب. أما اليوم، فهو يكاد يطير فرحا، لأنه لا يحارب هذه المرة الميليشيات المسيحية اللبنانية، بل عرّابيها من الصهاينة. سعادته مطلقة. يراوده شعور مرهف نحو ليلى خالد التي تقضي أياما هادئة لاجئةً في الأردن. فآخر الأخبار تفيد أنها تزوجت مرة ثانية من طبيب عراقي،[1] وأنجبت منه ولدين. وهو ما أغبط حسين وزيد: أليس بفضل اختطاف طائرة الرحلة رقم ٧٧٥ أجبر الإنجليز على إطلاق سراحها بعد شهر من اعتقالها؟ لقد انبطحت حكومة «إدوارد هيث» مثل سجادة، حيث مازال حسين يشعر بالابتهاج إلى اليوم.

---

(١) هو الدكتور فايز رشيد هيلا، الذي أنجبت منه بدر وبشار.

(٢٨)

التطرف هو شكل الإرادة الوحيد الذي يمكن أن ينفخ في نفوس الجبناء والضعفاء.

فريدريك نيتشه

مدينة النصر، ضاحية القاهرة، ٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨١

جلس هشام بين الضيوف في المنصة الرئاسية، على بعد صفوف خلف الرئيس. وجد مشقة في احتواء ملله من الانتظار. يا له من ضجر قاتل يخلقه الموكب العسكري! ألقى نظرة على عقارب ساعته: ١١:٤٥. تساءل عن جدوى هذه التظاهرة السخيفة. إذ لم تكن هذه الذكرى الثامنة التي تخلد انطلاق أكتوبر، في الواقع، سوى احتفال بشخص السادات، حيث أن جرد حصيلته خلال السنوات الأخيرة يكاد لا يكشف، للأسف، عن أي شيء يبعث على البهجة.

بالطبع، نجحت مصر، بمقتضى اتفاقيات كامب ديفيد،[١] في استرجاع سيناء والقناة؛ وفي المقابل، لم تتنازل إسرائيل عن أي

(١) وقعت يوم ١٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨. وهي تتكون من اتفاقيتين إطارين وقعهما مناحيم بيغن وأنور السادات في البيت الأبيض بعد ثلاثة عشرة يوما من المفاوضات السرية.

شيء فيما يتعلق بالمشكلات الأخرى البالغة الأهمية بالأحرى. إذ ردّ «مناحيم بيغن»، على ملتمسات أنور السادات و«جيمي كارتر» المتكررة، بلاءات ثلاث: لا لاستعادة القدس، ولا لإخلاء الضفة الغربية وغزة، ولا لقيام دولة فلسطين. لاءات غذت سخط العالم العربي- الحادّ في الأصل- الذي لم يفتأ يتصاعد تجاه الرئيس المصري. ذلك أن استرجاع سيناء كان افتراضيا فحسب، بسبب منع مصر من دخولها بأي كتيبة، أو حتى جندي، حيث ستبقى المنطقة خاضعة لمراقبة القبعات الزرق إلى الأبد. وفي نظر العرب، لم يسبق أن كانت الخيانة مستحقة بهذا القدر.

أما ما يشغل البال أكثر، فهو الاستياء الذي انتشر وسط الشعب المصري نفسه. إذ ما الذي أفرزه هذا السلام؟ لا شيء سوى أن حفنة من الأفراد تمكنوا من ملء جيوبهم في وقت قياسي، بينما يغرق الباقون في غبار البؤس.

اشتدّت المعارضة حتى وجد السادات نفسه، في غضون أيام، مجبرا على خنقها، حيث ضرب الجميع يمينا ويسارا، وخلع البابا شنودة الثالث، واعتقل الناصريين ومناضلات الحركة النسائية وأساتذة الجامعة والصحافيين وأزيد من ألف رجل دين ومسؤول سياسي، منهم الناطق الرسمي باسم حركة الإخوان المسلمين.

حدق هشام في الرئيس، بينما طائرات «فانتوم» أمريكية ترسم حركات بهلوانية في الجو.

جلس السادات في الصف الأمامي، محاطا برجال دين وعسكريين رفيعي المقام، منهم نائب الرئيس حسني مبارك. بدا الرجل رائق المزاج، حاملا وشاح العدل الذي ابتدعه.

في تلك اللحظة، انطلقت شاحنات مغطاة تستعرض وحداتها، في مشهد كلاسيكي رتيب، على غرار جميع المظاهرات العسكرية.

تنهد هشام، ثم نظر إلى ساعته مجددا. منتصف النهار. منع نفسه من التثاؤب، وحوّل انتباهه إلى الاستعراض.

انفصلت شاحنة عن الموكب.

أمر غريب، قال هشام في نفسه. ها هي تتحرك على بعد أمتار من المنصة الرئاسية. تتابعت بقية الأحداث بسرعة مجنونة.

قفز رجل بزي عسكري من الشاحنة. رمى قنبلتين على الجالسين، ثم دوى الانفجار. ظهر رجل ثانٍ، حاملا رشاشا. اتخذ وضعا مناسبا، وأطلق الرصاص على السادات. رصاصة أولى، ثم ثانية. صاح اللواء أحمد سرحان في الرئيس، آمرا إياه بالانبطاح. كان الأوان قد فات. تهاوى على مقعده. وسرعان ما ظهر عسكريان آخران، لم يعرف أحد من أين خرجا، ثم انخرطا في الهجوم بدورهما، يحميهما اثنان آخران، بينما يطلقان الرصاص على المتفرجين.

لم يستوعب هشام، الذي أصابه الرعب، ذلك المشهد الذي يجري أمام عينيه إلا بمشقة. عندما أصابته رصاصة، ظل واقفا بضع لحظات، مراقبا ومترنحا، غير مصدق منظر الزهرة الحمراء التي تنشر بتلاتها على صدره.

هل سأموت هنا؟ كانت فكرته الأخيرة.

في الأسفل، قرر الحرس الرئاسي أخيرا أن يصدوا الهجوم، ليصيبوا مهاجمين بجروح، لكنهم عجزوا عن إصابة ثالث استغرق الوقت الكافي ليفرغ شحنة بندقيته في جسد السادات. كانت الرصاصة الأولى قاتلة.

خلف الهجوم سبعة قتلى وثمانية وعشرين جريحا.

حطت المروحية التي نقلت الرئيس إلى مستشفى المعادي في

الساعة ١٢:٤٠. كان السادات غارقا في غيبوبة عميقة. وفي الساعة ١٤:٤٠، وقع واحد وعشرون طبيبا شهادة وفاته.

خلال المساء ذاته، عُلِم أن إماما يدعى عمر عبد الرحمان[١] كان قد أصدر فتوى تبيح اغتياله.

*

بغداد، ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨١

أغلق فواز سماعة الهاتف، وظل يحدق فاغرا فاه.

- إذا؟ ماذا أخبرك؟ سألت مجيدة بقلق.

- انتظري، يجب أن أجلس.

تهاوى على الأريكة الأقرب إليه. كان قلبه ينبض بقوة.

ما الذي دفع زوجته إلى إجباره على الاتصال بهذا الموثق بعد خمس عشرة سنة؟ كان ينبغي أن تعثر على هذه البرقية التي تعلن وفاة دنيا، وتنتهي هكذا: *اتصلوا عاجلا بـ«أوديون» ١٢-١٥- نقطة- «جيروم بيار».*

كان الله جبارا فعلا عندما منح النساء هذه الهبة التي تسمى الحدس.

- إذاً؟ أجبني! ألا ترى أنني أحترق؟

- كان هذا السيد مذهولا وهو ينصت إلي. وقد قلنا أقل ما يمكن أن يقال. ظن أن دنيا مدّته بعنوان خاطئ، وخاب أمله في

---

(١) كان واحدا من الجماعة الإرهابية التي ستخطط لأولى الهجمات، يوم ٢٦ فبراير/ شباط ١٩٩٣، ضد أحد برجي مركز التجارة العالمي (الأمريكي)، بواسطة سيارة مفخخة تحمل ٦٨٠ كليوغراما من المتفجرات. فشل الهجوم، لأن السيارة لم تركن قرب قاعدة البناية، لكن انفجارها خلف ستة قتلى ومئات الجرحى.

إيجادنا. خمسة عشر عاما، هل تتصورين هذه المدة؟ من حسن الحظ أنها كانت ماتزال على قيد الحياة، و...

- أعفني من التفاصيل، من فضلك...

حدق فواز في زوجته، ثم قال:

- عينتني دنيا وريثها الوحيد.

- ماذا؟

- لقد تركت لنا شقتها بشارع «بروطوي» ومبلغا من المال...

- نعم؟

- لا أذكر المبلغ بالضبط، لكنه يقارب مليوني فرنك.

أطلقت مجيدة صرخة فرح.

- إنها ثروة حقيقية!

- انتظري! أضاف الموثق أن هذا المبلغ، الذي ظل مجمدا في حساب ما طوال هذه السنين، ترتب عنه فوائد يبدو أنها مهمة.

- لقد نجونا، يا ربي! الحمد لله! لقد نجونا! بمقدورنا أخيرا أن نغادر هذا الجحيم، ونترك هذا المجنون الذي يحكمنا! شكرا، شكرا...

ارتمت على زوجها، وعانقته حتى كادت تخنقه.

الجحيم... قال فواز في نفسه. ليس الجحيم سوى شيء بسيط مقارنة بما يعيشه العراق منذ بداية هذه الحرب المخيفة التي كان ينبغي ألا تدوم أكثر من أسبوع، حسب توقعات صدام. القادسية! كان لحرب فيتنام أجل مناسب. وفي كل الأحوال، لم يتأخر الإيرانيون حتى ردّوا على القادسية بتعبير رمزي آخر هو: كربلاء.[1]

---

(١) إحدى المدن المقدسة لدى الشيعة. ففيها خاض الحسين بن علي، سبط =

خلال الأيام الأولى، ساد الاعتقاد أن التكريتي لم يكن مخدوعا، طالما أنه حصل على مباركة الولايات المتحدة الأمريكية وأغلب الحكومات الأوربية المنشغلة بصعود الإسلام السياسي. كما حصل على مباركة الاتحاد السوفياتي الذي غرق في المستنقع الأفغاني منذ ثلاث سنوات وواجه مقاومة شرسة تشجعها إيران. وأخيرا، حصل على موافقة غير مشروطة من الملكيات العربية الخليجية التي اعتبرت الإيرانيين أعداء تقليديين. وقد انضاف إلى جميع تجليات هذا التعاطف دعم إسرائيل- وإن كان في الظل. ذلك أن الخميني كان يمثل الشيطان في نظر الدولة العبرية. وفي آخر المطاف، وجد الجميع ضالتهم فيه، وفي مقدمتهم تجار الأسلحة.

أدرك فواز أن العراق أصبح، منذ دخوله هذه الحرب، أول مستورد للمواد العسكرية، حيث كان الاتحاد السوفياتي المزود الأول؛ وأيضا الألمان الذين كانوا يقدمون التكنولوجيا العسكرية التي تسمح بتوسيع نطاق صواريخ «سكود» البالستية حتى تتمكن من بلوغ طهران؛ وشركات إيطالية مصنعة للألغام الأرضية؛ وآخرون يوغوسلاف وبريطانيون؛ دون نسيان الشيلي؛ والولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تنقل إلى العراق، عبر إسرائيل، صواريخ مضادة للدبابات من نوع BGM-71 TOW؛[1] وإسرائيل نفسها التي كانت

= النبي وابن علي، الحرب سنة ٦٨٠ هـ دفاعا عن حقوقه في الخلافة. وقد لقي حتفه فيها، حيث قطعت رأسه ومثل بجسده. ويؤكد البعض أن رأسه مدفونة حاليا بمسجد سيدنا الحسين في القاهرة.

(١) صفقة ستمثل الأصل فيما سمي بـ«فضيحة العراق»، حيث استعملت إدارة «ريغان» الأموال التي جنتها من بيع الأسلحة في محاربة حركة الثورة المضادة في نيكاراغوا.

تزود العراق بأسلحة خفيفة متنوعة؛[١] وأخيرا، شركات فرنسية كانت تزود العراق بقذائف المدفعيات، وأشياء أخرى. إذ مثل مجموع المعاملات نحو ٣٠ مليار دولار. لكن ذلك لم يمنع الدولة العبرية- مستغلة الاضطراب المحيط بها- من شن هجوم جوي زوال يوم ١٧ يونيو/ حزيران ١٩٨٠ على المفاعل النووي العراقي الذي كان قيد الإنشاء في منطقة أوزيراك. وعندما عادت طائرات «إف ١٦ فالكون» أدراجها، لم يتبقّ من المفاعل سوى الرماد.[٢]

خلال الأسابيع الأولى التي تلت ذلك الهجوم، قال فواز في نفسه إن رجل تكريت كان في طريقه إلى كسب رهانه. ألم ير مدن قصر شيرين ومهران وخورمنشاه وعبادان تسقط الواحدة تلو الأخرى؟ وفي أواخر نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٠، حقق الجيش العراقي أهمّ أهدافه. لكنه لم يأخذ في الحسبان الملكةَ التي يمتلكها إمام قم في السمو فوق الحشود، ونزوعَ الطائفة الشيعية نحو الشهادة. إذ لم يكن الجيش هو من يقاتل خلف راية «مرشد الثورة»، وإنما مجانين الله، حيث لم يتردد في إرسال أطفال تقل أعمارهم عن ست عشرة سنة إلى أتون الحرب، وهم يصرخون «الله أكبر!» كان هؤلاء الشهداء الصغار ينحدرون من الأسر الأكثر فقرا في المجتمع الإيراني، حيث وعد آباؤهم بمعاشات مالية إذا سقط أبناؤهم في ساحات المعارك. وقد سقطوا.[٣]

---

(١) حسب التقديرات، حققت العقود الإسرائيلية مبالغ تراوحت بين ١٠٠ و٥٠٠ مليون دولار سنويا. شارل هندرلان، Le Grand Aveuglement (العمى الكبير)، ألبان ميشيل، ٢٠٠٩، ص. ٩.

(٢) قبل أسابيع من ذلك، التزم «فرنسوا ميتيران»، وكان حينها رئيس الجمهورية، أمام شمعون بيريز بألا يمد العراقيين باليورانيوم المخصب.

(٣) لقي مائة ألف من هؤلاء الأطفال حتفهم خلال عمر هذا النزاع الذي دام ثمانية أعوام.

أما اليوم، وبعد انطلاق الأعمال العدائية، فظلت لعبة لي الذراع بين الجيشين متواصلة.

همس فواز:

- سنرحل. لا تردد بعد الآن. سأساعدك على حزم الحقائب.

*

القاهرة، ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨١

كانت الغرفة بيضاء، والستائر أيضا.

غلّف الغرفةَ صمتٌ ثقيلٌ، بالكاد تكسره الإشارات الصوتية المنتظمة المنبعثة من جهاز رصد نبضات القلب.

في سن الثالثة والخمسين، لم تفقد شهيدة شيئا من بريقها، لكن نور ملامحها بدا منطفئا، في تلك اللحظة بالذات، ونحتت الهالات سوادها في نظرتها.

ها قد مضت عشرون دقيقة، وهي مستغرقة في تأمل المنحنى الأخضر، وسط رقصات شاشة المراقبة السوداء، مذكرا أن المريض مازال على قيد الحياة.

حولت نظرها إلى وجه هشام المتعب. لاحظت انقباضه. هبّت حينها إلى الجرس. بعد بضع دقائق، ظهرت ممرضة.

- إنه يعاني، أعلنت شهيدة. افعلي شيئا ما.

- إنه تحت تأثير المورفين، يا سيدتي. وأي زيادة في جرعته ستصبح خطيرة.

- لا يهمني ذلك. أقول لك إنه يعاني!

- سيدتي...

- اتصلي بطبيب!

غادرت الممرضة الغرفة على مضض.

- هل تسمعني يا روحي؟
حرك هشام شفتيه، راسما ما يشبه ابتسامة.
- أجل، أسمعك وأراك.
- سيصل طبيب بعد حين. سيعطيك دواء مهدئا.
- لم تكوني مهذبة تجاه الممرضة...
ابتسمت.
- لا نتغير في سن الخمسين. كان عليك أن تعرف ذلك منذ زمن، أليس كذلك؟ لكنني أحرزت بعض التقدم. أؤكد لك ذلك. لن أصفك بعد الآن بالمعتوه أو الفاسق، ولن أتركك وحيدا.
أراد أن يجيب، لكن جسده انقبض بسبب الألم.
وقفت شهيدة، تتهيأ للتوجه نحو الباب، لكن يد هشام تعلقت بأذيال فستانها. ثم نهج قائلا:
- لا... ابقي.
عادت إلى الجلوس.
- لا تقلقي... لقد هدأ الألم.
راقبها لحظة.
- مازلت لا أصدق أنك هنا. يا لها من أعجوبة!
- لقد أخبرتك أنني كنت أشاهد الاستعراض على التلفزيون. وفي لحظة معينة، مسحت الكاميرا المنصة الرئاسية. شاهدتك وتعرفت عليك على الفور. ثم... كانت طلقات الرصاص.
- كنت أتمنى أن أسلم من الهجوم.
- أجل، أعرف ذلك. لكن شيئا ما أخبرني بالعكس. الحاسة السادسة، أو ربما هو الحب إذاً.
- إذا، ظللت تحبينني طوال هذا الوقت؟
- لا أعرف. بشكل مبهم ربما، ودون علمي.

سألته:

- وأنت؟

تمكن من الابتسام.

- بشكل مبهم، من غير شك، ومن دون علمي.

انفتح الباب. دخل الغرفةَ طبيبٌ.

- هل أنت بخير، يا سيد لطفي؟

- ليس الأمر فظيعا.

- هل مازالت الآلام تنتابك؟

أشار بالإيجاب.

ألقى الطبيب نظرة على الجهاز، ثم خاطب شهيدة:

- يسجل المورفين خمس درجات كل ساعتين. لكن يمكننا أن نرفع جرعته.

انحنى على المضخة المعلقة إلى ذراع هشام، ثم غيّر صبيبها.

- يجب أن تستريح، يا سيد لطفي. لقد رجعت من بعيد، بعد أن أصابتك رصاصة من هذا العيار وسط الرئة. لقد حالفك الحظ.

- عندي حارس ملاك.

أشار إلى شهيدة برأسه.

- وفي الحاضر، عندي حارسان.

- لا تتردد في قرع الجرس إذا شعرت بالألم. سنرفع الجرعة أكثر.

أشار الطبيب إشارة ودية، ثم انسحب.

- أكره الأطباء والمستشفيات، دمدمت شهيدة.

- تتكلمين مثل أبي. هو الآخر لم يكن يحبهم كثيرا. لا شك أنه لم يعد يشعر بالوحدة هناك في السماء، منذ أن التحقت به والدتي.

أضاف في غمرة ذلك:

- يا لها من حكاية مسلّية، نحن الاثنان...

- جميلة على كل حال، ألا تظن ذلك؟

- بلا أدنى شك.

- هل تعتقد أنني غضبت.

- نغضب جميعا عندما ننصهر في الحب كثيرا.

- إذاً، ما الحل؟ أن نعيش في جفاء؟ بلا مشاعر؟

- حبذا لو كنت أعرف الجواب...

قال لها كأن الفكرة خطرت على باله للتو:

- خدعتني كثيرا.

- خدعتك؟ لقد انفصلنا، حسبما أعرف.

- حسنا. أصحح... هل عشت مغامرات كثيرة؟ لا أتصور أنك كنت تعيشين خارج نطاق الحب.

- لأنك لا تعرفني جيدا.

سرعان ما اعترفت وهي تبتسم:

- لم أصادف سوى المتسكعين.

- ذلك أفضل.

- وأنت؟

- الزهد المطلق.

- لا أصدقك.

- لأنك لا تعرفينني جيدا.

غيّر الموضوع قائلا:

- أهنئك ببصيرتك... لقد شقّ صديقك الأسد مسارا جيدا.

أجابت شهيدة بدون حماسة.

- أجل، إلى حدّ ما. لكن لم أعد أحب الطغاة كما الأطباء. ما

يكاد رجالِ السياسة يتولون السلطة حتى يجنّوا. في كل الأحوال، لقد ندبت حظ السياسة.

هزّ رأسه فجأة. بدا منهكا.

- كلّنا مجانين إلى هذا الحد أو ذاك. نحن...

رفع يده إلى صدره.

صرخت شهيدة:

- هشام؟

فتح فمه كي يجيب، لكنه لم ينبس ببنت شفة. انقبض وجهه ثانية بسبب الألم. اختنق تنفسه.

ضغطت الجرس، ثم اندفعت نحو الباب.

- بسرعة! النجدة أيها الطبيب!

عادت إلى السرير. تناولت يد هشام، وضمتها إلى صدرها.

- أنا هنا، يا حبيبي. تنفس بهدوء. تنفس...

لم يتحرك. هل سمعها؟

حرّك شفتيه، ساعيا إلى قول شيء ما. حينها قرّبت أذنها من وجهه.

همس بصوت أجشّ، يكاد يكون غير مفهوم:

- مازلت... أحبك.

انكمشت أصابعه.

اختلت وتيرة الإشارات الصوتية المنبعثة من جهاز رصد نبضات القلب، حتى صارت مضطربة. تلا ذلك سلسلة رنّات ضعيفة، ثم ران الصمت، وظهر على الشاشة خط أفقي، مستقيم على نحو مخيب للآمال.

(٢٩)

في الجريمة، تكفي مرة واحدة حتى نبدأ؛
إذ تستدعي زلّةٌ زلّةً أخرى على الدوام.

نيكولا بوالو، *Satires*، الكتاب العاشر

بيروت، ١٥ سبتمبر/ *أيلول* ١٩٨٢

منذ يوم ٦ يونيو/ حزيران ١٩٨٢، اجتاز ستون ألف جندي إسرائيلي الحدود اللبنانية.

لقد خطط الجنرال «أرييل شارون»، وزير الدفاع، لعملية «السلام من أجل الجليل»، التي طالما حلم بها «مناحيم بيغن». كما قادها في الميدان. كان الحافز الرسمي المعلن هو تحييد مدفعية منظمة التحرير الفلسطينية، التي كانت تدك الخطوط شمال إسرائيل في هجمات متفرقة. كان الأمر يتعلق، على الأرجح، باحتلال فعلي للبنان. إذ اكتسح «التساحال» الجيشَ الوطني خلال بعضة أيام، حيث دمر منصات الصواريخ السوفياتية التي نصبها السوريون شرق البلاد.

وفي فاتح أغسطس/ آب، تم الهجوم على العاصمة، بدعم الطائرات والدبابات. إذ كانت غاية شارون الحقيقية تكمن في إزاحة منظمة التحرير الفلسطينية من المخيمات الفلسطينية التي أقيمت في

الجانب الإسلامي غرب بيروت. انتقلت المنظمة ومقاتلوها الخمسة عشر ألفا إلى منفى جديد، هروبا من الخطر الذي يهددهم بالمحو. ففي فاتح سبتمبر/ أيلول، انسحب قادتها، وفي مقدمتهم ياسر عرفات، إلى تونس.

خلال اليوم نفسه، أصدر «رونالد ريغان» مخطط السلام الذي بلوره البيت الأبيض. وقد جاء فيه: «إن إجلاء الفلسطينيين عن بيروت يُجعل غياب المأوى الذي يعاني منه هذا الشعب مشهدا مأساويا [. . .] إذ يعترف اتفاق كامب ديفيد بهذا الواقع، وهو يستحضر الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطلبه العادل. ولن تؤيد الولايات المتحدة ضم أراضٍ إضافية قصد بناء مستوطنات جديدة خلال المرحلة الانتقالية من الاستقلال الفلسطيني. ومن شأن تبني تجميد المستوطنات بشكل مباشر أن يعيد الثقة لتوسيع مجال المفاوضات. ولا تعد أي مستوطنات جديدة في أي حالة ضرورية لأمن إسرائيل، ولن تؤدي إلا إلى تقليص ثقة العرب أثناء المفاوضات [. . .] ولن يؤمّن السلام عبر تشكيل دولة فلسطينية مستقلة، ولا بفرض سيادة إسرائيل أو مراقبتها الدائمة للضفة الغربية وغزة. أما النتيجة النهائية، فيجب أن تحددها المفاوضات.»

لسعت نوبة غضب «مناحيم بيغن»، عندما علم بمضمون هذا النص، حيث ردّ على الرئيس الأمريكي قائلا: «ليست الضفة الغربية، كما يسميها البعض، سوى يهودا والسامرة، وهذه الحقيقة التاريخية ثابتة. . .» وأكد أنه لم يكن يقصد مطلقا التنازل عما يمثل، في نظره، أرض إسرائيل. ولا مجال لوقف بناء مستوطنات جديدة.

في يوم ٢٣ أغسطس/ آب ١٩٨٢، أوصل البرلمان اللبناني بشير الجميّل، رئيس حزب الكتائب، إلى رئاسة الجمهورية. ولم

يكن أمام هذا الأخير من حلّ سوى الاعتراف بانتصار إسرائيل والقبول باتفاق جعل المسيحيين اللبنانيين في حماية الدولة العبرية- وقد فضحته سورية. تصور البعض حينها أن سبع سنوات من الحرب الأهلية والرعب ستنتهي. حدث هذا قبل أن تظهر حركة جديدة، وهي حزب الله الذي نشأ إبان شهر يونيو بالضبط ردًّا على احتلال لبنان. وكان أحد مؤسسيه حسن نصر الله، الذي بلغ بالكاد سنته الثانية والعشرين.

وفي يوم ١٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢، أي بعد ثلاثة أسابيع، اغتيل الرئيس الجميّل على يد عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي، دون أن يتاح له وقت أداء اليمين. وسرعان ما زعزعت وفاته توازن القوى. إذ قرر القادة الإسرائيليون، نتيجة تخوفهم من انفلات الوضع من أيديهم، خرق وقف إطلاق النار، حيث اندفع «التساحال» في جنوب بيروت، منتهكا في الآن ذاته جميع التزامات المبعوث الأمريكي فيليب حبيب أمام منظمة التحرير الفلسطينية.

بالفعل، فقد انتزع ممثل «رونالد ريغان» من الوزير الأول الإسرائيلي التزامه بعدم دخول جنوده جنوب بيروت، والتوقف عن الهجوم على فلسطينيي المخيمات، مقابل رحيل عرفات ومقاتليه الخمسة عشرة ألفا. كما انتزع من الرئيس اللبناني بشير الجميّل التزاما بعدم تحرك الكتائب، على أن يتعهد البنتاغون، أخيرا، بأن يضمن الـ«مارينز» هذه الالتزامات. وأمام هذه الوعود القوية، التزم السيد حبيب كتابة بتأمين المدنيين.

لكن بقي كل شيء حبرا على ورق.

*

بيروت، ١٦ سبتمبر/ أيلول، ١٧:٥٥ ، مخيم صابرا وشاتيلا

أشعل حسين سيجارة مارلبورو، وقدّمها لزيد.

- خذ. لم يبق لديك شيء.

- لنتقاسمها. غدا، سأتسلل من أجل شرائها.

- أنت مريض!

أشار بأصبعه نحو مخرج المخيم.

- سيستمتع الإسرائيليون بقتلك.

- ما الفرق بين الموت هنا أو هناك، طالما سنموت عاجلا أو آجلا؟

- كفّ، يا زيد! أتريدنا أن نكتئب أم ماذا؟

- لا، على الإطلاق!

قال ساخرا:

- انظر إلى الدرك الذي نزلنا إليه! فمن جهة، هناك الكتائب؛ ومن الجهة الثانية، هناك دبابات الصهاينة! ما السبيل إلى الدفاع عن أنفسنا؟

رفع رشاشه الكلاشنيكوف.

- مع هذه! أجل، إني أكتئب!

- كفى مزاحا! قل لي بالأحرى... ألا ترى أن عدم محاولة الجنود الإسرائيليين محاصرة المخيم أمرا غريبا؟

- لم سيفعلون ذلك؟ إنهم ينتظرون أن نموت جوعا. ستمتد العملية أياما طويلة، لكنها لن تودي بحياة أي واحد منهم.

- أرى الأمر غريبا مع ذلك. إنهم هنا، على بعد أمتار، لكنهم لا يتحركون. الأمر غريب فعلا.

لم يكن حسين يتصور أن «التساحال» أحجم عن اقتحام

المخيمات الفلسطينية، عقب لقاء بين الجميّل وشارون، جرى في سرّية تامة قبل أيام، عُهد بموجبه بهذه المهمة للقوات اللبنانية وميليشيات الكتائب.[1]

*

ظهر «إيلي حبيقة»، رئيس الميليشيات، فوق سطح مقر القيادة الإسرائيلية. حيّاه الجنرال «عاموس يارون». قال مستعلما:

- هل أنتم مستعدون؟

- حتما.

- كم عددكم؟

- خمسمائة. هل حصلتم على الضوء الأخضر من «شارون»؟

تأكد حبيقة.

- بالطبع.

- هل عاد إلى إسرائيل؟

- أجل، وكذلك الجنرال «إيتان». أذكرك أنه لا ينبغي ارتكاب أي خطأ في حق المدنيين. مهمتكم هو تحييد الرجال المسلحين فقط. إنه شرط أساسي. هل الأمر واضح؟

- تماما.

- أحتاج إلى وعدك!

- أعدك. ردّ رئيس الكتائب بمرح.

ثم استأنف:

---

(١) يتفق المؤرخون والصحافيون على قبول فكرة مفادها أن الاتفاق، الذي تم عقب لقاء جرى بين الرجلين في بلدة بكفيا يوم ١٢ سبتمبر/ أيلول، سمح للقوات اللبنانية بـ«تنظيف» هذه المخيمات الفلسطينية.

- نطلب منكم أن تطلقوا القذائف المضيئة حتى تيسروا تقدمنا داخل المخيم.
- هذا منتظر.
- سأحتاج كذلك إلى استعمال هاتفكم بغية نقل أوامري.
- إنه لك. انطلق! حظ موفق!

*

الساعة السادسة وخمس دقائق

اعتقد حسين وزيد في البداية أن الرصاص آتٍ من خارج المخيم. لكنهما سرعان ما أدركا أنهما مخطئان. ذلك أن وابل الرصاص كان ينهال عليهما على بعد أمتار من خيمتهما. انقضّا على سلاحيهما، واندفعا إلى الخارج.

- الإسرائيليون يهجمون! صرخت امرأة.
- أين هم الإسرائيليون يا ترى؟ دمدم حسين.

فجأة، رأيا ميليشيات في طرف الزقاق.

- إنهم الكتائب! لننصرف، بسرعة! صرخ زيد.

عادا بمنتهى السرعة إلى خيمتهما. اعتصما داخلها، عازمين على خوض المعركة. تأخرا كثيرا. كان عشر من الكتائب قد اتخذوا مواقعهم، مدججين برشاشات خفيفة. وفي غضون ثوانٍ، انهال وابل من الرصاص على الرجلين. لم يكن أمامهما حتى الوقت الكافي لاستعمال سلاحيهما. قتل زيد. تهاوى جسده على صديقه، الذي لم يعد يقوى على الرؤية، ولا الكلام. وجهه أصبح مثل كرة هلامية دميمة.

هناك، من فوق سطح مقر القيادة، كان الجنرال «يارون» يعاين طلقات الفلسطينيين، التي كانت موجهة في الأصل وحتى تلك

اللحظة، ضد القوات الإسرائيلية، وهي تستهدف المقاتلين المسيحيين الذين بدؤوا يتقدمون داخل مخيم صبرا وشاتيلا. ولا شيء أكثر من ذلك. من هناك حيث كان يقف، استحال عليه، حتى باستعمال المنظار، أن يتبين المذبحة التي كانت تجري داخل المخيم.

لم يكن يرى أكوام الجثث التي بدأت تغطي الأزقة المغبرة.

لم يكن يرى، داخل المخيم، النساء والأطفال الذين اضطروا لتخطي الأموات حتى ينفدوا بجلدهم.

لا النساء المبقورات.

ولا ذلك الفتى الذي شوهته ضربات العصيّ.

ولا تلك الفتيات بأيديهن المربوطة.

ولا بقايا صبي محقه جنزير دبابة.

حتى الذين نجحوا في الفرار إلى المستشفى ألقي عليهم القبض. وكيف يميّز مدني عن مقاتل؟ أمر مقاتل كتائبي الرجال أن يزحفوا. ولم يكن الذين أتقنوا الزحف سوى مقاتلين، حيث قتلوا على الفور.

وفي الفجر، اندفعت موجة جديدة من الكتائب داخل المخيم عبر مداخله الجنوبية والشرقية. في هذه المرة، كان الرجال مجهزين بسيارات الجيب والشاحنات والجرافات. تواصل الهدم والتخريب. تسللت وحدة يقودها «إيلي حبيقة» بنفسه عبر أسلاك الأزقة، وانطلق في مطاردة فعلية. كان يطلق الرصاص من مكان قريب على كل شيء حيّ. قطع رجاله ثديي امرأة، قبل أن يقضوا عليها بطعنات سكين.

وشاهد مصور تلفزيون دنمركي مرور شاحنات مصفحة تحمل مدنيين إلى وجهة مجهولة، من بينهم العديد من الأطفال.

اتصل الجنرال «عاموس يارون» حينها من مقره بالجنرال «أمير دروري».

- أمير، تروج شائعات عن حدوث أفعال شنيعة. ما العمل؟

- اتصل فورا بـ«جيسي»، ضابط الكتائب المكلف بالعلاقات، واطلب منه توضيحات.

نفذ «يارون».

أجاب المدعو «جيسي» قائلا: «يبدو أن بعض قادتنا فقدوا السيطرة على رجالهم.»

علّق «يارون» سماعة الهاتف.

عندما طلب في الأخير من حبيقة[1] سحب رجاله، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحا.

أسفرت المجزرة عن أكثر من ألف ضحية.[2]

وما إن صارت الوقائع معروفة، حتى تعاظمت مشاعر الاستنكار في العالم، وفي إسرائيل. فرغم أن «مناحيم بيغن» استنكر «المؤامرة الدموية ضد الدولة العبرية وحكومتها» ورفض أي لجنة تحقيق، إلا أن أربعمائة شخص تظاهروا في الاتجاه المعاكس يوم ٢٥ سبتمبر/ أيلول. فحققوا بغيتهم، حيث أنشئت اللجنة يوم ٢٨ وكلفت ببسط حقائق الأحداث.

---

(١) اغتيل إيلي حبيقة يوم ٢٤ يناير ٢٠٠٢ في هجوم بسيارة مفخخة على بعد أمتار من بيته. وبحسب بعض المصادر، كان المنفذ عميلا سوريا. وكانت وفاته موجهة من طرف دمشق، لأنه أصبح «مزعجا جدا.» أما اللبنانيون والفلسطينيون، فيحملون المسؤولية عن هذا الاغتيال لمصالح المخابرات الإسرائيلية. إذ يرون أن إيلي حبيقة كان يستعد للإدلاء بشهادته في محكمة بلجيكية في إطار التحقيق حول هذه المجزرة.

(٢) ثمانمائة قتيل، حسب لجنة التحقيق الإسرائيلية التي ترأسها القاضي «كاهان»؛ وألف وخمسمائة قتيل حسب منظمة التحرير الفلسطينية.

كشفت نتائج التحقيق اللثام عن جزء من مجرى العمليات، وأبانت «درجة من مسؤولية» مناحيم بيغن. وفي المقابل، اقترحت تنحية وزير الدفاع «أرييل شارون»، حيث ألقت على عاتقه «مسؤولية عدم إصدار الأمر باتخاذ إجراءات كافية للحيلولة دون وقوع مجازر محتملة»، واتهمت العديد من المسؤولين العسكريين، من بينهم «رفاييل إيتان»، رئيس الأركان العامة.

في القدس، بكت جمانة عندما علمت بالخبر، وقررت أن تلبس ثوب الحداد. أما «أفرام»، فلم يبدِ سوى ملاحظة وحيدة. كانت مريرة:

- نلام على أننا جلادو هذا الشعب، لكن أيدي العرب اليوم ملطخة أكثر منا بدماء الفلسطينيين أكثر مما قد تكون أيدي إسرائيل إلى الأبد...

القسم السادس

(٣٠)

حتى الجحيم لها قوانينها.

يوهان فولفغانغ فون غوته

في مكان ما من البحر الأبيض المتوسط،
٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٥، ١٣:٠٥

ابتعدت السفينة عن الساحل المصري، وبدأت تمخر عباب الحبر نحو ميناء أشدود الإسرائيلي، محطتها الأخيرة، قبل العودة إلى جنوة. كانت السفينة، التي انطلقت من نابولي نحو الإسكندرية، بلا تاريخ، ولا زمن.. كانت سامية. ولا أحد كان يشك أن الركاب الخمسمائة، وأغلبهم إيطاليون ومتقاعدون، سيحتفظون بذكرى رائعة.

كان «سيمور» و«فيولا» قد انتهيا من تناول غذائهما، عندما انطلقت الرصاصات الأولى. لم يكفهما الوقت، ليتساءلا عن مصدرها، حيث ظهر ثلاثة شباب مسلحين داخل قاعة الأكل. كانوا كثيفي الشعر، توحي ملامحهم بحماس بالغ. شرعوا يطلقون الرصاص فوق رؤوس المسافرين، وهو يصرخون بأوامر مشوشة تمتزج فيها العربية والإنجليزية.

ندّت عن «فيولا» صرخة ذعر.

أمسك زوجها بذراعها وأجبرها على الانحناء.

حاولت «صوفيا كوباكي»، بعد أن هالها الذعر، الفرار عبر بوابة تنفتح على ظهر السفينة، لكن رجلا رابعا أوقفها على الفور ودفعها بقوة إلى الوراء. حاولت امرأة أخرى، هي النمساوية «آنا هورانتر»، الفرار بدورها، لكنها لقيت المصير نفسه.

- لا تتحركي! انبطحي! صرخ أحد الإرهابيين.

أذعن الركاب، فتسمروا في أمكنتهم.

في اللحظة ذاتها، وفي مقدمة السفينة، برز ملاح، ذو وجه متحلل، في قمرة القيادة حيث يوجد القبطان «جيراردو دا روزا».

- إرهابيون! في قاعة الأكل! لقد احتجزوا المسافرين رهائن. وهم أربعة! ويهددون بقتل الجميع.

بعد بضع ثوانٍ من الذهول، اندفع «دا روزا» خارجا.

ما كاد يتخطى عتبة قاعة الأكل، حتى وجد نفسه أمام فوهة مسدس مصوبة نحو جبهته. أمره مهدِّدُه بأن يصطحبه إلى قمرة القيادة فورا.

ما إن وصلا، حتى عوى في وجهه:

- اتجاه طرطوس!

- إنه ميناء سوري، قال القبطان.

- طرطوس!

نقل «جيراردو دا روزا» التعليمات.

انحرفت سفينة «أخيل لورو» نحو الشمال الشرقي.

- هل يمكنني أن أعرف من أنتم وماذا تريدون؟

- ننتمي إلى ج. ت. ف.!

- ج. ت. ف. . .؟

لو لم يكن «دا روزا» على بيّنة بالعدد الهائل من المنظمات الإرهابية المنتشرة باطّراد، لما عرف أن هذه الحروف الثلاثة تمثل

جبهة التحرير الفلسطينية، تلك الحركة شبه العسكرية التي أسسها قبل ثلاثين عاما مناضل اسمه أحمد جبريل بمساعدة فلسطيني آخر يدعى أبو عباس.[1]

- ما هي مطالبكم؟

- أن تحرر إسرائيل خمسين من إخوتنا المعتقلين في سجونها!

- أنتم على علم، كما أتصور، بأن ركّابي هم...

- اخرس!

لم ينبس القبطان ببنت شفة.

ليحفظنا الرب، قال في قرارة نفسه.

كاد يرسم إشارة الصليب، لكنه امتنع في آخر لحظة.

راوده سؤال لم يتجرأ في الواقع على طرحه: كم من إرهابي بالضبط يوجد على متن السفينة؟ هم أكثر من أربعة بالتأكيد، وإلا فلن يجرؤوا أبدا على المجازفة بالهجوم على أربعمائة وخمسين راكبا ومائتين من أعضاء الطاقم. أين الآخرون إذاً؟[2]

بعد ست ساعات، تراءت السفينة أمام ساحل طرطوس. اتصل الفلسطيني على الفور بالسلطات السورية، حيث وصف لهم الوضع، ثم طلب استقبال السفينة.

- الإذن مرفوض! ردّ عليه عسكري بجفاء.

- يجب أن تستقبلونا! نحن عرب ثوار!

- الإذن مرفوض!

- سنقتل الرهائن!

---

(١) اسمه الحقيقي محمد زيدان.

(٢) لم يكونوا في الواقع سوى أربعة.

- غادروا المياه السورية فورا، وإلا ستتدخل البحرية!

التحق بيوسف الملكي، وهو اسم الإرهابي، أحد رفاقه بسام العسكر.

- لقد رفضوا! قال وشفتاه ترتجفان.

تناول الثاني السماعة، وكرر تهديد رفيقه:

- إننا لن نتردد في قتلهم جميعا، إذا لم تقبلوا!

تردد صوت مخاطبه عبر المكبّر مقتضبا وحاسما:

- عودوا أدراجكم فورا!

تبادل الفلسطينيان نظرة ذاهلة.

- ما العمل؟ سأل الملكي.

فكّر الثاني بضع ثوان.

- لا يأخذوننا على محمل الجدّ. حسنا، سنثبت لهم أنهم مخطئون!

عاد إلى قاعة الأكل، وطلب من رفيقيه الآخرين:

- تحققا من الهويات! اعثرا على يهودي!

سرت قشعريرة الرعب في وجوه المسافرين. وبعد بضع دقائق، مزق صوت الهدوء:

- عندي واحد!

لوّح الرجل بجواز سفر، ثم قرأ:

- «ليون كلينغهوفر»! هذا اسم يهودي!

كان يهوديا بالفعل، أمريكيا يبلغ من العمر تسعة وستين عاما.

همست «صوفيا كوباكي» في أذن جارتها، وهي توشك أن تفقد وعيها.

- غير ممكن، ليس هو...

كان «ليون كلينغهوفر» يجلس على كرسي متحرك.

أشار بسام العسكر إلى أحد رفاقه:

- تعال! ساعدني!

- غير ممكن، تمتمت «صوفيا».

أمام أنظار المسافرين المرعوبة، دفع الفلسطينيان الكرسي خارج القاعة. وضعا «كلينغهوفر» في مقدمة السفينة، في موقع يسمح لسلطات الميناء برؤيته بوضوح.

صوّب الملكي سلاحه، الذي لم يتركه لحظة، نحو رقبة «كلينغهوفر».

حينها، رفع هذا الأخير بصره إلى السماء، ثم قرأ: «شيماع يسرائيل: أدوناي إيلوهينو أدوناي إحاد» (اسمعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ).

انفجرت الرصاصة، فحلّق سرب نوارس. انبجست دماؤه، ولطخت سروال الإرهابي. دمدم ونضّد سلاحه، ثم ألقى نظرة حوله.

- سنتخلص منه!

رفع الرجلان الجثة، وألقيا بها أسفل السفينة.

- وكرسيّه أيضا! سيحتاج إليه في جهنم حتما! أضاف الفلسطيني.

*

في مكان ما بأفغانستان، ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٦

رفع فاضل لطفي ياقة معطفه، وتفحص البيت.

كان بيتا طينيا متواضعا، لا يزينه شيء سوى أبعاده. كان يضم، في الواقع، طابقين مقابل واحد في أغلب البيوت الأخرى. لكنه كان بعيدا كل البعد عن البيوت الفيكتورية الفاخرة، التي تقع في مكان بعيد جدا عن فندقه الخاص حيث يقيم منذ ثلاثين سنة بحي بلغرافيا،

أي منذ أن تزوج «ليلى طرابازيان»، شقيقة «الليدي فوستر ويستغايت» المحبوبة، وخاصة منذ أن قرر الهروب من مصر، مثل طفل خجول، واللجوء إلى المنفى بإنجلترا، تاركا عائلته.

قلبه منقبض. لقد مات أهله جميعا، والده تيمور، ووالدته نور، وشقيقه هشام الذي قتل ببلادة مؤخرا بواسطة رصاصة طائشة.

استدار نحو رفيقه الشاب ذي الوجه المدبوغ.

- هنا؟

أشار الشاب بالإيجاب، ثم طرق الباب.

انفتحت كوّة في الباب، وأطلّت منها عين.

- سيد، قال الشاب.

أحدث الباب صريرا. قاد مسلحٌ الزائرَ نحو القاعة المركزية الكبرى حيث يقرفص خمسة رجال فوق سجادتين سميكتين، ويشربون الشاي الأسود. يموج عطر قوي من الخشب الفواح في القاعة الدافئة بفعل المباخر. شعر فاضل، الرافل في سترته ذات القطع الثلاثة والخارج مباشرة من عند خياطه «سافيل راو»، بنفسه سخيفا أمام هذه الجماعة التي ترتدي السروال والقميص والعمامة، وينتعلون صنادل بالية.

- مرحبا، يا أخي، تعال، اقترب، قال صوت.

تعرف فاضل فورا على مضيفه: أيمن الظواهري، الطبيب المصري الذي التحق، قبل بضع سنوات، بالجهاد الإسلامي المصري، وهي جماعة متطرفة استمدت أفكارها من تلك الحركة الشهيرة التي ولدت في القاهرة خلال الستينات تحت اسم *التكفير والهجرة*.

وقف أيمن ليعانق فاضل، ثم أمسك بيده وقاده نحو شخص في الثلاثينيات من العمر، يغطي رأسه بعمامة بيضاء، ويلتحف معطفا بنّيا

داكنا. إلى جانبه، وضع بندقية رشاشة. كان ذا وجه طويل ينمّ عن بال مشغول.

- أقدّم لك السيد أسامة.

انحنى فاضل باحترام.

لم يكن يعرف سوى أشياء قليلة عن «السيّد»، مثل مولده في الرياض بالعربية السعودية. كان يعلم أنه واحد من إحدى أغنى العائلات في هذا البلد حيث شيّد والده إمبراطورية خاصة بالأشغال العمومية: *مجموعة بن لادن للبناء*. تابع دراساته في الهندسة، لكنه ترك كل شيء، غداة غزو السوفياتيين أفغانستان فجأة، على منوال آلاف المسلمين، بغية الالتحاق بالمقاومة الأفغانية.

- اجلس، اقترح السيّد. لقد حدثني أخونا أيمن عنك طويلا. جئت من لندن، أليس كذلك؟

ردّ فاضل لطفي بالإيجاب.

- إنها مدينة رائعة. كانت إقامتي فيها قصيرة. أجل، رائعة. لكن الزمن فيها كئيب.

وأضاف:

- مثل سكانها.

استأنف كلامه، وهو يمدّ يده إلى الرجل الجالس جنبه:

- أقدّم لك رفيقنا عبد الله عزام. من فلسطين. إنه أستاذي. أدين له بكل ما أعرف. وهو على علم بما أفكر فيه.[1]

انحنى فاضل ثانية، وأخذ مكانه.

---

(١) خريج الفقه الإسلامي من جامعة الأزهر. استقر في كابول ابتداء من سنة ١٩٨٤، حيث أنشأ مكتب الخدمات، الذي لعب دورا مهما في إعداد المتطوعين الدوليين الملتحقين بأفغانستان. إذ كان لخطبه الوعظية أثر كبير جدا في نفس بن لادن.

- إذاً، أنت تأمل الالتحاق بنا؟

طرح الفلسطينيُّ السؤالَ. ظن فاضل أنه شخص مشكوك في أمره.

- تماما. لقد عقدت العزم.

- إنه أمر غريب. لم تعد شابا.

- هل يكون العمر عائقا في الدفاع عن قضية ما؟

- ليس هذا ما يقصده أخي عزام، قال بن لادن مصححا. لكننا نتصور أن الإنسان لا يطمح، عندما يصل إلى مرحلة ما من الوجود، سوى إلى أن يقضي أياما هادئة. يا لها من رغبة مشروعة!

- أفهم، يا سيدي. لكنني قضيت الكثير من الأيام الهادئة. لقد ظللت أعيش متفرجا، في راحة تامة. كنت أمضي أوقات لهوي ألعب الغولف والورق، وأبدد حياتي في أمور تافهة، وأنا أشاهد بعين شاردة إهانة أبناء الإسلام. وكما شرحت للأخ أيمن، لقد كدست ثروة مع مرور السنوات، حيث ورثت ممتلكات زوجتي، التي ورثت بدورها شقيقتها «ليدي فوستر». إنها رهن إشارتكم.

توقف فاضل، وقد اندهش من عدم مقاطعته، قبل أن يستأنف كلامه:

- أشرتم إلى عمري. وأنتم على حق. إذ لا أملك القدرة الجسدية على متابعة تداريب المجاهدين. لكن هناك ألف طريقة لخدمة القضية. ثروتي واحدة منها، وهي لكم.

ران صمت قصير بعد مداخلة المصري.

- لماذا؟ سأل بن لادن.

- لماذا؟

قال أيمن مؤكدا:

- ما الذي حفزك، فجأة، على أن تعقد العزم؟ نصف قرن وأنت نائم، إنها مدة طويلة.

- توالي الأحداث. هل أسردها عليكم كلها ؟ حدثتكم قبل قليل عن الإهانات. إذا، عندكم الإجابة. لكنني أعتقد أن مذبحة صابرا وشاتيلا جعلت السيل يبلغ الزبى. فقلبي وروحي ينزفان. لم يعبأ الغرب بشيء، بينما يغطي الأمريكيون على أصدقائهم الصهاينة، كما جرت عادتهم. وقد اشمأززت من هذا الواقع.

حرّك بن لادن رأسه عدة مرات، قبل أن يقول:

- أحبك يا أخي. كلماتك عسل. ففيما يخص الأمريكيين... تذكر أنه مكتوب أنه...

أصبح صوته عذبا على نحو مدهش:

- «مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.»

- *الزلزلة*، الآيتان ٧ و٨، همس فاضل.

ظهر الرضا على سحنة أسامة.

- ممتاز، يا أخي، ممتاز. يبدو أنك عارف بكتاب الله.

- منذ وقت قصير فقط، أعترف بذلك. لكنه لم يعد يفارقني.

تدخل أيمن الظواهري فجأة:

- تكمن المشكلة الأساسية في أن العرب يكادون لا يغيرون عباءة، وإلا يجدون أمريكيا خلفها. وعندما تكنس نساؤهم أسفل الأسرّة، ماذا يجدن؟ أمريكيا. وعندما يريدون أن يمسحوا بعد الوضوء، يبحثون عن المنشفة ولا يجدونها. يسألون خدمهم: «أين منشفتي؟» فيجيب الخدم: «لقد أخذها الأمريكيون.»

هزّت ضحكة صامتة أضلع أسامة بن لادن وعبد الله عزام.

تباينت خفة الكلام الفجائية مع شظف الغرفة، بل ومع الديكور المحيط بها. عندما وصل فاضل إلى هنا، قال في قرارة نفسه إنه ليس بلدا، وإنما كوكب لا يستجيب لأي قاعدة معروفة على الأرض، ولا أي قانون. بل إن هناك، بعيدا جدا عن كابول، عالما آخر قوامه الجبال والكهوف فقط. إذ يمكن للمرء أن يتخفى فيها دون أن يثير فضول الجيوش السوفياتية وآلاتها الجهنمية التي تتجسس على العالم من السماء. في هذا المكان المعتّم، لن يخشى قنابلهم ذات النجوم الحمراء، لأنها لن تخترق ما لا يحصى من الأمتار من الصخور الصلدة.

أخبره دليله أن هذه القنابل، من سخرية القدر الرحيمة، تغني المؤمنين أحيانا، عندما تسقط على حقل من الصخور الثمينة، مثل الزمرد والبلور والياقوت، التي تزخر بها المنطقة. يكفي حينها أن يجمعوا الحجارة الخام، ليبيعوها في كابول. ففي آخر مرة، شقت قنابل هؤلاء القُمَّل من الماركسيين حقلا، جمع أنصار السيّد أسامة بلورا خاما باعوه فيما بعد لتاجر بالجملة بـ ٣٠٠ ألف دولار. كان هناك ثلاثة بلورات كبيرة مثل الجوز.

هنا وهناك، في الوديان، توجد قرى رعاة يكتفون بمعزاتهم وخرافهم، وبالأرز والقمح والتمر والماء النقي. كانوا يجهلون التلفزيون، لأنه لا يوجد في تلك الأنحاء أجهزة إرسال أو استقبال. وإذا كان بعضهم يعرفونه خلافا للعادة، فلأنهم ذهبوا إلى كابول لشراء الأسلحة. لكنهم سرعان ما يحمدون الله، لأنه حفظهم من هذه الصناديق التي تبث طيلة اليوم صور نساء فاجرات، وظرفاء متجمّلين يزعقون بالحماقات، وسياسيين مريبين بالطبيعة، والأنكى من ذلك، أمريكيين يركضون على ظهور أحصنة، وفي أيديهم أوهاق لصيد الحيوانات، أو يركبون سيارات ويطلقون الرصاص. سرعان ما

أخبره دليله أن طالبان، باركهم الله وحفظهم، سيشنقون هذه الصناديق على الأشجار، بعد أن يطردوا السوفياتيين ويستعيدوا زمام البلاد بأيديهم.

استأنف الظاهري كلامه:

- كان الإنجليز، الذين أصبحوا اليوم خدما للأمريكيين، أدقّ على كل حال. على الأقل، تكلّف بعضهم عناء تعلم العربية. كما تحملوهم طويلا. لكن الأمريكيين! اسمع ما كتبه أحد أساتذتي، سيد قطب،[1] الذي عاش مدة طويلة بينهم بعد حرب الغربيين الثانية.

تناول كتابا قريبا منه ولوّح به.

تمكن فاضل من قراءة العنوان: *أمريكا التي رأيت*.[2]

شرع أيمن يقرأ من الكتاب على ضوء مصباح كهربائي:

- «يبدو الأمريكي على الرغم من: العلم المتقدم، والعمل المتقن- بدائيا- في نظريته إلى الحياة، ومقوماتها الإنسانية الأخرى، بشكل يدعو إلى الدهشة. وبين هذه البدائية في الشعور والسلوك، تلك البدائية التي تذكر بعهود الغابات والكهوف! ويبدو الأمريكي بدائيا في الإعجاب بالقوى العضلية، والقوى المادية بوجه عام: بقدر ما يستهين بالمثل والمبادئ والأخلاق.»

سرت همسات موافقة في الغرفة.

---

(١) كان سيد قطب شاعرا وكاتب مقالات وناقدا أدبيا مصريا، وعضوا مناضلا في حركة الإخوان المسلمين. اتهم بتكوين جماعة مسلحة، حيث حكم عليه بالإعدام وشنق في القاهرة يوم ٢٩ أغسطس/ آب ١٩٦٦. وفي السجن، ألف كتابه الأهم *في ظلال القرآن*.

(٢) أنبه هنا إلى أن الكاتب أورد في النص الأصلي أنه اقتبس هذا الاستشهاد من كتاب *الإسلام ومشكلات الحضارة*. والحال أنه مأخوذ من كتاب *أمريكا التي رأيت* (المترجم).

- مثل الروس تماما، قال أحدهم.

- لا دين لهؤلاء القوم، استأنف الظواهري، وهو يضع الكتاب على ركبتيه. لقد عاش قطب بـ«غريلي» في ولاية كولورادو. وهي مدينة صغيرة تضم عشرين كنيسة. أراد أن يتحقق مما يفعله الناس في هذه الكنائس. زار إحداها. فما الذي رآه، يا إخوتي؟ رأى أزواجا يرقصون في المساء بباحة هذه الكنيسة. بل سمع أغنية: *Baby, It's Cold Outside* (حبيبتي، الجو بارد في الخارج).

بدا الحاضرون مرعوبين من منظر نساء ورجال يرقصون داخل مكان عبادة. لو رقصوا في مسجد لمزقوا إربا، وألقي بأشلائهم إلى الكلاب.

علّق بن لادن بنبرة فاترة:

- وهؤلاء الفاسقون هم من يحتلون قواعد في الأرض المقدسة ببلادي.

نادى واحدا من أتباعه، وطلب منه التحقق من مستوى الوقود بالمولد الكهربائي الذي يُسمع هدير محرّكه.

أخرج بوصلة من حقيبة قريبة منه. وضعها بعناية، وحدد القبلة، ثم أمر بإقامة صلاة العشاء.

في اليوم الموالي، عندما رحل فاضل، سأل الدليل عن جدوى المولد الكهربائي ما دام الجميع يستنير بالشموع والمشاعل.

همس الرجل:

- يشحن المولد بالكهرباء جهازَ غسل الكليّ الذي يبقي السيّد على قيد الحياة...

(٣١)

أنتم أيها الداخلون هنا، اقطعوا كل أمل.

دانتي أليغييري

الخليل، الضفة الغربية، يونيو/ حزيران ١٩٩٠

تجنب «أفرام» ببراعة الحجارة التي يرميها الأطفال على سيارته، ورجع إلى الخلف بشكل جامح. سقطت واحدة على زجاجها الأمامي الذي تشقق وتهشم وانسكب مطرا زجاجيا على جمانة. أطلقت صرخة تنم عن الخوف.

- سيقتلوننا!

- اهدئي، سيكون كل شيء على ما يرام، قال زوجها مطمئنا.

وسط صرير مرعب للكوابح التي أثارت سحابة من الغبار، استدار بسرعة وانطلق في الاتجاه المعاكس.

قال بشفتين منقبضتين:

- إنه الجنون. لن تنتهي هذه الانتفاضة إذاً أبدا! تجري هذه المأساة منذ ثلاث سنوات!

•

كان كل شيء قد بدأ، بالفعل، في غضون شهر مايو/ أيار ١٩٨٧، بعد أن نجح ستة معتقلين، متهمين بقتل ثلاثة إسرائيليين، في

الفرار من سجن غزة. وفي يوم ٦ أكتوبر/ تشرين الأول، رصدتهم القوات الإسرائيلية وقتلتهم على الفور، ودمرت بيوتهم بالجرافات. وكان هؤلاء الرجال، في نظر الفلسطينيين، أبطالا وشهداء.

وصل التوتر المتزايد إلى أعلى درجات اشتداده. ففي يوم ١٠ أغسطس/ آب، استجاب جميع سكان غزة للإضراب العام، الذي دعت إليه حركة الجهاد الإسلامي. إذ أقفلت الدكاكين والمتاجر ومحطات البنزين أبوابها، وأصبحت الشوارع عبارة عن ممرات طويلة تحفّها ستائر من حديد.

بعد أسبوع، وخلال حشد لعشرات الآلاف من المتظاهرين أمام الجامعة الإسلامية، أصدر الشيخ عبد العزيز عودة، أحد المسؤولَيْن في الجهاد، دعوة للثأر لشهداء ٦ أكتوبر/ تشرين الأول.

وفي مناوشات مع الجيش، أصاب الرصاص عشرين متظاهرا بجروح.

أظلمت السماء أكثر. وتلون الشفق بحمرة الدم. بدأت دائرة الانتفاضة تتسع.

في القدس، وبعد الصلاة، هاجم ألفا مسلم قوات الشرطة. وفي الخليل، نشبت المشاحنات بين الجهتين. وفي بيت لحم، أسفر مقتل طالب شاب على يد شرطي عن إغلاق الجامعة.

كانت أرض فلسطين تشتعل. ولم يكن أحد في المعسكرين قادرا على التحكم في الحريق.

وفي يوم ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، قتلت تلميذة في قطاع غزة برصاص مستوطن، فهاجمه أطفال الحجارة. وفي اليوم ذاته، أعلن الحاكم العسكري قرار طرد الشيخ عبد العزيز عودة. وردّت حركة الجهاد بتنظيم مظاهرات جديدة، حيث قررت إضرابا عاما آخر يوم ٢١.

انزلقت الأراضي المحتلة نحو دوامة قتل لا ترحم.

وفي يوم ٢٥، هبط عضو في جبهة تحرير فلسطين، قدم سرًّا من لبنان على ستن طائرة خفيفة ذات محرك، في الجليل الأعلى. ونجح في أن يندس داخل ثكنة عسكرية، حيث قتل ستة جنود قبل أن يستسلم. وفي فاتح ديسمبر/ كانون الأول، اغتيل تاجر، قدم غزة من أجل التسوق، بطعنات سكين. وفي يوم ٦، قتل مدني آخر في الظروف نفسها.

فرض الجيش حينها حظر التجول، لكن بعد فوات الأوان. إذ كانت الانتفاضة الأولى قد انطلقت، ولا شيء يمكن أن يوقفها.

وفي يوم ٧، دهست شاحنة مقطورة يقودها إسرائيلي بكل ما أوتيت من قوة سيارة على متنها سبعة عمال من مخيم جباليا شمال غزة. فارق اثنان منهم الحياة على الفور. حينها سرت شائعة مفادها أن السائق ليس سوى شقيق أحد الإسرائيليين اللذين قتلا طعنا يومين قبل ذلك. لم يكن ذلك مجرد حادثة سير، بل ثأرا.

ارتفعت صرخة الحجارة حتى بلغت عنان السماء.

بعد أربع وعشرين ساعة، وبعد أن انتهي مأتم العاملين، انقض آلاف الأشخاص على أول مخفر إسرائيلي في جباليا. كان هناك قتلى وجرحى. وخلال الليل، أقيمت متاريس في كل مكان تقريبا في قطاع غزة. وفي اليوم الموالي، أطلقت دورية النار على الحشود الهائجة، وقتلوا العشرات.

أصبحت المقاليع السلاح المفضل لدى آلاف المراهقين. لم يكن بعض المتظاهرين قد تجاوزوا سن العاشرة. وكأنه السحر، انقلبت آية الإنجيل، فأصبح داوود فلسطينيا. كانت أطياف ضحايا صابرا وشاتيلا تسير جنب المتمردين. صارت القوات الإسرائيلية متجاوزة تماما، وواعية أن السيطرة على الشارع الفلسطيني بدأت

تنفلت من قبضتها، فقررت فرض الحصار وحظر التجول. لكن لم ينجح أي منهما.

أصبح العصيان المدني كلمة السرّ، قوامه مقاطعة السلع الإسرائيلية وقصر التجارة على ساعتين أو ثلاثة كل يوم. كما طُلب من المصانع وأوراش العمل الالتزام بشعارات الإضراب الوطني، والعمل مقابل ذلك بنظام كامل خلال الأيام الأخرى حتى يُسمَح بتوسيع دائرة المقاطعة، فضلا عن الامتناع عن أداء الغرامات التي فرضتها المحاكم الإسرائيلية على المعتقلين أو أقاربهم. كما دعا المتمردون إلى استقالة الموظفين المدنيين ورجال الشرطة الفلسطينيين. فاستجاب مائتا موظف من بين ثلاثمائة في غزة لهذه الدعوة.

وخلال الأسابيع الموالية، اعتقل آلاف الفلسطينيين، تتراوح أعمار أغلبهم بين خمسة عشر وأربعة وعشرين عاما. عندما كان الجلادون يستجوبونهم، كانوا يصرخون برفض المهانات اليومية التي يتجرعونها، وهم يقضون ساعات طوال أمام المعابر. يتحملون عمليات التفتيش الطويلة، واقفين، مباعدين بين أرجلهم، رافعين أيديهم في الهواء. ويرفضون أن تصادر إسرائيل وثائق هوياتهم بدون سبب، وأن تقتحم بيوتهم ليلا. يصرخون برفض سلوكات بعض العسكريين السادية.

وفي يوم ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧، صوت مجلس الأمن بالأمم المتحدة، بدعوة من الجامعة العربية، بالإجماع على القرار رقم ٦٠٥، بناء على ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. إذ شجب القرار إقدام الجيش الإسرائيلي على إطلاق النار، مما أدى إلى مقتل مدنيين أبرياء، وجدد التأكيد على ضرورة تطبيق اتفاقيات جنيف في الأراضي المحتلة. وخلافا لما

جرت عليه العادة، لم تلجأ الإدارة الأمريكية إلى استخدام حق الفيتو. بل إن المتحدث باسم البيت الأبيض أصدر بلاغا ينتقد «الخطورة غير المقبولة لإجراءات الأمن والاستعمال المفرط للأسلحة النارية» لتفريق المتظاهرين.

كانت الشهور تمضي. حلّ الرصاص المطاطي محلّ الرصاص الحقيقي، لكن ذلك لم يقلص عدد القتلى في صفوف الفلسطينيين. إذ ارتفعت الحصيلة، أواخر شهر فبراير/ شباط ١٩٨٨، إلى خمسة وسبعين قتيلا.

وفي يوم ٨ مارس/ آذار، تسلل ثلاثة فتحاويين داخل إسرائيل عبر الحدود المصرية. تمكنوا من إحكام السيطرة على حافلة تنقل عمالا إلى مركز ديمونة النووي. نصب الجيش حواجز، واعترض سبيلهم. احتجز الكومندو ثمانية رهائن. أسفر هجوم وحدة مدربة على الحافلة عن مقتل خمسة أشخاص، من بينهم مدنيان.

غيرت الانتفاضة وجهها تدريجيا، حيث تحولت إلى حرب عصابات داخل المدن، وكثفت هجماتها. إذ فسحت المظاهرات الجماهيرية المجال لمعارك الشوارع بقيادة جماعات تناوش الجنود، وهي ترميهم بالحجارة وقنابل المولوتوف.

وفي يوم ١٦ أبريل/ نيسان، نزل كومندو إسرائيلي شاطئ تونس، واقتحم بيتا، ثم قتل أبا جهاد، رفيق عرفات الأول، الذي استقبل ثلاثين سنة شابّين سيصيران قائدين فيما بعد هما: حسين الحسيني وزيد القسام.

تنهدت جمانة:

- كيف سينتهي كل هذا؟ لم أعد أحتمل ذلك، يا «أفرام»! لم أعد قادرة على أن أرى إخوتي يموتون. لم أعد احتمل!

أجاب «أفرام»، دون أن تغادر عيناه الطريق:

- أعرف، أفهمك. حتى أنا لم أعد قادرا على رؤية الكثير من العنف، سواء من أهلك أو من أهلي. أشاطر ألمك، وقد أصبت بالغثيان. لكن لابد من الإيمان بالأمل. إني أحافظ على بارقة أمل لك ولي.

- الأمل، قالت المرأة وهي تبكي. عن أي أمل تتحدث؟

- عما قريب، ستجري عندنا انتخابات تشريعية. وأنا مقتنع أن الحزب العمالي سيفوز بها. سينتهي «شامير». سيرحل هذا المتطرف اليميني.

- ما الذي سيغيره هذا الرحيل؟ أنت تحلم، يا «أفرام»!

- ربما، لكن إذا صدقت توقعاتي، سيصبح «إسحاق رابين» الوزير الأول المقبل. إنه رجل طيب. رجل عادل. أعرف أنه يطمح للسلام. سترين. ثقي بي. سيكون «رابين» هو منقذ إسرائيل، ومنقذ شعبك.

*

باريس، ٢ أغسطس/ آب ١٩٩٠

عجّ مقهى السلام بالرواد، بالسياح خصوصا. لكن فواز ومجيدة لم يعودا يعتبران أنهما ينتميان إلى عوالم هؤلاء. فمنذ أن استقرا بعاصمة الأنوار قبل تسع سنوات، اعتبرا نفسيهما باريسيَّيْن. طبعا، مازال الزوجان يعانيان بعض الصعوبات في التحدث بالفرنسية. لكن ابنيهما غسان وعادل تمكنا من ناصية هذه اللغة وأجاداها، إن لم يكن أفضل من العربية.

هل سيردان يوما ما جميل دنيا وفضلها عليهما؟ لقد منحتهما هذه المرأة، التي التقيا بها بضع ساعات فقط، ما هو أفضل؛ أي

فرصة العيش بعيدا عن الدم والتعذيب والخوف الذي أصبح عملة رائجة في ظل نظام رجل تكريت.

القادسية، أعلن قائلا!

دامت الحرب مع إيران ثمانية أعوام بدل ثمانية أيام، كما توقع صدام. خلفت مليونا ومائتي ألف قتيل ومئات الآلاف من الجرحى أو المعطوبين، وخمسين ألف سجين حرب من العراقيين. خرجت البلاد من هذا النزاع ضعيفة ومخربة. طوال هذا الوقت كله، واصل هذا الوحش البارد استعراضاته، يدخن سيجاره، ويشرب «ويسكيّه» بهدوء، ويصطاد ويطبخ لبعض ضيوفه المفضلين. وفي الآن ذاته، كان يشيد قصورا عبثية، استلهم معمار بعضها من أساطير الحدائق البابلية المعلقة. وها هو اليوم يعاني نوبة حادة من نوبات جنون العظمة، ويجرّ الشعب العراقي نحو مأساة جديدة.

وضع فواز نسخة من صحيفة *«لوموند»* على الطاولة. قال مقترحا على زوجته:

- هل تريدين فنجان قهوة آخر؟

أجابت مجيدة بالسلب وسألته:

- ما الأخبار؟

- لا شيء متوقع. لقد أقدم محبوبنا صدام على احتلال الكويت.

- حفظنا الله! ما الذي أصابه؟ وبأي ذريعة تذرع كي يهجم على بلد شقيق؟

طلب فواز قهوة ثانية من النادل.

- آه! أنت تعرفين أنه مع وجود مجنون مثله، تصري كل الذرائع صالحة. أولا، لم يعترف أبدا بهذه الإمارة، التي ظل يعتبرها جزءا

لا يتجزأ من العراق. فهو يقول إن الإنجليز سرقوها منه غداة الحرب العالمية الثانية، قصد إنشاء دولة من كل الأجزاء، لغاية واحدة هي إرضاء مصالح التاج البريطاني. وهو يلوم الكويت أيضا، لأنها لا تحترم الحصص المحددة بالإفراط في إنتاج النفط، مساهمة في انخفاض سعر البرميل، حيث لا يوافق هذا الأمر بتاتا ما يقوم به صدام من أعمال، وهو الغارق في الديون منذ الحرب. لكنني أعتقد أن السبب الأساس يقع خارج هذا كلّه. ذلك أن الرئيس استشاط غضبا يوم تجرأ الشيخ جابر الأحمد الصباح على مطالبته بسداد جميع القروض الممنوحة له خلال الحرب ضد إيران. لذلك، أفترض أن صدام يتصور، وهو ينخرط في هذه المغامرة، أنه يرمي عصفورين بحجر واحد: من جهة، فهو يلغي الديون التي وقع عليها؛ ومن جهة ثانية، يمنح لنفسه الحق في آبار النفط الكويتي.

- لن يتركه الأمريكيون يفعل ذلك أبدا! فهو يجري نحو الهاوية! فكيف يتصور أنه سيخرج سالما من هذه العملية؟

ابتسم فواز:

- يا حبيبتي، المجنون رجل يؤمن بكل ما يخطر على باله.

(٣٢)

القدس، ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٥ ، ٢٢,٢٥ ،
ساحة الملوك بإسرائيل

كان «أفرام» وجمانة يتنفسان بصعوبة وسط الحشود الغفيرة، لكنهما لم يرغبا أن يفوتا هذه اللحظة التاريخية. إنه السلام! السلام! أخيرا ظهر السلام، يكنس الأفق الذي ادلهمّ طوال نصف قرن بجنون القتل وسفك الدماء دون فائدة. إنه السلام! السلام! قبل ذلك بلحظات، كان الوزير الأول إسحاق رابين وشمعون بيريز، وزيره في الشؤون الخارجية، قد أنشدا نشيد السلام رفقة آلاف الأشخاص. لقد تحقق ما لم يتصوره أحد، حيث صار الحلم المستحيل في المتناول. أما في تلك اللحظة، فكانت مكبرات صوتية تبث أنغام موسيقى الروك تحت سماء صافية ملآنة بالنجوم. وتحولت الساحة إلى حلبة رقص ضخمة، غنى فيها مئات الشباب ورقصوا على إيقاع الأمل الذي تحقق.

فجأة، سرت شائعة بين الحشود، وصارت تنتفخ حتى غطّت على الموسيقى. انتفخت، ثم تدفقت مثل سيل جارف، حتى غمرت الساحة.

صرخت امرأة بأعلى صوتها، معلنة الخبر المستحيل الذي لا يحتمل:

- لقد أطلقوا النار على «رابين»!

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلا.

قال أحدهم مطمئنا:

- لا. أصيب بجرح فقط.

استدار «أفرام» وتفحص المكان.

هل وصلت سيارة الإسعاف حينها، أم أنها كانت موجودة هناك تحسبا لأي مأساة؟

رأى عشرات رجال الشرطة يسندون شابا إلى حائط. لماذا؟ من هو؟ وما الذي فعل؟

- هل أطلقوا النار على «رابين»؟ سألت جمانة غير مصدقة، ودموعها تكاد تنهمر.

- يبدو الأمر كذلك، لكنه لن يصاب سوى بجروح، دمدم «أفرام».

- هل أطلقوا النار على «رابين»؟

بدت الفلسطينية عاجزة عن الكلام.

- هيا، لنعد إلى البيت. لا شك أن الإذاعة ستتحدث عن الحادث. هيا.

بعد بضع دقائق، سمعا بالفعل صوت مدير الديوان «إيتان هابر» تغلب عليه مشاعر الحزن.

- بعد أن نقل الوزير الأول «إسحاق رابين» إلى مستشفى «إيخيلوف»، توفي بسبب جروحه. وقد اعتقلت الشرطة قاتله في مكان الجريمة. اسمه «إيغال عامير». وهو طالب بالجامعة الدينية «بار إيلان». اليوم، تعيش أرض إسرائيل أكبر حداد لها.

أمسك «أفرام» رأسه بين يديه. كانت الدموع تنهمر على خدّيه.
انهارت جمانة على أريكة.

في اليوم الموالي، جرت مراسيم تشييع الوزير فوق جبل هرتسل. تحلّق أعداء البارحة حول نعشه.

بالكاد حبس حسين ملك الأردن دموعه. وقد حضر الجنازة أيضا الرئيس المصري حسني مبارك، ورئيس الحكومة المغربية عبد اللطيف الفيلالي، والعديد من الوزراء العرب القادمين من الخليج. لكن لم يسمح لياسر عرفات بالحضور لأسباب أمنية، حيث مثله وفد فلسطيني قاده مساعده محمود عباس، المعروف باسم أبو مازن.

وكان بين الحاضرين بيل كلينتون وجاك شيراك وأمير بريطانيا «تشارلز». كما تنقل إلى إسرائيل مندوبون لأكثر من ثمانين دولة.

أصبحت ساحة الملوك، في مدينة الديانات الثلاث، تذكارا ضخما. تزينت الأسوار والأرصفة وواجهات المتاجر ومخادع الهاتف بكتابات وقصائد تمجد شهيد السلام.

ومع ذلك، كان كل شيء يبدو قريبا ومحتملا.

كان الجميع ما يزال يتذكر المشهد المهيب عقب اتفاقات أوسلو،[1] الذي يظهر فيه عرفات و«رابين» و«بيريز»، وهم يبصمون بتوقيعاتهم على الوثيقة التي تنهي معاناة دامت نصف قرن. أخيرا، ستنشأ دولة فلسطينية، وسيعترف بإسرائيل في حدودها، وستنتهي مأساة طال أمدها! أخيرا! لن يعود هناك أي قتلى، أو آلام، أو أسر في حداد. إنه رجل ذو عزيمة قوية انتصر على الكراهية.

---

(١) كانت نتاج محادثات بين مفاوضين إسرائيليين وفلسطينيين في النرويج، تروم وضع اللبنات الأولى لحل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني. لكنها لم تدخل حيز التنفيذ أبدا بعد وفاة «رابين».

في ذلك اليوم بواشنطنّ، خاطب «رابين» الشعب الفلسطيني قائلا :

«نحن الذين قَتَلنا وقُتِلنا، نسير بجانبكم لكي نبني مستقبلا مشتركا. لقد قلت لكم، أيها الرئيس عرفات، أننا جميعا يجب ألا نترك الأرض التي يجري فيها الحليب والعسل تغرقها الدموع. فإذا لم يتحد شركاء السلام ضد ملك الموت الذي هو الإرهاب، فإن صورة- ذكرى واحدة ستبقى عالقة من هذا الحفل، وسرعان ما ستغرق أنهار الحقد الشرق الأوسط.»

دنا «إيتانِ هابر»، رفيق درب «رابين»، من النعش.

- إسحاق هو الخطاب الأخير. لن تكون هناك خطابات أخرى. لقد كنت، طيلة جيل يمتد لخمس وثلاثين سنة، بمثابة الأب الثاني بالنسبة لي. قبل أن يخرج الرجل مسدسه بخمس دقائق، أنشدت «نشيد السلام»، وأنت تقرأ كلماته من ورقة سلمت لك، حتى لا تتمتم، كما تقول دائما. تعرفن يا إسحاق، أنك صاحب ألف خصلة. كنت رائعا، لكنك لم تكن بارعا في الغناء. كانت نوطاتك نشازا طوال النشيد، ثم طويت الصفحة أربع طيات، كما هي عادتك، قبل أن تضعها في جيب سترتك. وفي المستشفى، سَلَّمَنيها الأطباء. والآن، أريد قراءة هذا النص، لكن يشقّ علي ذلك لأن دمك، دمك يا إسحاق، يغطي بعض الكلمات. دمك.. على «نشيد السلام».

قرأ بصوت مخنوق:

دع الشمس تشرق، تضيء تباشير الفجر.

فالصلاة الأطهر لا تحيي

من انطفأ شمعدانه.

لا توقظه صرخة ألم،

ولا تبعثه.
لا شيء سيبعثنا من الحفرة المعتمة هنا.
لا هتافات النصر ولا
المدائح تأتي بالنجاة.
إذاً، لا تنشد سوى نشيد سلام،
ولا تهمس بأي صلاة.
واصرخ بأعلى صوتك وأنت تغني أغنية السلام!

طوى «إيتان هابر» الورقة، ووضعها في جيبه، ثم قال هامسا:

- يا إسحاق، إننا نفتقدك بالفعل...

انتهت.

خاتمة

ابتداء من الساعة العاشرة يوم ١١ سبتمبر/ أيلول، وانطلاقا من خط الطول ٤٢ غرب، بدأت موجة الصدمة تتلاطم من منطقة زمنية إلى أخرى، وهي تهز العالم. تجسدها صور واقعية لارتطام طائرتين على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك.

بعد بضع دقائق، انهار معلما الرأسمالية المعاصرة، كما يشير إلى ذلك اسمهما، وسط زوابع من الغبار. وبعد وقت قصير، تحطمت طائرة أخرى فوق البنتاغون في واشنطن، وأخرى في العراء بـ«شانكسفيل» في ولاية بنسيلفانيا، بعد أن حاول ركاب وأعضاء الطاقم استعادة السيطرة عليها، دون جدوى.

كانت الشاشات في لندن وروما وموسكو، وفي القاهرة وبرازافيل وشنغهاي وسيدني أيضا، تنقل هذه الصور التي تتحدى العقول الراجحة. كانت تتابعها ملايير العيون، لكن القليل من العقول فقط كانت تستوعبها، لأنها كانت، فعلا، لا تقلّ مصداقية عن استطلاع حول الفناء.

منذ اليوم الموالي، أشار «كولين باول» بأصابع الاتهام إلى العدو الكامن في تنظيم إرهابي إسلامي أو إسلاموي- لم تكن هناك فروق دقيقة بين الكلمتين- يدعى القاعدة. وزعيمه سعودي يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما، اسمه أسامة بن لادن.

كما حطم التحقيق حول الهجوم عددا من المفاهيم الواسعة الانتشار حول المنطق الأمريكي، الذي دخل مملكة العبث.

بالفعل، ظهر في البداية أن وكالة الاستخبارات المركزية جنّدت المدعو بن لادن في اسطنبول سنة ١٩٨٠ لغايات تموين الميليشيات الأفغانية في كفاحها ضد السوفياتيين الذين كانوا يحتلون أفغانستان. استقر في كابول، وتكلف بتوزيع الأموال الأمريكية والسعودية على من سيصبحون طالبان فيما بعد.

هكذا، سخّن الأمريكيون حَديد الحركات الإسلامية، التي طعنتهم، وضربوه بأنفسهم.

تفاقم العبث بسرعة. إذ نشر مكتب الاستخبارات الفيدرالي، بعد يومين، أسماء وصور الإرهابيين المسؤولين عن الهجوم. كان سبعة عشر، من بين عشرين، سعوديون، حيث رصدوا منذ عدة شهور داخل مدارس خاصة بقيادة الطائرات. حامت حولهم الشكوك، لأنهم لم يكونوا يهتمون، على نحو غريب، بمراحل الطيران الحرجة، أي الإقلاع والهبوط، بل بالقيادة أثناء التحليق. كان مكتب الاستخبارات الفيدرالي أوصى بطردهم، لكن الرئيس «جورج و. بوش» اعترض على ذلك، حفاظا على العلاقات المتميزة مع العربية السعودية، حيث لم يكن يرغب في إغضاب أصدقاء بطردٍ لا مبرر له.

كانت مصالح المخابرات الأمريكية تملك إذاً الوسائل للحيلولة دون وقوع الهجوم، لكنها لم تتحرك، إما بسبب الخوف، وإما لأنها مُنِعَت من ذلك.

كانت المهانة مريرة.

استولى الاضطراب على العقول.

استأنفت الآلة الجهنمية، التي أسرت العالم السياسي قرابة نصف قرن، مسارها المجنون.

كلمة شكر

أشكر جزيل الشكر «تيما داودي» التي لولاها لما نُشر هذا الكتاب في آجاله المحددة. فأنا ممتن لجميل صنيعها الصادق، ولدعمها لي بما مدّتني بها من وثائق غنية، وكذا للعمل الرائع من البحث المنجز الذي وفّر عليّ شهورا من العمل الإضافي.

يخطر على بالي أيضا «تيير بيلار»، الملقب بـ«الخربشة الرفيعة»، فهو ضميري الأدبي. أشكره على مزاجه المرح على الدوام وصبره البادي على مدار هذا العمل الطويل.

كما أعبر عن تشكراتي لـ«فيرجيني بلانطار»، لجاهزيتها وفطنتها اللتين أظهرتهما أثناء إعادة قراءة المخطوط.

ولا أنسى ناشري «جيل هايري»، لما أبداه من ثقة تجاهي.

ببيليوغرافيا

A la recherche d'une identité, Anouar el-Sadate, Éditions Fayard.

Arafat, Terrorist or Peacemaker?, Alan Hart, Éditions Sidgwick & Jackson Ltd.

Ces malades qui nous gouvernent, P. Accarce, D. Rentchnick, Éditions Stock.

Comment le peuple juif inventé, Shlomo Sand, Éditions Fayard.

Du rêve à la réalité, David Ben Gourion, Éditions Stock.

Entre le socialisme de Nasser et l'infitah de Sadate (1952-1981), Mohamed H. Heikal, Éditions L'Harmattan.

Fayçal, roi d'Arabie, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

Gamal Abdel Nasser et son équipe, Georges Vaucher, tomes I et II, Éditions Julliard.

Ibn Séoud, ou la naissance d'un royaume, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople: Politics and War, Bernard Lewis, Oxford University Press Inc.

Israël, Palestine, Alain Gresh, Éditions Fayard.

L'Egypte en mouvement, Jean et Simone Lacouture, Éditions du Seuil.

L'Identité palestinienne, Rashid Khalidi, Éditions la Fabrique.

La Formation de L'Irak contemporain, Pierre-Jean Luizard, Éditions du CNRS.

La grande guerre pour la civilisation, Robert Fisk, Éditions la Découverte.

La guerre du Liban, Samir Kassir, Éditions Karthala-Cermoc.

La question de la Palestine, Henry Laurens, Éditions Fayard.

La Syrie: politiques et stratégies de 1966 à nos jours, Catherine Kaminsky, Simon Kruk, PUF.

Le Grand Aveuglement, Charles Enderlin, Éditions Fayard.

Le Grand Mufti et le nationalisme palestinien, Louis Denisty, Éditions L'Harmattan.

Le Proche-Orient éclaté, Georges Corm, Éditions Gallimard.

Le Retour des exilés, Henry Laurens, Éditions Robert Laffont.

Le Rêve brisé, Charles Enderlin, Éditions Fayard.

Les Arabes et la Shoah, Gilbert Achcar, Éditions Sindbad/Actes Sud.

Les Documents du Caire, Mohamed H. Heikal, Éditions Flammarion.

Les Sept Piliers de la sagesse, T. E. Lawrence, Éditions Phébus.

Lion of Jordan, the Life of King Hussein in War and Peace, Avi Shlaim, Allen Lane.

Ma vie pour Israël, Yitzhak Shamir, Éditions Ramsay.

Mémoires du grand mufti, Éditions EL-Ahali. (مذكرات المفتي، دار الأهالي).

My People Shall Live, Leila Khaled, Georges Hajjar Éditeur.

Nasser, Jean Lacouture, Éditions du Seuil.

Ô Jérusalem, Dominique Lapierre et Larry Collins, Éditions Robert Laffont.

Orient-Occident, la fracture imaginaire, Georges Corm, Éditions la Découverte.

Palestine, 1948, L'Expulsion, Les Livres de la *Revue d'études palestiniennes*, Elias Sanbar.

Palestine, histoire d'un Etat introuvable, Rashid Khalidi, Éditions Actes Sud.

Palestiniens, 1948-1998, de la lutte armée à l'autonomie, Christian Chesnot, Joséphine Lam, Éditions Autrement.

Par le feu et par le sang, Charles Enderlin, Éditions Albin Michel.

Suez, Marc Ferro, Éditions Complexe.

The Letters of Gertrude Bell, Lady Gertrude, Ernest Benn.

Too Rich, William Stadiem, Éditions Carroll & Graf, New York.

Un printemps arabe, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

Un siècle pour rien, Jean Lacouture, Ghassan Tuéni, Gérard D. Khoury, Éditions Albin Michel.

Une femme d'Egypte, Jehane Sadate, Éditions Presses de la Renaissance.

Une terre pour deux peuples, Ilan Pappe, Éditions Fayard.

Winston Churchill, Martin Gilbert, Dial Press Inc.

هذا الكتاب

هتف تيمور لطفي وهو يشرع صفحات جريدة «فرانس أوبسيرفاتور»:

- اسمع، يا هشام! اسمع، يا بني. المقالة بقلم أحدهم اسمه «كلود بوردي».

- كل شيء على ما يرام، أليس كذلك، السيد رئيس المجلس؟ فنظام الكولونيل عبد الناصر أقوى مما كان من قبل. وتحوّلت مشاعر المصريين والشعوب العربية الأخرى تجاه فرنسا، التي كانت غامضة بالأمس، إلى حقد. وفي الشرق الأوسط كلّه، لن يوجد أي معهد فرنسي، ولا مدرسة فرنسية، ولن يشتروا أي بضاعة فرنسية، ولن يوظفوا أي تقني فرنسي. وقد بات المتمرّدون الجزائريون ينتظرون، الآن، يد العون من جميع البلدان العربية.


ISBN 978-9933352639

